نحو وعي سياسي واستراتيجي وتاريخي

الكتاب الثالث - الجزء الأول

قراءة في فكر

علماء الاستراتيجية

" إدارة الصراع العربي - الإسرائيلي "

أ. د/ حامد ربيع

إعداد

أ. د/ جمال عبد الهادي مسعود

الشيخ/ عبد الراضي أمين سليم



دار الوفاء

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص . ب ٢٣٠
ت :٣٤٢٧٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨
المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فإن محور مشاكل العالم العربى ـ وهو جزء من العالم الإسلامى ـ هو الاحتلال الإسرائيلى (الصهيونى) الذى تسانده القوى الاستعمارية لأرض فلسطين. والأمة مطالبة بمواجهة هذا التحدى بشجاعة ومقدرة وجديّة، وذلك يستلزم فهم حقيقة هذا الصراع وتكتيل جميع القوى العربية والإسلامية لمواجهة هذه الغزوة الصهيونية الاستعمارية، للأرض التى بارك الله فيها للعالمين؛ واتخاذ مواقف واضحة وعملية من إدارة هذا الصراع.

* وقد عالج الأستاذ الدكتور حامد ربيع هذا الموضوع فى المقالات التى جمعناها فى هذا الكتاب، والكاتب ـ رحمه الله ـ لا يناقش فى هذه الصفحات المشكلة اليهودية ـ على اعتبار أنهم أهل كتاب ـ ولهم الحق أن يعيشوا فى كنف الدولة الإسلامية كمواطنين لهم حق البر والقسط، يأمنون على عقائدهم وأعراضهم وأموالهم بشرط ألا يتآمروا على الدولة أو غيرهم من المواطنين؛ كما عاشوا دوامًا فى الأندلس ـ على عهد بنى أمية وآل عباس وآل عثمان(1).

* إن الذى يعنى الكاتب فى تلك المقالات، ويعنى الأمة العربية والإسلامية، بل والإنسانية كلها، إسرائيل كدولة عدوانية عنصرية توسعية تسعى إلى إقامة إسرائيل الكبرى، بعد إبادة وتشريد شعب فلسطين.

ويرى الكاتب ـ رحمه الله ـ :

* ضرورة استئصال التوجه الصهيونى من إسرائيل.

* إدارة الصراع العربى الإسرائيلى يملك أساليب متعددة منها:

ـ الصدام العنيف، أى القتال المسلح.

ـ الصدام من خلال التعامل الدبلوماسى (التفاوض بهذا المعنى).

* إن المسئولين فى العالم العربى قد أخفقوا عام 1973 فى إدارة الصراع، استنادًا فقط إلى إدارة التعامل الدبلوماسى.

---

(1) «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».

* إن دراسة هذا الصراع بقصد التعامل معه ـ بإدارته ـ يستلزم الإلمام المسبق بمجموعة عناصر:

أولاً ـ طبيعة الصراع وخصائصه.

ثانيًا ـ دوائر الصراع.

ثالثًا ـ الأطراف المتعاملة فى الصراع.

* أيها القارئ الكريم: إن إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، موضوع شغل حيزًا ضخمًا فى أبحاث الدكتور حامد ربيع ـ رئيس قسم العلوم السياسية بجامعة القاهرة ـ ومن هذه الأبحاث هذه الصفحات التى بين يديك والتى نشرت عام 1985، وتدور حول مسائل كثيرة منها:

- كيف نتعامل مع الوجود الصهيونى، الذى بات يتهدد الكيان العربى كله، وما يستلزمه ذلك من ضرورة فهم حقيقة الصراع، وتكتيل جميع القوى العربية لمواجهة هذا الصراع.
- إن الصراع العربى ـ الإسرائيلى لا يحتمل التوفيق، أو التجزئة؛ لأنه صراع مصيرى.
- إن هذا الصراع لا يدور فقط حول المشكلة الفلسطينية، بل إن المشكلة الفلسطينية ليست آخر حلقة من حلقات هذا الصراع، فالعدو يهدف إلى خلق عدم استقرار فى المنطقة، وتجزئتها إلى كيانات صغيرة، وخلق القطيعة العضوية بين أجزاء الوطن العربى، والاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة، واستذلال شعوب المنطقة.
- إن العدو الصهيونى لم يعلن حتى الآن حدوداً للدولة؛ لأن هذه الحدود لا ترسمها إلا لغة القوة؛ وإن العدو الصهيونى لا يحترم المواثيق الدولية.

* وإن العالم العربى يحتاج إلى أمور أربع لمواجهة إسرائيل:

أولا ـ سلاح متقدم.

ثانيا ـ مساندة فى النطاق الدولى.

ثالثا ـ تكنولوجيا تسمح بإلغاء حاجز التخلف.

رابعا ـ القيم المتحكمة فى سلوكيات الطرف المتعامل.

وذلك بهدف بناء إطار واضح لعملية إدارة الصراع من الجانب المصرى.

وذكر الكاتب ـ رحمه الله ـ :

طبيعة وخصائص الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

لا يحتمل التوفيق ـ أى صراع مصيرى ـ لا يحتمل التجزئة، إما أخذ الكل أو ترك

إن الأرض التى تقوم عليها إسرائيل ـ التى تحتلها إسرائيل ـ هى أرض فلسطين «وقف إسلامى؛ لأنها أرض الأقصى «بيت المقدس» التى لا يقبل الله أن يتسلط عليها الصهاينة»[1].

* إن العالم العربى هو ـ مؤقتًا ـ الطرف الضعيف، وعلى قيادته أن تعلم أنه لابد فى الأمد البعيد من منازلة إسرائيل فى ميدان القتال العضوى، بل إن إسرائيل تُعد لحرب مع العالم العربى فى فترة لا تتجاوز 1995 (أو كما حددها الكاتب حرفيًا حول عام 1995).

* لذلك فإن تقوية الجيوش العربية ليس فقط لشن حرب قادمة، بل إنه أيضًا لمنع إسرائيل من أن تُقدْم على حرب جديدة.

* فى كل صراع هناك أطراف متعاملة، وخلف كل منها توجد أطراف تساند أو تُدعّم أو تُقوّى موقف الطرف المتعامل:

هناك قوى خارجية تعمل لحساب إسرائيل: فالقدرة الأمريكية والدبلوماسية الغربية والصهيونية العالمية جميعها تخدم تل أبيب [وكذلك حلف الأطلنطى وروسيا].

* لقد استطاعت إسرائيل أن تُكتّل خلفها جميع القوى اليهودية والمتعاطفة مع الصهيونية فى جميع أنحاء العالم.

* وفى المقابل فإن القوى العربية غير متماسكة، وغير متساندة فى الصراع ضد إسرائيل، بل هناك من القوى العربية من تعمل لصالح إسرائيل[2]، تارة بوعى، وتارة دون وعى حقيقى.

وقد ترتب على ذلك : أن أضحى الصراع غير متكافئ الأطراف.

فبينما جميع القوى الدولية تقف خلف القضية الصهيونية، لا نجد أى قوة دولية حقيقية تساند القضية العربية، حتى دول العالم الثالث منقسمة على نفسها؛ بل وحتى الدول الإسلامية يخدمها من حيث الواقع من هو متحالف مع إسرائيل فى مواجهة دول عربية أخرى.

وتحدث الكاتب ـ رحمه الله ـ أيضا عن الأطراف المتعاملة فى هذا الصراع، ومصالح كل طرف متعامل، والقيم الحقيقية المستندة خلف هذا الصراع والمتحكمة، والأطراف المباشرة فى التعامل:

* إن القوة الأصلية التى تقف فى هذا الصراع موقف التناطح الحقيقى هى مصر

---

(1) فتوى علماء الأزهر فى 18 جمادى 1375هـ، فى 1 يناير 1956م.

(2) «المرجعية العربية والحركات الطائفية»، «سوف أظل عربيًا» مقالات لحامد ربيع بمجلة الطليعة العربية.

وإسرائيل، فإسرائيل لم توجد إلا لِتَشُل مصر، ومن الناحية الواقعية فليس فى المنطقة دولة سوى مصر تستطيع أن تقف فى مواجهة حقيقية مع إسرائيل.

* فمصر هى قائدة العالم العربى، وهى دولة تقع فى حوض البحر المتوسط الشرقى، بل وتتحكم ـ وهى دولة إسلامية ـ إن لم تكن هى معقل الإدراك العقدى الإسلامى، وكان من الواجب على مصر القيادة إلى أن تدرك ذلك، وتعد العدة للقيام بدورها، ولكن الملاحظ ـ والكلام للكاتب ـ أن الاختلال الحقيقى فى ميزان القوة بين مصر وإسرائيل ليس فى خط ثابت لصالح إسرائيل، بل إن مصر (عام 1985) أسوأ حالاً فى الضعف لمواجهة تل أبيب. لماذا؟

لأن خلف إسرائيل وجدت أربع قوى تؤيدها وتساندها بطريقة كاملة ومطلقة:

* **الدول الاستعمارية فرنسا وبريطانيا وأمريكا.**

* **الرأسمالية الدولية.**

* **الصهيونية العالمية.**

* **الرأى العام الأوربى، وبصفة خاصة العربى.**

وفى المقابل لم تنجح مصر فى خلق تكتل دولى خلفها، لم تعرف كيف تكتل العالم الإسلامى خلفها، بل إنها تركت تركيا وغيرها تقع فى براثن النفوذ الصهيونى.

وذكر الكاتب أن أخطر التهديدات التى يثيرها هذا الصراع :

* خلق عدم الاستقرار فى المنطقة.

* خلق القطيعة العضوية بين أجزاء الوطن العربى، وبصفة خاصة ما هو شرق سيناء وما هو غربها.

* اغتصاب أجزاء من الوطن العربى(1).

* تحويل المنطقة إلى مسرح للاستقطاب الدولى.

* الاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة.

* الاعتداء على الحقوق والحريات الفردية للمواطن العربى فى الأرض المحتلة.

* إنكار حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.

---

(1) كتاب «كيف نفكر استراتيجيًا» لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ مركز الإعلام العربى ـ 1997. «ملف إسرائيل» روجيه جارودى؛ «أهداف إسرائيل التوسعية» روجيه جارودى؛ «مصر والحرب القادمة» حامد عبد الله ربيع ـ دار الوفاء. طبعة 1998؛ جريدة عرب تايمز عددها 107 بتاريخ 11 : 1992/12/20.

* وبهذا يتضح لنا أن الخطر الصهيونى لن يقف عند حدود فلسطين، وأن مؤتمرات السلام والمفاوضات هى وسيلة العدو لتخدير مشاعر العرب، وريثما يتم إعداد القوة اللازمة لفرض الاستسلام على الأمة العربية..

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف/ 21.

وفى موضع آخر من المقالات : فصّل حامد ربيع حديثه عن أخطر التهديدات التى يثيرها الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

* إن إسرائيل تحرص على خلق عدم الاستقرار فى المنطقة (العالم العربى)؛ لأن ذلك يسمح لها بالهيمنة على المنطقة، ويخلق مناخًا معينًا يسمح لها بالتوسع المتدرج.

والدليل أن إسرائيل لم تعلن حتى اليوم أو تحدد حدودها الدولية؛ لأن هذه الحدود لن ترسمها إلا لغة القوة ـ كما يتصور الصهاينة ويعتقدون.

كما أنها تحرص على تجزئة الوطن العربى. إن مفهوم التجزئة أو البلقنة (شبه جزيرة البلقان) فى التصور الصهيونى لن يقتصر على العالم العربى، بل سوف يتعداه إلى جميع أجزاء منطقة الشرق الأوسط، بما فى ذلك أجزاءه غير العربية.

* من التهديدات التى يتعرض لها العالم العربى نتيجة الاحتلال الصهيونى لأرض فلسطين:

الأدوات والتعاملات غير الأخلاقية، وكذلك الممارسات المرتبطة بعملية الإفساد والتطويع للإرادة العربية مثل: [نشر المخدرات، إشاعة التحلل الجنسى، نشر الإيدز]، الاضطراب فى إدارة المرافق القومية، عملية التسميم الفكرى والغزو المعنوى، التى خضعت لها كل الفئات المثقفة، ولم تترك حتى أساتذة الجامعات.

وتساءل الكاتب : هل نعاصر حربا أخرى من حروب الهيمنة الإسرائيلية؟

وأجاب : إن اتفاقية كامب ديفيد لم تنه هذا الصراع.

والصراع العضوى قد أُجل مؤقتًا، لكنه قابل لأن ينشب فى أى لحظة، والإعلان أن حرب 1973 هى آخر الحروب، لا يخرج فى عُرف القانون الدولى عن إعلان نوايا، وليس التزامًا مقننًا.

الفقه الإسرائيلى واعى بذلك، وهو يصف العلاقة بين مصر وتل أبيب بكلمة ذات دلالة الحرب النائمة(1) Dorment war.

(1) ولعل الأحداث الحالية (أكتوبر 1998) تؤكد صحة ما قاله الكاتب المصرى ـ رحمه الله ـ وغيره، وبهذا يمكن أن نقول وقطعت جَهيزَةُ قول كل خطيب.

إن إدخال أمريكا فى حل الصراع العربى الإسرائيلى كان خطأ قاتلا: فالولايات المتحدة ليست طرفا أصيلا، ولا محايدا، وهى لا تتعامل مع المصالح العربية بنظرة موضوعية. وليس من صالح الحَمَل أن توضع معه ذئاب، إسرائيل والولايات المتحدة. أسوأ موقف لأن توجد مصر فى مواجهة إسرائيل ومعها الولايات المتحدة.

* إن التوسع الصهيونى قد يكون أفقيًا (عسكريًا)، وقد يكون رأسيًا بمعنى التهويد ونشر المستوطنات، وقد يكون سلميًا، بمعنى خلق المصالح المشتركة والصداقات المتعددة التى قد يكون فى بعض الأحيان أخطر، أو على الأقل لا يقل خطورة عن التوسع العسكرى (كما حدث فى مصر).

* **وعرض الكاتب ـ رحمه الله ـ لعملية إدارة الصراع وخصائصها وعلاقتها بما يسمى صنع القرار، ونبه على أهمية التمييز بين أربعة مستويات منها:**

* صنع السياسة.

* وصنع القرار السياسى.

* وتنفيذ القرار.

* وإدارة الصراع المرتبط بالقرار.

وذكر الكاتب ـ رحمه الله ـ أن إدارة الصراع تعنى :

قيادة أولاً ، وموقفًا ثانيًا، وقدرات ثالثًا، وأهدافًا واضحة رابعًا .

وأن القدرات التى يجب أن يوظفها القائد :

* الجيش أو الإدارة العسكرية.

* الدبلوماسية أو الجهاز الدبلوماسى.

* الإعلام وكل ما يتصل بعملية جمع المعلومات.

* القوى الداخلية.

* القوى المتعاطفة أو المؤيدة صاحبة المصلحة فى النطاق الخارجى.

كما قام الكاتب بتقويم النماذج التاريخية لإدارة الصراع العربى الإسرائيلى :

* نموذج جمال عبد الناصر.

* نموذج أنور السادات.

* نموذج مناحيم بيجن.

* نموذج هنرى كيسنجر وكيف حقق أهدافه.

وذكر أن إسرائيل، وكل من فرنسا وبريطانيا وألمانيا أسهمت بشكل أو بآخر فى الدفاع عن المصالح الإسرائيلية.

* إن الأمة العربية شربت السم بغزارة من أيدى الدول الثلاث (اعتداء عام 1956)، وهو تحالف بين إسرائيل وكل من فرنسا وبريطانيا.

* السلاح الذى استخدم فى حرب عام (1967) كان سلاحًا فرنسيًا.

حتى هذه اللحظة القدرة النووية الإسرائيلية هى نتيجة تعاون وثيق بين تل أبيب وباريس.

الذى أنْفَقَ فعلاً على حرب عام 1967 كانت ألمانيا.

وذكر الكاتب ستة مبادئ صهيونية تحكم الحركة الصهيونية فى فلسطين:

* تقوية الكيان الذاتى.

* تثبيت الوجود الإقليمى.

* استئصال الوجود الفلسطينى.

* تدعيم التحرك نحو تجزئة المنطقة العربية.

* التوظيف الثابت للإدارة الإسرائيلية، فى النطاق الدولى.

* توظيف التوازن الدولى لإطلاق حرية تل أبيب فى المنطقة.

وذكر الكاتب أن القائد المثالى لإدارة الصراع، يجب أن تتوفر فيه الشروط التالية:

* المعرفة المسبقة الواضحة بالأهداف.

* المعرفة الحقيقية بالإمكانيات.

* التوظيف المقنن المتدرج للإمكانيات فى سبيل تحقيق الأهداف.

* القدرة على تكتيل الإمكانيات فى مسار الاستراتيجيات العامة للنضال.

* الصلاحية للتمييز الواضح بين الخطوة التكتيكية فى مراحل النضال والاستراتيجية العامة والكلية الشاملة للتقاتل.

وذكر الكاتب أن جميع الوقائع الثابتة تؤكد أن إسرائيل وأمريكا كانت على علم بحرب العاشر من رمضان ـ 6 أكتوبر 1973 ـ قبل وقوعها، ولكنها لم تتوقع النجاح المصرى السورى.

ـ إن حرب رمضان ـ 6 أكتوبر 1973 ـ كانت نجاحًا عسكريًا حقيقيًا، أقلق جميع القيادات غير العربية المتعاملة مع المنطقة، وبخاصة القيادة الأمريكية.

كيف استطاع كسينجر إجهاض هذا النجاح؟

* كيف يجب على الجانب العربى أن يُعدّ ويخطط لإدارة هذا الصراع، خاصة وأن الطرف الإسرائيلى يؤمن بأن الحرب قادمة، وأنه لابد من الصدام العنيف.

* من العبث الحديث عن قوى متعاطفة مع الجانب العربى، وجميع القوى الدولية تسهم بشكل أو بآخر فى تهيئة الجو لتستطيع إسرائيل أن تحقق أهدافها فى المنطقة حتى أوربا الغربية.

* إن جوهر الصراع هو فى نهاية الأمر استئصال إسرائيل، يجب وضع حد للوجود التوسعى وأحلام بناء إسرائيل الكبرى، مهما كان أمر هذا الصراع، ومهما تحملنا من تضحيات.

* هذه هى بعض الملامح الرئيسة لمقالات الأستاذ الدكتور حامد عبد الله ربيع (الصراع العربى ـ الإسرائيلى) التى نُشرت فى الصحف عام 1985، جعلناها فى كتاب من جزئين يحمل رقم (الثالث) ضمن سلسلة (نحو وعى سياسى واستراتيجى وتاريخى).

والجزء الأول منه بعنوان : «إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى».

ويتكون من خمسة فصول :

الفصل الأول : طبيعة الصراع .. وطبيعة التهديدات

المبحث الأول : المتغيرات .. وطبيعة الصراع

المبحث الثانى : طبيعة التهديدات

الفصل الثانى : دوائر الصراع .. واحتمال حرب أخرى

المبحث الأول : دوائر الصراع .. والأطراف المتقاتلة

المبحث الثانى : هل نعاصر حربًا أخرى من حروب الهيمنة؟

الفصل الثالث : إدارة الصراع.. ونماذج الإدارة

المبحث الأول : عملية إدارة الصراع وخصائصها

المبحث الثانى : نماذج لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى

المحور الأول : نموذج الإدارة فى عهد عبد الناصر

المحور الثانى : نموذج الإدارة فى عهد السادات

المحور الثالث : تقييم لنموذجي عبد الناصر والسادات

* أما الجزء الثانى من الكتاب الثالث ، فهو بعنوان : «كيف تفكر إسرائيل»

* وجهدنا فى هذا الكتاب هو جهد المؤرخ الذى يقوم بجمع الوثائق التاريخية وترتيبها وتبويبها، تمهيداً لإخضاعها للتقويم والتحليل واستخلاص النتائج، لعل الأمة (بل الإنسانية كلها) أن تستشعر الخطر الصهيونى الاستعمارى على عقيدتها وديارها وثرواتها ونسلها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق/ 27).

جمال عبد الهادى مسعود

عبد الراضى أمين سليم



الفصل الأول

مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع
العربى - الإسرائيلى

طبيعة الصراع .. وطبيعة التهديدات

المبحث الأول : المتغيرات وطبيعة الصراع
المبحث الثانى : طبيعة التهديدات





تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

واجتمع الرؤساء والملوك والسلاطين والأمراء والشيوخ، وتمت المصالحات لخلافات استغرقت أكثر من عشرة أعوام، واتفق الجميع على إنهاء فترة التفكك العربى، فهل تذكّر هؤلاء القادة حقيقة المأساة التى تعيشها هذه الأمة العربية منذ أربعين عامًا؟

طُرحت على بساط البحث أربعة مشاكل:

أولا ـ عودة مصر إلى الصف العربى، وعودة الأمة العربية إلى أحضان مصر.

ثانيا ـ موقع المنظمات الإقليمية الجديدة من التنظيم الأم؛ الذى فشل حتى الآن فى أن يؤدى وظيفته وهو جامعة الدول العربية.

ثالثا ـ مشكلة التعامل مع المنظمات الدولية الجديدة، وبصفة خاصة منظمة السوق المشتركة، والتى سوف تتحول خلال فترة قصيرة إلى واقع سياسى له أبعاده فى المنطقة.

رابعا ـ موقف الأمة العربية من منطق التعامل الدولى الجديد.

ولكن إلى جوار هذه المشاكل التى كانت فى ذهن القادة العرب، والتى لم يجرؤ أحد على التصدى الحقيقى لها، وإنما كانت تعلنه وثائق هذه اللقاءات التى نُشرت، والأخبار التى تداولتها الصحافة العربية والعالمية، كانت هناك أربعة مشاكل أخرى تشغل بال الحاضرين:

أ ـ المشكلة الفلسطينية أو بعبارة أدق: مشكلة الانتفاضة، وكيف يمكن مساندة هذا الجزء الباسل من الشعب العربى.

ب ـ المشكلة اللبنانية وما تعنيه من مخاطر، ليس فقط على الشعب اللبنانى، بل على الأمة العربية.

جـ ـ مشكلة الصراع حول الخليج أو حرب الخليج وما تعنيه من أنه لا تزال هناك قنابل موقوتة قابلة للانفجار.

د ـ مشكلة الصراع بين جناحى حزب البعث فى بغداد ودمشق، الذى تحول إلى شبه صراع مسلح على أرض لبنان.

لا نريد أن نُقيّم هذا اللقاء، ولا نريد أن نتابع متغيراته من حيث النجاح والفشل.

ولكن هل يحق لنا أن نطرح سؤالاً أساسيًا، وهو محور جميع هذه التفاعلات التى نشهدها فى المنطقة.

أين هذا اللقاء من مشكلة إدارة الصراع العربى الإسرائيلى؟، المشكلة الحقيقية التى كان يجب أن تبرز واضحة فى ذهن القيادات العربية المسؤولة، تدور حول موضوع واحد وأساسى: كيف نتعامل مع الوجود العبرى فى صراعنا القادم؟

لقد قلنا وأعلنا فى أكثر من موضع واحد وصرخنا فى أكثر من مناسبة بأن محور جميع مشاكل المنطقة هو الوجود الإسرائيلى، وأن هذا يجب أن يواجه بشجاعة وبمقدرة وجدية. ومعنى ذلك حقائق أساسية:

أولا ـ فهم حقيقة هذا الصراع.

ثانيا ـ تكتيل جميع القوى العربية لمواجهة هذا الصراع.

ثالثا ـ اتخاذ موقف واضح من عملية إدارة الصراع.

هذه العناصر الثلاث لم يُقدّر لها حتى اليوم التعامل الفكرى الحقيقى، وبصفة خاصة الناحية الثالثة، بل إن قياداتنا حتى اليوم ـ كما يبدو من تصريحاتهم وأحاديثهم ومواقفهم ـ لم تفهم معنى ذلك. ولماذا نذهب بعيداً؟ نقرر ومن موقع المسؤولية أنه فى جميع الأماكن العلمية التى قُدر لنا أن نتعامل معها ـ فى دمشق وبغداد وطرابلس والرباط والقاهرة ـ فإن صورة واضحة لما تعنيه هذه الكلمات ليس لها موضع. لا نريد أن نناقش أسباب ذلك ولا نريد المسؤولية وموقعها، **ولكننا سوف نقدم هذه الصفحات هدية لكل من يريد أن يفهم العنا صر الأولية فى هذا الإطار للتحليل ـ إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى.**

وحتى يكون موقفنا واضحًا نقدم بعناصر ثلاث يجب أن يعيها جيداً القارئ منذ البداية:

أول هذه العنا صر : أننا لا نناقش فى هذه الصفحات المشكلة اليهودية. إن الذى يعنينا هو إسرائيل والصهيونية، إسرائيل كدولة توسعيّة، تقوم على أساس فكرة إسرائيل الكبرى ـ كمعقل للصهيونية ـ حيث تسعى لتجميع يهود العالم من جانب، وحلمها هو الهيمنة على المنطقة من جانب آخر، هذا المفهوم لم يعد مجرد كلمة تُطلق، بل إنه مخطط يسود الفكر القيادى فى «تل أبيب»، ولعل ما قاله بهذا الخصوص وزير الخارجية الأمريكى خير دليل لإثباته: إن هذا الحلم بدأ يُقلق نفس القيادات الأوربية الصديقة، بما فى ذلك الرئيس الفرنسى «ميتران»، نحن لسنا ضد قضية حق اليهودى فى أن يعيش فى أى مكان، مع

احترام حقوقه كأفراد أو أقليات حتى فى داخل الوطن العربى.

العنصر الثانى : فى هذا الإطار ـ وهو المتعلق بمصير إسرائيل، نحن لا نثير بهذا الخصوص عملية الاستئصال العضوى لإسرائيل كدولة قومية. ليس هذا ما نطرحه ونحن فى هذه الصفحات لا نعلن موقفنا بخصوص هذا الكيان، ولكن ذلك الذى نعلنه ونؤمن به هو ضرورة استئصال التوجه الصهيونى من إسرائيل، يجب أن تتحول إسرائيل إلى جسد يعكس ما يُعبر عنه الشرق الأوسط من خصائص، وليس أن تحيل إسرائيل الشرق الأوسط إلى ما يتفق مع أهدافها.

العنصر الثالث : والذى يجب أن تفهمه القيادات جيداً أن إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى تملك أساليب متعددة، أسلوب الصدام العنيف، أى القتال المسلح، ليس سوى أحد هذه الأساليب. هناك أيضاً أسلوب الصدام من خلال التعامل الدبلوماسى، أو بعبارة أدق: التفاوض، بهذا المعنى يجب أن نفهم سياسة الرئيس السادات عقب اتفاقية فك الاشتباك الثانى ـ مما لا شك فيه أنه قد أخفق فى ذلك، ولكن هذا لا يمنع من أن هناك منطلقات فكرية معينة لهذا التعامل. لقد أخفق الرئيس السادات، ولذلك قاومناه وتحملنا حياة المنفى خلال قرابة ثمانية أعوام؛ لأنه لم يفهم معنى ولا كيفية إدارة الصراع بهذا المعنى. والواقع أن علينا أن نعترف بأننا أخفقنا عام 1973 فى قيادة الصراع من منطلق مفهوم التعامل العضوى والعسكرى، ثم أخفقنا فى عام 1977 عندما انطلقنا فى إدارة الصراع بالاستناد فقط إلى إدارة التعامل الدبلوماسى. وما يحدث اليوم هو أننا فى طريقنا لتجديد نفس الأخطاء مع فارق أساسى: الشعب العربى لن يسمح ولن يغفر الأخطاء القادمة، إنه لن يقف صامتاً أمام قياداته وهى تتلاعب بمصيره. الثورة قادمة وهى لن تتردد فى أن تكتسح كل من لم يعرف كيف يحترم مصالحها.

هذه الحقائق المختلفة نطرحها منذ البداية، وسوف نعود لتفصيلها أكثر، ولكن ليكون الإدراك بذلك الذى نسجله واضحاً ودقيقاً.

أى دراسة للصراع ـ بقصد التعامل مع ذلك الصراع بإدارته من أحد الأطراف المتعاملة ـ تفرض الإلمام المسبق بمجموعة عناصر:

أولا ـ طبيعة وخصائص الصراع.

ثانيا ـ دوائر الصراع.

ثالثا ـ الأطراف المتعاملة فى الصراع.

رابعا ـ القيم المتحكمة فى سلوكيات الطرف المتعامل.

نتابع هذه الجزئيات التى تمثل المقدمات الأساسية لإمكانية بناء إطار واضح لعملية إدارة هذا الصراع من الجانب العربى.

طبيعة وخصائص الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

يمكن القول بصفة عامة : إن الصراع العربى ـ الإسرائيلى يتميز بست خصائص تضفى عليه مذاقًا متميزًا بين الصراعات المعاصرة، وتسمح بالفهم الواضح لطبيعة هذا الصراع:

أولا ـ هو صراع لا يحتمل التوفيق.

ثانيا ـ وهو صراع تسيطر عليه النواحى العاطفية.

ثالثا ـ وهو صراع لا يعكس حقيقة القوى المتعاملة.

رابعا ـ وهو صراع غير متكافئ الأطراف.

خامسا ـ وهو صراع مركب، بمعنى أنه متعدد العناصر.

سادسا ـ وهو صراع متعدد الدوائر، ومن ثم متعدد الأطراف المتعاملة، تبعًا لكل دائرة.

فهم هذه العناصر الستة يسمح لنا من جانب بفهم حدود وإمكانية القياس بعد التعامل مع هذا الصراع، بمعنى نقل خبرة الصراعات الأخرى أيضًا فى تلك الدائرة. وهو يسمح بفهم طبيعة هذا الصراع، وهو كذلك يسمح لنا بفهم موقف مصر الحقيقى من هذا الصراع.

متابعة هذه العناصر يسمح لنا بعبارة أخرى بفهم القيود التى يجب أن نعترف بها على الحركة العربية فى إدارة الصراع.

الصراع العربى ـ الإسرائيلى لا يحتمل ولا يقبل التوفيق :

أول هذه العناصر : أن هذا الصراع لا يحتمل التوفيق. أو كما نعبر عنه فى لغتنا الدارجة بأنه صراع مصيرى، يقصد بذلك أن موضوع الصراع لا يحتمل التجزئة، فهو يفرض واحد ـ من اثنين لا ثالث لهما: إما أخذ الكل أو ترك الكل.

موضوع الصراع لا يقبل القسمة سوف نرى أن أحد عناصر هذا الصراع، بل ومحوره الحقيقى، هو أن الأرض التى تقوم عليها إسرائيل هى أرض عربية، وهى فى لغة أكثر شيوعًا «أرض فلسطينية» ومحور الصراع الحقيقى: هل هذه الأرض تنتمى إلى الشعب الفلسطينى؟ أم أنها تنتمى إلى إسرائيل؟ هذا الانتماء لا يمكن أن يتجزأ أو يتعدد. إنه واحد.

ولعل من المفيد أن نعيد بهذا الخصوص القارئ إلى أبسط مبادئ التعامل التفاوضى ـ كما نُدرِّسها لطلبتنا. حدث خلاف بين امرأتين حول طفل كل منهما تزعم أنه ابنها، ولم تستطع أى منهما أن تثبت ذلك سوى بأقوالها، ذهبت المرأتان إلى سليمان الحكيم، وعقب

أن استمع إليهما، صمت قليلاً، ثم أضاف: ليس أمامى سوى أن أشطر الطفل إلى نصفين، وأعطى كل أم نصف الطفل، فهبت إحدى الحاضرتين صارخة: كلا، لا أريد، فنظر إليها سليمان الحكيم طويلاً، ثم قال: إذن فليكن لك هذا الطفل.

هكذا هناك صراعات لا تحتمل التوفيق، على أننا نسرع فنذكر بأن هذا لا يعنى أننا نرفض المحاورة والمناورة من خلال موضوع المؤتمر الدولى. إنه وسيلة لإضعاف الطرف الآخر. قواعد التعامل الدولى بهذا الخصوص معروفة ومتداولة وهى ثلاثة، على الطرف الضعيف أن يستغل أى تحرك أو خطوة تؤدى إلى إضعاف الطرف الآخر أولاً، ثم عليه من جانب آخر أن يجعل أحد محاوره فى التعامل دائمًا تحديد إرادة الطرف الآخر، بحيث يُحيطه بالكثير من الشك فى أهدافه وقدراته ثانيًا، ولكن عليه أن يواصل استعداده وتقوية ذاته بجميع الأدوات والوسائل منتظرًا اللحظة المناسبة، ليضرب ضربته القاضية ثالثًا. العالم العربى هو ـ مؤقتًا ـ الطرف الضعيف، وعلى **قياداته أن تعلم أنه لابد فى الأمد البعيد، من منازلة إسرائيل فى ميدان القتال العضوى. بل إن إسرائيل نفسها تعد لذلك وسوف تبدؤنا هى بالحرب، وسوف يرى القارئ الوثائق الدامغة بهذا الخصوص، وكيف أن القيادات الجديدة فى «تل أبيب» تعد لحربها فى فترة لن تتجاوز عام** 1995(*).

ولكن بغض النظر عن ذلك، فإن الذى يجب أن تفهمه قياداتنا أن تقوية الجيوش العربية ليس فقط لشن حرب قادمة، بل إنه أيضًا لمنع إسرائيل من أن تقدم على حرب جديدة. لقد خرجت علينا مجلة «أكتوبر» منذ عدة أيام تتساءل. لماذا التسليح العربى؟ على لسان أحد أولئك الذين قبلوا وسعدوا بالتعامل المباشر مع السلطات الصهيونية، ولا يزالون على عدم وعيهم، بل وأخشى أن أقول: إن هذه القيادات الصهيونية قد استطاعت أن تغسل عقولهم، وتحيلهم إلى أداة صماء لخدمة «تل أبيب» وأنصار «تل أبيب».

الصراع العربى ـ الإسرائيلى... وحقيقة الأطراف المتعاملة :

فى كل صراع هناك أطراف متعاملة، وخلف كل منها توجد أطراف أخرى تساند أو تدعم أو تقوى موقف الطرف المتعامل.

أول ما نلاحظه على هذه الأطراف المتعاملة المباشرة ـ ونقصد بذلك الطرف العربى من جانب، والطرف الإسرائيلى أو الصهيونى من جانب آخر، كيف تسود كلاً منهما شحنة

(*) كون أن الحرب لم تقع عام 1995، لا يعنى أن العدو قد تخلى عن أهدافه بإشغال المنطقة فى حروب لتمزيقها إلى كانتونات، وإقامة الدولة اليهودية بحدودها التوراتية، مع ملاحظة أن الكاتب ـ رحمه الله ـ قال فى موضع آخر [حول عام 1995] وكلمة حول فى معاجم اللغة تعنى التقديم أو التأخير.. والله أعلم.

انفعالية. ليس فقط الجانب الإسرائيلي بما يتصل بالوعد الإلهي[1] وعمليات التعذيب[*] المتعددة التي خضع لها المجتمع اليهودي في أوربا، وخلال قرون متعاقبة، بل وكذلك من الجانب العربي، حيث شعب شُرِّد أكثر من نصف قرن، وطُرِدَ من أرضه بحجة حماية شعب آخر مهما قيل عنه، فهو مغتصب لأرض آخرين. وليس أدل على هذه الحقيقة من القراءة المتأنية للخطابين[2] اللذين تبادلهما كل من «مناحيم بيجن» والرئيس «السادات» في زيارته المشهورة لمدينة القدس.

كذلك فإن الصراع يقدم إحدى الخصائص التي لا نجدها في أي نموذج آخر من نماذج الصراع التي تعيشها الأسرة الدولية المعاصرة؛ ذلك أن هذا الصراع العربي ـ الإسرائيلي لا يُعبر عن حقيقة القوى الذاتية المتصارعة، الصراع في جوهره هو بين المجتمع الإسرائيلي من جانب والمجتمع العربي من جانب آخر ـ بهذا المعنى ـ هو بين قوتين غير متكافئتين، ولصالح الجانب العربي كمًا، بل وكيفًا، ويكفي أن نذكر بهذا الخصوص الناحية الاستراتيجية، فالأرض التي تعيش عليها إسرائيل لم تكن طيلة تاريخ الإنسانية مصدراً لقلاقل، إنها تخضع لجوارها، فإما أن يطأها أهل وادي النيل في خروجهم وتوجههم شرقًا أو شمالاً، وإما يغتالها الكلاب القادمة من الشرق في طريقها إلى الدلتا الغنية بقدراتها. ولكن الواقع أن هذه المعادلة قد انقلبت، فإذا بعدم التكافؤ يصير لصالح الدولة الدخيلة في المنطقة، والسبب في ذلك يعود إلى ثلاثة متغيرات:

المتغير الأول : أن هناك قوى من خارج المنطقة تعمل لحساب إسرائيل، فالقدرة الأمريكية والدبلوماسية الغربية الصهيونية العالمية جميعها تخدم «تل أبيب»، وتضع كل قدراتها في الجانب اليهودي.

المتغير الثاني : أن القوى العربية غير متماسكة وغير متساندة في الصراع ضد إسرائيل، **بل هناك من القوى العربية من يعمل لصالح إسرائيل**، الرجعية العربية والحركات الطائفية، بل وكثير من القوى الجديدة تارة بوعي، وتارة دون وعي حقيقي.

المتغير الثالث: هذا الاختلاف هو أكثر وضوحًا في العلاقة بين القيادات الإسرائيلية من جانب، والقيادات العربية من جانب آخر. القيادة الإسرائيلية استطاعت أن تُكتّل خلفها ليس فقط المجتمع الإسرائيلي بل جميع القوى اليهودية والمتعاطفة مع الصهيونية في جميع

---

(1) المقصود به: ما جاء في توراتهم ـ المحرفة ـ في سفر التكوين 18/15 {... لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات].

(*) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

(2) كتاب: «عواصف الحرب وعواصف السلام» الكتاب الثاني ـ محمد حسنين هيكل ـ المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل ـ طبعة دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة، عام 1996، ص 377.

أنحاء العالم، بينما القيادة العربية لم تعرف كيف تُصفِّى خلافاتها الجانبية والمؤقتة.

وقد ترتب على ذلك أن أضحى الصراع غير متكافئ الأطراف، فبينما جميع القوى الدولية تقف خلف القضية الصهيونية، لا نجد أى قوة دولية حقيقية تساند القضية العربية. حتى دول العالم الثالث منقسمة على نفسها، بل وحتى الدول الإسلامية نجد منها من حيث الواقع من هو متحالف مع إسرائيل[1] فى مواجهة دول عربية أخرى. المأساة الحقيقية تبرز عندما نجد دولاً عربية تقف من القضية العربية من حيث الواقع موقف التناقض، فلنتذكر سوريا وليبيا من العراق واليمن الجنوبى، بل وإلى حد معين، ليبيا من الصومال، بل وكذلك من السودان.

المتغيرات الداخلية لحقيقة الصراع العربى ـ الإسرائيلى:

الصراع العربى ـ الإسرائيلى متعدد العناصر، إنه ليس صراعًا واحدًا، بل هو يتكون من العديد من الصراعات، بحيث يمكن أن يوصف بأنه صراع مركب على أن خطورة هذه الناحية أن كل جزئية من جزئياته مستقلة عن الأخرى، بل ويمكن التعامل معها باستقلال كامل، وهو أمر يثير مشكلة التفاوض بخصوص حل الصراع وأسلوب التفاوض: هل يكون من خلال الخطوة الخطوة، كما فعل «كيسنجر»: أم من خلال أسلوب الصفقة الشاملة؟ كلا الأسلوبين له مخاطره ـ وله مزاياه ـ على أن القاعدة العامة، والتى سوف نراها تفصيلاً فى موضع آخر، أن الطرف الضعيف يجب أن يتجنب أسلوب الخطوة الخطوة، إلا إذا فَرضت عليه الظروف ذلك، كذلك فإن البعض لا يزال يتصور أن الصراع العربى الإسرائيلى يدور حول المشكلة الفلسطينية. وهذا لم يعد صحيحًا، بل إن المشكلة الفلسطينية[2] ليست آخر عناصر هذا الصراع.

ولنذكر بإيجاز أهم عناصر هذا الصراع أو بعبارة أدق أهم التهديدات[3] التى يثيرها

---

(1) مثل تركيا التى أبرمت اتفاقيات عسكرية مع إسرائيل، وتقوم بمناورات مشتركة معها ومع أمريكا.

(2) لكى تدرك أن الصهاينة يحلمون بدولة من النيل إلى الفرات. وتمزيق المنطقة العربية إلى كانتونات طائفية ويدعمهم فى ذلك قوى الاستعمار العالمى، يراجع كتب:

* كيف نفكر استراتيجيًا ـ لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل، مركز الإعلام العربى، القاهرة: 1997.
* النظام السياسى فى إسرائيل ـ لواء أ. ح. فوزى محمد طايل، دار الوفاء 1992.
* قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية ـ أ. د. حامد عبد الله ربيع، دار الوفاء 1998.

(3) «أنتم غير اليهود» للحاخام اليهودى (موريس صموئيل) ص 26 هامش رقم 1، حيث يقول: «نحن اليهود، نحن المدمرون، سوف نبقى مدمرين إلى الأبد. مهما عملنا، فإن ذلك لن يكفى احتياجاتنا ومطالبنا. سوف ندمر؛ لأننا نريد العالم لنا»، كتاب: «حقيقة اليهود» فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعى ـ طبعة ثالثة (الكويت ـ الصفا ـ ص. ب: 22821)، عام 1406هـ ص 57؛ مقدمات العلوم والمناهج «العالم الإسلامى والغزوة الصهيونية». أنور الجندى، ص 245.

هذا الصراع:

أولا ـ خلق عدم الاستقرار فى المنطقة.

ثانيا ـ خلق القطيعة العضوية بين أجزاء الوطن العربى، وبصفة خاصة ما هو شرق سيناء وما هو غربها.

ثالثا ـ اقتطاع أجزاء من الوطن العربى والأرض العربية.

رابعا ـ التهديد بتجزئة الوطن العربى.

خامسا ـ تحويل المنطقة إلى مسرح للاستقطاب الدولى.

سادسا ـ الاعتداء على حرمة الأماكن المقدسة[1].

سابعا ـ الاعتداء على الحقوق والحريات الفردية للمواطن العربى فى الأرض المحتلة[2].

ثامنا ـ إنكار حق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.

---

(1) «حوارات القدس» عماد الدين أديب. كتاب اليوم ـ دار أخبار اليوم، عدد يناير 1997، ص16 وما بعدها، حديث الشيخ/ عكرمة صبرى، مفتى القدس، حديثه حول الاعتداءات على المسجد ـ الصخرة ـ عام 1982، وحول التخريب تحت المسجد الأقصي ـ حفر الأنفاق بدأ من عام 1967، وتدمير حى المغاربة وغيرها. حتى ص 46.

(2) نفس المصدر السابق ص55 الحديث مع الدكتورة حنان عشراوى ـ حول عملية تفريغ القدس من الفلسطينيين، وفرض الضرائب، ومنع البناء، وهدم البيوت، سن القوانين غير الشرعية، وحتى ص 96 لترى نماذج من الاعتداءات على الحقوق والحريات الفردية للمواطن داخل الأرض المحتلة. «الطريق إلى بيت المقدس» القضية الفلسطينية د. جمال عبد الهادى، طبعة أولى دار الوفاء، 1993، ص164 الفصل 11، المبحث الأول وما بعده.



المبحث الثانى

طبيعة التهديدات لأمن المنطقة العربية

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«**أول هذه التهديدات** : هو خلق عدم الاستقرار فى المنطقة، وهو يدور حول تشجيع عناصر معينة على الخروج عن قواعد التعايش السلمي ـ الذى ساد المنطقة منذ بروز الإسلام وسيطرته على المنطقة ـ حيث التعامل التاريخى ـ خَلَق إطارًا ثابتًا من الممارسات اليومية والجماعية. أحد أدوات عدم الاستقرار أيضًا، الحروب الدورية المتكررة، التى تنتهى بالهزيمة، فإذا بالاضطراب، فضلاً عن مرارة الإخفاق يخلق إطارًا آخر لعدم الاستقرار.

مثل هذه السياسة ـ أى سياسة عدم الاستقرار ـ تتعارض مع مصالح القوى العظمى، وبصفة خاصة غير اليسارية. مصالح الرأسمالية تنبع من مفاهيم مختلفة. الاستقرار هو الذى يُمكّن تلك القوى من الحصول على ثروات المنطقة، لقد وصل الأمر بتلك القوى لأن تتعامل أيضًا مع النظم الدكتاتورية والعسكرية والرجعية المتخلفة، طالما أنها تسمح بذلك الاستقرار وعدم الاضطراب، وبصفة خاصة فى تسيير مرافق الحياة اليومية فى حد أدنى من الفاعلية من جانب والمقتضيات الأمنية من جانب آخر. مصلحة إسرائيل لا تسير فى هذا الخط. إن ما يعنيها هو **التوتر والاضطراب وخلق الفُرقة. استراتيجية التوتر هى التى تتفق مع سياستها؛ لأنها تحقق هدفين:**

الهدف الأول : أنها تسمح لها بالصيد فى الماء العكر.

والهدف الثانى : أنها تخلق مناخًا معينًا يسمح لها بالتوسع المتدرج(*). منذ وجود إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط حتى اليوم، لم يمض عام واحد دون صراع بلغ حد الصدام المسلح. والواقع أنه من الناحية التاريخية، فإن هذا الواقع يخالف التقاليد التى عرفتها المنطقة. لقد سبق وذكرنا ذلك، فهذه الأرض التى توجد بها إسرائيل لم تكن فى أى

(*) «إسرائيل بين اليهودية والصهيونية» روجيه جارودى ـ ترجمة حسين حيدر، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة أولى 1990، ص 154 تحت عنوان: سياسة إسرائيل الخارجية (النزعة التوسعية)؛ أهداف إسرائيل التوسعية، لواء أركان حرب محمود شيت خطاب.

مرحلة من مراحل التاريخ مصدرًا للقلاقل والاضطرابات وهى اليوم تقوم بوظيفة تفجير قلب منطقة الشرق الأوسط.

ثانى هذه التهديدات: خلق القطيعة المكانية، فالتواصل المكانى بين منطقة المشرق العربى والمغرب العربى عَبْر شبه جزيرة سيناء وشمال الدلتا ظل طيلة تاريخ المنطقة ـ وبصفة خاصة منذ فتح مصر، فى عهد عمر بن الخطاب ـ قاعدة مطلقة. كان الحاج يخرج على قدميه من المغرب حتى الحجاز دون أى عقبة حقيقية. حتى فى فترة الحروب الصليبية، فإن الاستعمار الخارجى ظل متمركزًا على الشاطئ دون أن يتوغل فى العمق، فقط منذ الاستعمار الإسرائيلى حدثت تلك القطيعة، بل إن القيادة التاريخية الإسرائيلية كانت تضع ذلك الهدف فى حسبانها منذ البداية. إنها تريد أن تخلق على حدود مصر الشرقية دولة(1) تعزلها عن باقى العالم العربى فيما هو أبعد من منطقة سيناء. هذا الهدف الذى أعلنه بصراحة «بالمرستون» منذ نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولا يزال «محمد على» يجلس على عرش مصر، هو الذى تبنته السياسة الصهيونية منذ وجودها. عودة إلى التعليمات التى أصدرها «بن جوريون» إلى «موشى دايان» فى حرب 1948 تفصح عن هذه الحقيقة. لقد كان فى إدراكه وصول «دايان» إلى خليج العقبة أهم من استيلائه على القدس رغم أهميتها التاريخية فى الوجدان اليهودى.

التهديد الثالث : وهو المرتبط باقتطاع أجزاء من الوطن العربى، ومن الأرض العربية. لقد اقتطعت إسرائيل جزءًا من الأرض العربية باسم: «أرض إسرائيل، وهى تستند فى ذلك إلى الوعد الإلهى(2)، على أن الواقع أن إسرائيل وقيادتها حتى اليوم لم تعلن أو تحدد حدودها الدولية؛ لأن هذه الحدود لن ترسمها إلا لغة القوة، ولنتذكر بهذا الخصوص أمرين:

الأول ـ أنه فى الوقت الذى تمت فيه تصفية الاستعمار فى جميع أنحاء العالم تقريبًا، تبرز إسرائيل كتعبير عن المفهوم الاستعمارى التقليدى رغم جميع المسميات.

الأمر الثانى ـ أن الاستيلاء على أرض الآخرين بقوة السلاح هو مخالفة صريحة لميثاق الأمم المتحدة(3) ولجميع الوثائق الدولية. كذلك فإن القيادة الإسرائيلية تعلم جيدًا أن هذه

(1) هذه الدولة هى إسرائيل الكبرى، التى تريد تحقيقها حسب توراتهم ـ المحرفة ـ من النيل إلى الفرات.

(2) التوراة سفر التكوين 18/15: «وفى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ـ إبراهيم ـ عهدًا لنسلك أعطى الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات». وإبراهيم ـ عليه السلام ـ نبى مسلم قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/ 130، 131. والنبى المسلم لا يرثه الكافر، بل ورثته هم المسلمون. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران/ 67.

(3) الأمم المتحدة وهى وليدة اليهودية العالمية وأحد أدواتها التنفيذية، من ماسونية وصهيونية وجمعيات يهودية أخرى... فهى من صنع اليهود للسيطرة على العالم. راجع كتاب «إسرائيل والتلمود» إبراهيم خليل أحمد ـ دار المنار 1990 ـ ص 126.

السياسة التوسعية مقيدة بعدة اعتبارات:

أولا ـ أن إسرائيل ـ فى واقعها الحالى ـ محكوم عليها إن لم يكن بالاختفاء فبأن تتحول إلى دولة شبح. الدول المهيمنة هى فقط الدول الكبرى، وإذا كانت القيادة الإسرائيلية تخطط لتجعل من تلك الدولة قدرة متسلطة ومتحكمة فى المنطقة، فإن ذلك مقيد بالتوسع الإقليمى، وذلك التوسع لن يكون إلا على حساب الأرض العربية.

ثانيا ـ كذلك فهى دولة محاطة بعداوة ثابتة ـ تقف منها موقف الرفض ـ بل والرفض العنيد. مثل هذا الرفض لا يمكن وضع حد له إلا بالتوسع الإقليمى؛ الذى أساسه تحطيم العداوة المجاورة، وتطويع تلك الإرادة، من خلال اقتطاع أجزاء من تلك الأرض المحيطة، الأمر الذى يعنى خلق حالة إذلال جماعية لها نتائجها على الأقل فى الأمد القريب.

ثالثا ـ كذلك فإن إسرائيل تعيش على أرض فقيرة، وهى لن تستطيع أن تعوض فقرها الطبيعى إلا بالتوسع، وبصفة خاصة بالتوجه نحو الأجزاء الغنية المحيطة بها، سواء كان ذلك فى اتجاه أرض البترول والمعادن، أو الأرض الزراعية.

رابعا ـ أضف إلى ذلك أن إسرائيل تجعل سنداً لها ولتقوية وجودها فى مواجهة منطقة تملك الكثير من عناصر الإغراء خدمة للقوى العظمى. إنها توظف التواجد الصهيونى لصالح القوى العظمى الكبرى، المتحكمة فى مصير الأسرة الدولية. وهى لتستطيع ذلك فى حاجة إلى التوسع ولو بحدود؛ لأن ذلك التوسع لابد وأن يزيد من فاعليتها، وتاريخ إسرائيل منذ وجودها حتى اليوم يقطع بذلك.

التهديد الرابع : يدور حول تجزئة الوطن العربى، فإسرائيل دولة صغيرة، ورغم جميع عناصر القوة الحقيقية أو المصطنعة التى اكتسبتها تظل كذلك، وهى لتضمن بقاءها أولاً. وسيطرتها على المنطقة ثانياً، واستيعابها فى النظام الإقليمى للمنطقة ثالثًا، ولتستطيع أن تتحدث وتتعامل مع القوى الدولية الكبرى باسم المنطقة أو لتوظيف وجودها فى المنطقة رابعًا، ليس **أمامها سوى أسلوب واحد، وهو تجزئة العالم العربى، أو بعبارة أكثر دقة بلقنة المنطقة. إن توحيد العالم العربى** ـ وعلى مستوى التعامل الدولى، بل كل خطوة نحو التعاون الحقيقى فى العالم العربى ـ هو مسمار يُدَق فى نعش الدولة اليهودية، تجزئة العالم العربى مشكلة ليست معقدة، بل وتملك مسالكها الواضحة.

السهولة مردها ثلاثة متغيرات :

الأول ـ عدم تحقق بُعد الوعى الكامل لدى المواطن العادى ـ بعمق الانتماء العربى. الانتماء القومى لا يزال تعبيراً عن حقيقة ثقافية، ورغم أن التطور خلال الأعوام الأخيرة هو بهذا المعنى، أى بمعنى نزول هذا الوعى إلى رجل الشارع إلا أن التطوير لم يكتمل بعد.

الثاني ـ ولعل هذا هو السبب الحقيقي، ويدور حول عدم الرؤية الواضحة المتكاملة لفلسفة الوحدة العربية. هذه الفلسفة لا تزال تتوزع بين أحاديث الصحافة والإعلام الجماهيرى بما جُبلَت عليه من سطحية. وكتّاب الصالونات الذين يعيشون فى وهم حقيقى ولا يزالون يمارسون لعبة الكذب وتجارة الفكر ـ التى محورها بيع الذات، ثم علينا أن نضيف فى الفترة الأخيرة قادة البحوث المشتركة الذين لا يملكون أى قدرة أو براعة سوى لعبة العلاقات العامة، وهم يعتقدون أن حَمْل شهادة من إحدى الجامعات هى تصريح بالنبوغ والصلاحية، وتحت غطاء هذه العلمية استطاعوا أن يملؤوا أذهاننا بقسم ضخم من التفاهات. لا تزال فلسفة الوحدة العربية تبحث عن عملاقها المفكر.

الثالث ـ وهو أنانية الطبقات الحاكمة التى لم يعد يعنيها سوى أن تظل فى كرسى السلطة(1). فى هذا الإطار العام للواقع العربى المعاصر، فإن تدعيم مفهوم الدولة الطائفية أو دولة الأقليات. والواقع العربى يعيش الدولة الشعوبية ـ يصير أمرًا سهل المنال. محور ذلك الدفاع عن فكرة الدولة الدينية(2)، ليس بمعنى الدولة القومية، ولكن على أساس سيادة

---

(1) وحب الجلوس فى كرسى السلطة، هذا أصبح من مميزات النظام العالمى الجديد، وقد حددت معالمه اليهودية العالمية وفق ما سجلته فى بروتوكولات حكماء صهيون. البروتوكول الثالث، حيث يقول: «... ولكن الجويم ـ غير اليهود ـ يظنون أن توازنه قوى وثابت، ويأملون أن يستعيدوا توازنه. ولكن ؟؟ بهذا الدستور محميون من الشعب بممثليه الذين يضيّعون أوقاتهم سدى، فرحين بسلطتهم غير المسؤولة وغير المراقبة. وفوق ذلك، فإن سلطتهم ترتكز على الإرهاب السائد فى القصور، وهم غير قادرين على الوصول إلى قلوب الشعب، والحكام لا يستطيعون أن يتحدوا لكى يكونوا قوة فى وجه مغتصبى السلطة... وسلطة الشعب العمياء اللتين فصلتا إحداهما عن الأخرى، لا قيمة لها؛ لأنها منفصلتان، وهما أيضًا أضل من أعمى بلا عصاه.... وحينما تأتى ساعة سلطتنا العالمية، فإن الوسائل ذاتها تمكننا من أن نقضى على كل من يقف عقبة فى طريقنا» بروتوكولات حكماء صهيون ـ ترجمة وتقديم د. إحسان حقى ـ دار النفائس بيروت. طبعة ثانية 1990 ـ ص 43: 45.

(2) «مصر بين الدولة الإسلامية والدولة العلمانية» ـ المناظرة التى حدثت عام 1992 فى معرض الكتاب بالقاهرة ـ مركز الإعلام العربى ـ طبعة أولى عام 1992. لترى الهدف من جهة العلمانيين الذين يشجعون فكرة مقولة: الدولة الدينية.. بدلاً من مقولة: الدولة الإسلامية، وترى المبادئ واضحة من خلال كلام المتناظرين الإسلاميين، وعلى رأسهم الشيخ/ محمد الغزالى. والمستشار/ محمد المأمون الهضيبى من ص31، ص38. تجد فى النهاية أن هذه التسمية فكرة علمانية بحتة!!

ـ وفى هذا ـ وحول هذا ـ المسمى يقول الأستاذ/ جمال سلطان فى كمتابه «جذور الانحراف فى الفكر الإسلامى الحديث ـ مركز الدراسات الإسلامية ـ برمنجهام ـ بريطانيا، طبعة أولى عام 1991 فى ص139، وهو يتحدث عن العلمانية، فيقول: «إنها فكرة، كعشرات الأفكار غيرها؛ نجحت أو فشلت فى ظل ظروف موضوعية وتاريخية، كانت قائمة فى مجتمعها، فبأى سلطان. وبأى عقلانية. تصبح هذه الفكرة عقيدة مقدسة!! تملك من الديمومة الفاعلة والإطلاق ما لا تملكه ـ عندهم ـ الفكرة الدينية الآتية من وحى السماء؟!

الانتماء الطائفى على حساب الانتماء القومى.

وبعبارة أخرى، فإن مقتضى الواقع العربى، أن الانتماء السياسى يملك دوائره الثلاث المتتابعة، من حيث دائرة الاتساع وعمق الانتماء القومى أولاً، ثم الشعوبى ثانياً، ثم الطائفى ثالثًا، وأخيراً هذا هو تاريخنا تأتى الأنانيات الحاكمة المعاصرة فترفع الانتماء الشعوبى للمرتبة الأولى، فإذا به ينفى الانتماء القومى أو يزحزحه إلى مرتبة أسفل. عملية التفتيت والتجزئة لا تتضمن أكثر من نفس الممارسة فى العلاقة بين الانتماء الشعوبى والانتماء الطائفى، زحزحة الأول لصالح الثانى، فإذا بالعلاقة الطائفية والولاء الطائفى يَجُبّ كلا الولاء الشعوبى والولاء القومى، وهذا ما حدث ويحدث أمام عيوننا فى لبنان.

مثل هذه السياسة ليست جديدة فى المنطقة، وسبق واستخدمتها الدبلوماسية الفرنسية فى تدعيم تواجدها فى سوريا، ولو استطاعت إسرائيل أن توسع هذا المفهوم وتعميد صياغته، لتجعل منه أساساً لسياسة مستقبلية لإحالة المنطقة إلى دويلات صغيرة وكيانات هشة تتميز هى - أى إسرائيل - فيما بينها بأنها الوحيدة ذات التقدم التكنولوجى وأكثر من تقرير واحد يُنسب إلى كُتّاب مسؤولين، يعلن عن إرادة إسرائيل فى تطبيق ذلك المفهوم على جميع أجزاء المنطقة العربية. ليست فقط الدول المعروفة بتنافر أجزائها كسوريا والعراق - بل والدول ذات التماسك التقليدى كالسعودية ومصر، وذلك دون الحديث عن تلك الدول التى ليس لها تاريخ حقيقى كمجتمعات قومية، ولنذكر على سبيل المثال الأردن وليبيا.

وهنا أى بصدد تجزئة دول العالم العربى[1] يجب أن نلاحظ:

أولا - أن هذا التهديد تتفق حوله أهداف جميع السياسات الاستعمارية التقليدية، والتى لا تزال تسيطر بطريقة أو بأخرى على القوى الكبرى، ورغم تظاهرها بعكس ذلك. فأوربا يُسعدها أن ترى الوطن العربى مجموعة دويلات صغيرة لا حول لها ولا قوة، وذلك دون الحديث عن الولايات المتحدة.

ثانيا - بل إن نفس السياسة السوفيتية سوف تنظر إلى مثل ذلك التطور بعين الرضا، فهى لا يُسعدها أن توجد على حدودها الجنوبية دولة قوية، لذلك يجب أن نتذكر كيف أن تقاليد السياسة الروسية منذ «كاترين الثانية» تنظر بقلق إلى تكتل أو توحيد للقوى الإسلامية جنوب حدود روسيا العربية.

---

(1) «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية» د. جمال عبد الهادى وآخرون - دار الدعوة - القاهرة: 1997؛ «ملف إسرائيل» رجاء جارودى، دار القلم - القاهرة: 1982؛ وكتاب «أهداف إسرائيل التوسعية» اللواء أركان حرب محمود شيت خطاب، دار الاعتصام، القاهرة.

ثالثا ـ بل إن الدول الإسلامية المحيطة بالجسد العربى سوف تنظر إلى تلك التجزئة بكثير من الارتياح ـ إن لم تعمل ساعية إليها. وهذا يُفسر حدود التوافق بين سياسة إسرائيل وسياسة كل من تركيا وإيران. تجزئة الوطن العربى وإحالته إلى نموذج للقائم حاليًا فى منطقة الخليج سوف تنظر إليه بكثير من الرضا كل من إيران وتركيا، بل سوف تحاول أن تنتزع بعض الأجزاء فى تلك اللحظة. إيران فى منطقة الخليج تعلن أن البحرين جزء منها، تركيا تجد حاليًا من بين أحزابها من يطالب بالموصل فى العراق وحلب فى سوريا.

رابعا ـ على أن مفهوم التجزئة والبلقنة فى التصور الإسرائيلى لن يقتصر على العالم العربى، بل سوف يتعداه إلى جميع أجزاء منطقة الشرق الأوسط بما فى ذلك أجزاؤه غير العربية، من المعروف أن السلطات التركية كشفت عن بعض المخططات الصهيونية لدفع التحركات الشيعية والكردية، ولكنها احتفظت بها لنفسها وإحاطتها بسرية مطلقة، ويقال بأن هذه كانت سببًا فى فتور العلاقات بين «أنقرة وتل أبيب» فى لحظة معينة. الأمر وارد أيضًا بالنسبة لإيران، ولكن ذلك سوف يكون فى مرحلة لاحقة.

خامسا ـ على أنه ليصير هذا الإطار كاملاً يجب أن نتذكر أن الشركات الكبرى المتعددة الجنسية تقف ضد هذا التصور. إنها لا تشجع الوحدة العربية الكاملة، ولكنها تدفع إلى الوحدات الجزئية بخطى حثيثة، بل إنها تعلم أن الأسواق الصغيرة لا تعنيها، ولكنها تريد الأسواق الواسعة ولو نسبيًا. وهى لذلك لا تنظر بعين الاهتمام إلا إلى السوق الذى يتجاوز الثلاثين مليونًا. أو على الأقل يقترب من ذلك. وهى لذلك تصطدم بالسياسة الإسرائيلية. والواقع أن السياسة التى تُشجع عليها «تل أبيب» لابد وأن تصطدم فى لحظة معينة بمصالح الشركات الكبرى المتعددة الجنسية. كيف سوف يتم التوفيق بينهما؟ سؤال سابق لأوانه .

ثم تحدث الدكتور حامد ربيع حول «الوجود الإسرائيلى»، وكذلك عملية الاستقطاب الدولى، واعتبر ذلك مصدرًا من مصادر التهديدات، فقال:

مصدر آخر للتهديد الذى فرضه الوجود الإسرائيلى على الوطن العربى، وهو عملية الاستقطاب الدولى، فالمنطقة العربية لمواجهة إسرائيل فى حاجة إلى أمور ثلاث:

أولا ـ سلاح متقدم.

ثانيا ـ مساندة فى النطاق الدولى.

ثالثا ـ تكنولوجيا تسمح بإلغاء حاجز التخلف.

هذه العناصر الثلاثة لا يمكن أن تقدمها إلا الدول العظمى، وعلى وجه التحديد إحدى

الدولتين الأعظم، وبطبيعة الحال فى ظل الموقف الذى تعيشه المنطقة لابد وأن تترتب نتائج معينة:

أ ـ فالولايات المتحدة التي تقف من إسرائيل موقف المتحالف والمؤيد بتعصب، لا يمكن إلا أن تسعى لإجراء عملية توازن بين مصالح الدولة العبرية ومصالح الأمة العربية، وهو توازن لا يمكن إلا أن يكون على حساب مصالح المنطقة العربية.

ب ـ وهذا لابد وأن يخلق رأيًا معارضًا، لذلك يفضل الاعتماد على الاتحاد السوفيتي الذى لابد وأن يعلن عن موقف يختلف عن موقف الولايات المتحدة ولو من حيث الشكل.

جـ ـ وكلاهما ـ بمنطق الدولة العظمى ـ لابد وأن يُجرى حسابات معينة لن تكون فى جوهرها إلا لصالح هذه أو تلك الدولة العظمى، فى مقابل كل مساعدة تقدمها أى من الدولتين لإحدى دول المنطقة، وبصفة خاصة وهى تعيش فى حالة تجزئة تسمح وتسهل عملية التلاعب بتلك الدول.

د ـ كذلك يجب أن نلاحظ أن المشكلة بالنسبة للدولتين الأعظم ليست فقط مسألة تعامل دولى، إنها تتضمن كذلك مشكلة داخلية. فالأقلية اليهودية فى الولايات المتحدة تمثل ثقلاً معينًا فى صنع سياسة «واشنطن»، وموضوع المهاجرين اليهود السوفيت ليست أقل خطورة وأهمية. كذلك يجب أن نتذكر ورقة تُخرجها «تل أبيب» من صناديقها من آن لآخر، وهو عملية التعويض لليهود الذين أخضعوا لعمليات معينة أثناء الحروب العالمية الثانية، سواء فى غرب روسيا، أو فى شرق أوربا، ومسؤولية موسكو الأدبية والمالية بذلك الخصوص.

وجود إسرائيل في المنطقة ـ وبصفة خاصة بسبب قدرتها على التلاعب بالقوى الدولية ـ فتحَ الباب واسعًا لعملية استقطاب دولية واسعة النطاق، لم تقتصر على الدولتين الأعظم، بل تعدتها إلى كل ذى قوة دولية ذات فاعلية معينة. عملية الاستقطاب هذه كان لابد وأن تجعل الوطن العربى مسرحًا لصراع بين الدولتين الأعظم، حيث تصير المواجهة هى أيضًا فى مشاكل لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

كذلك يجب أن نلاحظ أن عملية الاستقطاب لم تقتصر نتائجها على الخلاف العميق بين الدول العربية، ويكفى أن نتصور ونتذكر ـ ليس فقط الموقف من العراق فى حربها ضد إيران، بل وقبل ذلك موقف اليمن الجنوبى بصدد الصراع بين الحبشة والدول العربية المحيطة بها: الصومال وجيبوتي والسودان دون الحديث عن إريتريا. لقد ازدادت ضخامة النتائج بسبب عدم قدرة الدبلوماسية العربية على فهم وتطبيق مبدأ توزيع الأدوار فى النطاق الدولي، وهو أمر استطاعت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن تقدم لنا بخصوصه

نموذجًا جديرًا بالاحتذاء، فعلاقات «تل أبيب» الدبلوماسية المقطوعة مع أغلب دول أوربا الشرقية جعلت الدبلوماسية الصهيونية تدفع بحزب المابام(1) ليؤدى تلك الوظيفة. وفى إفريقيا السوداء كان ذلك من نصيب «الهستدروت». نفس القصة نجدها أيضًا فى الصين.

ولكن هل هذا هو التهديد الأخير؟ ... كلا.

«التهديدات التى خلقتها إسرائيل عديدة لا حصر لها، الخمسة تهديدات السابق ذكرها هى الأكثر وضوحًا، والتى أضحت صارخة للعيان. ولكن هناك تهديدات أخرى ليست أقل خطورة، ولكن لم تبرز بعد فى صورة صريحة.

* **أول هذه التهديدات** يرتبط بحرية الأماكن المقدسة، هذه الأماكن التى ترتبط بالقناعات الإسلامية والمسيحية، وليس فقط الديانة اليهودية خضعت بدورها لاعتداءات متكررة أقلقت جميع القيادات الدينية فى العالم ـ سواء كانت قيادات إسلامية أو كاثوليكية. وقد وصل الأمر بذلك الخصوص أن بعض الدول والقوى الدولية التى تقف من القضية الصهيونية موقف التأييد، لم تتردد بخصوص الأماكن المقدسة من أن ترفع عقيرتها بالصياح، فنتذكر فرنسا ودول أمريكا اللاتينية دون الحديث عن موقف دولة الفاتيكان، يجب أن نلاحظ أيضًا بذلك الخصوص كيف حدث تطور خفى عقب عام 1967 فى القوى الدولية بصدد حماية الأماكن المقدسة، وهو تصوُّر شَمَل أيضًا سياسة الفاتيكان وهو فى جوهره ليس لصالح القضية العربية.

* **ثم يأتى تهديد آخر** يتعلق بحقوق الأفراد المقيمين فى الأرض الفلسطينية، سواء تلك المحتلة عقب حرب 1967 أو قبل ذلك، بل وأولئك الذين أُكرهُوا على مغادرة أرض آبائهم. فدولة إسرائيل لا تحترم المواثيق الدولية(2)، وتخرج على جميع الأعراف بذلك الخصوص، وهو أمر يرتبط بثلاثة نواح:

الأولى ـ وهى الحقوق المدنية بما فيها احترام النصوص والمواثيق الدولية والمرتبطة

---

(1) حزب «المابام» وهو ما يسمى فى إسرائيل: «حزب العمال المتحدون» وحصل على 45 مقعدًا فى الكنيست، أما حزب «ماباى» وهو ما يسمى: «حزب العمل» وحصل على 46 مقعدًا عام 1949، 45 مقعدًا عام 1951، ثم على 40 مقعدًا 1955، ثم 47 مقعدًا عام 1959، ثم هبط إلى 41 مقعدًا عام 1961؛ «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أركان حرب دكتور فوزى محمد طايل ـ دار الوفاء ـ طبعة ثانية 1992. تحت عنوان: «ممارسة الأحزاب لنشاطها السياسى» ص110.

(2) اليهود لا يحترمون العهود ولا المواثيق لا دولية ولا إلهية، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۞﴾ التوبة/ 12. وقال تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم...﴾ البقرة/ 100. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ...﴾ الأنفال/ 56.

باحترام الشخصية الفردية.

الثانية ـ وتدور حول التعويضات التى من حق الأفراد إزاء السلطة الإسرائيلية التى تخرج على المواثيق وتعتدى على تلك الحقوق.

الثالثة ـ وتنبع من أن السلطات الإسرائيلية لا تملك طرد أهالى تلك المنطقة من محل إقامتهم أو منعهم من العودة إليها.

* **تهديد آخر** ولعله أكثر هذه التهديدات وضوحًا ـ وهو التعلق بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره ـ وهو حق سياسى تُسلّم به جميع التقاليد والمواثيق الدولية. وهى بدورها تنقسم إلى عدة عناصر:

أ ـ حق تقرير المصير، أى حق الشعب الفلسطينى فى أن يقرر مصيره، ليس فقط بمعنى الانضمام أو الانطواء تحت سيادة دولة أخرى، بل وبحقه إن رأى ذلك فى الاستقلال وتكوين دولته المتميزة.

ب ـ حق اختيار ممثلى الشعب الفلسطينى.

جـ ـ حق الشعب الفلسطينى بأن يختار صورة وهيكل نظامه السياسى المستقل المعبر عن آماله ومثاليّاته.

هذا هو مجمل محدود وموجز لعناصر التهديد التى خلقها الوجود الإسرائيلى.

وكما هو واضح فى عناصر التهديد، فالبعض منها يتجه إلى الكيان العربى، والبعض إلى الوجود الفلسطينى، ثم هناك عناصر أخرى ترتبط بحقوق الإنسان وحرياته، وعلى وجه التحديد لذلك الإنسان قُدّر له أن يقف فى طريق الغزو والاستعباد الصهيونى، وهو اليوم خاص فقط بالفلسطينيين واللبنانيين، ولكنه غداً قد يتسع ليشمل أى مواطن عربى فى أى منطقة سوف يقدر لها أن تخضع لعمليات غزو يهودية. هذا التعدد فى العناصر فى الواقع يرتبط بناحية أخرى إن كانت تظل مستقلة ـ وهى دوائر الصراع.

وهذا ما سوف نتعرض له فى مقال على حدة، على أننا ونحن بصدد إنهاء الحديث عن التهديدات التى يخضع لها الوجود العربى من جانب الدولة اليهودية، تركنا جانبًا كل ما له صلة بالأدوات والتعاملات غير الأخلاقية. تركنا جانبا الممارسات المرتبطة بعملية الإفساد والتطويع للإرادة العربية. لم نتعرض لنشر المخدرات، ولا لتشجيع الانحلال الخلقى[1]. ولم

(1) راجع: بروتوكولات حكماء صهيون، البروتوكول 12 فى مجال العلاقات الزوجية والروابط الاجتماعية، حيث قال اليهود فى البروتوكول: «سننشر بين الشعوب أدبًا مريضًا قذرًا.... يساعد على هدم الأسرة وتدمير جميع المقومات الأخلاقية». وقد تحقق لهم ذلك، فقد جعلوا المرأة أداة للأهواء والرغبات، وخدعوها بشعار «تحرير المرأة» فدمروا نفسيتها، وحطموا أنوثتها، ودفعوها فى الطريق المظلم =

نذكر ولو بكلمة واحدة عملية الاضطراب فى إدارة المرافق القومية، وهى جميعها أمور واضحة فى المخطط الصهيونى. كذلك لم نقف أمام ما يسمى بعملية التسميم الفكرى والغزو المعنوى التى خضعت لها الفئات المثقفة، ولم تترك حتى أساتذة الجامعات ـ والذين للأسف ارتفعوا بسبب ركوب هذه الموجة، ووصلوا إلى مراكز المسؤولية لم نتعرض لهذه النواحى؛ لأنها ـ حتى الآن ـ اقتصرت على قطرين أو ثلاثة، وهى تظل فى دائرة السلوك الفردى غير الواعى، ولكن سوف يكون لنا معها وقفة تأمل فى موقع آخر. والحديث ذو شجون.

= تسعى لكسر حاجز الشرف والعفة والخلق الذى يحمى من السقوط، فانتشر الانحراف وأقراص منع الحمل، والأزياء القصيرة، وغيرها من أنواع التخريب وانتشار المخدرات التى جعلت المجتمع بلا هوية.. مجتمع مقلد لهم فى الفساد فقط، مؤهل للسقوط.



الفصل الثانى

مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع العربى - الإسرائيلى

دوائر الصراع.. واحتمال حرب أخرى

المبحث الأول : دوائر الصراع .. والأطراف المتقاتلة

المبحث الثانى : هل نعا صر حربا أخرى من حروب الهيمنة





دوائر الصراع.. والأطراف المتقاتلة

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

اجتماع القمة فى الدار البيضاء يجب أن يُنظر إليه على أنه تعبير عن مرحلة فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى حتى اليوم.

مر هذا الصراع بعدة مراحل كل منها تتميز بمذاق معين. فحتى عام 1973 كانت المواجهة الكلية الشاملة بقصد استئصال الوجود الإسرائيلى. هو وحده أسلوب التعامل. عقب ذلك بدأت مرحلة جديدة برزت واضحة المعالم عقب اتفاقية فك الاشتباك الثانية، حيث اختلفت عناصر الأمة العربية بين مصر التى ترى فى أسلوب التفاوض والتعامل من منطلق أداءها الوحيدة لإدارة الصراع. بينما الدول العربية أصرت على أن تظل مقتنعة بأن الممارسة لن تكون إلا بأسلوبها التقليدى الذى قدمته حتى حرب 1973، وأن المحور الوحيد للتعامل هو القتال أو الصدام العضوى. مؤتمر القمة يعلن أن العالم العربى عاد ليتوحد فى أسلوب التعامل، فمصر لم تعد ترى فى الدبلوماسية الهادئة وسيلتها المحددة، والعالم العربى قَبِلَ أن يجعل المؤتمر الدولى الذى هو نوع من الدبلوماسية، وسيلة للوصول بالصراع إلى نهايته. الذى يعنينا أن نؤكد عليه هو: أن هناك عملية توفيق بين الجانب المصرى والجانب العربى، بل وهناك تراجع واضح بين الجانبين، فمصر لم تعد تقبل أو تظل سلبية إزاء الممارسات الإسرائيلية، وهو نوع من التصلب فى التعامل الدبلوماسى بما يعنيه من إمكانية العودة إلى السلاح. والجانب العربى لم يقبل أن يجلس وحيداً مع إسرائيل فى مفاوضات مباشرة وثنائية، إنه لا يقبل إلا تحت مظلة الدول العظمى(1).

خلف هذا لابد من طرح التساؤل: هل القيادات العربية واعية بما يعنيه ذلك؟ هل تعلم

---

(1) هذا النظام الذى فرضته «اليهودية العالمية» على الدول العربية أن جميع مشاكلها بلا استثناء لابد للرجوع فيها إلى الدول الكبرى ـ أمريكا وروسيا ـ بل والعالم الأوربى إن أمكن، وأصبح الآن «النظام العالمى الجديد» يفرض سلطانه على الدول العربية، خاصة بعد انهيار روسيا، وفى حقيقة الأمر الضغوط يهودية، وأداة التنفيذ أمريكية/ صليبية ـ صهيونية، وكل هذا يحقق لإسرائيل أمنها ويحكم دائرة الصراع دائمًا لصالحها.

بأنها يجب أن تخطط وتُعد ليس فقط لأن المؤتمر الدولى هو نوع من الحوار يذكرنا بالحوار العربى الأوربى، والفشل العربى فى التعامل معه، إذ انتهى بأن حققت أوربا كل ما تريده ولم يحصل العالم العربى على شىء؟

ما هى أسباب ذلك ؟

سؤال آخر، ولكن السؤال الأخطر: هل أعد العرب لو حدث هذا المؤتمر عدتهم للمواجهة فى حالة الفشل؟ أسئلة عديدة تتداعى، ويجب أن تواجه بصراحة وصدق، حيث ليس عيباً أن نكون على قسط من النقص فى القدرات، ولكن العيب ألا نعمل على اكتساب القدرات الناقصة.

لنستطيع أن نجيب على مختلف هذه التساؤلات، يجب أن نطرح استفهاماً أساسياً: من هم الأطراف المتعاملون فى هذا الصراع؟ وما هى مصالح كل طرف متعامل، والتى من ثم تحدد دوائره للتعامل؟ وما هى القيم الحقيقية المستترة خلف هذا الصراع والمتحكمة فى الأطراف المباشرة فى التعامل؟

أسئلة آن الأوان لأن نطرحها ونجيب عليها بصراحة ووضوح. الصراع يملك قواعده فى الإدارة، وهى قواعد تتنوع وتختلف من حيث التطبيق مع كل صراع، وما نريد أن نقوله منذ البداية: إن عِلْم إدارة الصراع قد تقدم وبلغ مستوى عالياً من التخصص. وعلينا أن ننتفع بمنجزات ذلك العلم ـ الذى لم تُفْتَح كنوزه بعد على العالم العربى ـ وبصفة خاصة على القيادات العربية، كذلك يجب أن نفهم أن هذا العلم لا يمنع من أن نِسْبِيّة التطبيق واردة، وأن البراعة الحقيقية هى فى تطويع الأصول الفكرية المقننة بالواقع الذى تطرحه ذاتية الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

دوائر الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

الصراع العربى ـ الإسرائيلى يتميز بأنه متعدد الدوائر، وكل دائرة تملك ليس فقط منطلقها المتميز، بل وأطرافها المتعاملة.

نستطيع أن نميز بخصوص هذا الصراع بين أربعة دوائر، كل منها تملك استقلالها الكامل:

أولا ـ أول هذه الدوائر هى تلك المرتبطة والمتعاملة مع الدول المجاورة والمحيطة بإسرائيل، فإسرائيل بغض النظر عن الاعتراف بها من عدمه ـ هى كيان سياسى يتحكم فى قطعة من الأرض هى إقليمه ومدار إرادته النظامية. ومن الطبيعى كنتيجة لذلك وجود علاقات احتكاك مباشرة يفرض بخصوصها القانون الدولى على كلا الجانبين، إسرائيل من جانب، والدول المحيطة من جانب آخر، التزامات معينة يعقد هذا الموضوع مجموعة من

المتغيرات:

الأول ـ أن إسرائيل لم تحدد حدودها فى صورة واضحة، وهو مما يجعل نياتها الحقيقية موضع تساؤل، بل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لم تحدد تلك الحدود.

الثانى ـ أن اتساع الإقليم الإسرائيلى لا يتفق مع قرار التقسيم الدولى الذى منحها الشرعية الدولية. هناك أجزاء استولت عليها بقوة السلاح، وهو أمر لا يتفق مع المواثيق الدولية.

الثالث ـ أن إسرائيل إذا كانت قد حصلت على الشرعية الدولية، فهى لم تحصل بعد على الشرعية الإقليمية. إذا استثنينا مصر وإلى حد معين لبنان. الدول العربية الأخرى المحيطة بها، ورغم الاتصالات السرية وغير المعلنة ـ لم تقدم بعد لإسرائيل ذلك الاعتراف بالشرعية.

فى هذه الدائرة تتواجد تلك الدول التى كان يطلق عليها دول المواجهة، ونستطيع أن نضيف إليها السعودية ولبنان، بل ويمكن أن ينسحب هذا الوصف أيضًا على العراق، وبصفة خاصة عقب الاعتداء الإسرائيلى على المفاعل النووى بالقرب من بغداد. علاقة هذه الدول جميعها بإسرائيل من هذا المنطلق، أى منطلق الجوار ـ أساسها الأول هو وجود حدود مشتركة، ومن ثم يجب تنظيم المرافق المختلفة التى يفرضها ذلك التواجد المادى لهذه الدول على الحدود الإسرائيلية ، من الطبيعى أن هذه العلاقة المادية تثير ـ من أوسع أبوابه ـ مفهوم الأمن القومى الإسرائيلى من جانب فى مواجهة أمن تلك الدول المختلفة المحيطة بإسرائيل من جانب آخر.

رغم بساطة ووضوح هذه العلاقة، إلا أن ظروفًا معينة تزيد من تعقيد مشكلة تنظيم هذه العلاقة.

أول هذه الظروف يرتبط بالمبالغة الإسرائيلية فى مسؤولية دول الجوار، فأى تسلل فردى أو هجوم من جانب إحدى المنظمات على الحدود الإسرائيلية تعتبره الدولة اليهودية مسؤولية الدولة العربية المجاورة، وهو أمر يُخالف جميع التقاليد الدولية. إن موضع المسؤولية أن تكون سلطة تلك الدولة قد شاركت بشكل أو بآخر ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ فى الإعداد أو تنفيذ الهجوم، ولكن فى حالة قيامها بواجبها لا موضع لأى مسؤولية للدولة التى انطلقت منها العمليات المذكورة.

ثانى هذه الظروف: أن إسرائيل لا تحترم حقوق الدول المجاورة. ويكفى أن نتذكر اعتداءاتها المتكررة أولاً فى لبنان، وقبل ذلك فى الأردن ثم عقب ذلك فى العراق.

ثالث هذه الظروف: أن إسرائيل لا تؤمن بمفهوم الأمن القومى فى معناه التقليدى، بل

توسع هذا المفهوم لتجعل منه ستارًا لتحقيق أهداف سياسة لا صلة لها بالأمن القومى. فهى تعتبر استمرارية النظام الساداتى فى مصر عنصرًا أساسيًا من عناصر أمنها القومى، بل إنها فى لحظة معيّنة اعتبر أن أى تغيير فى الوضع القائم باليمن وحماية مداخل البحر الأحمر ـ بما فى ذلك باب المندب ـ عنصرًا لا يتجزأ[1] فى صياغة أمنها القومى.

ثانيا ـ تأتى عقب ذلك الدائرة الثانية : حيث تتسع عملية المواجهة مع إسرائيل، أنها تتسع لتشمل جميع الدول العربية، وهى ترتبط بالحقيقة الثانية، وهى أن إسرئيل قد اقتطعت جزءًا من الأرض العربية من جانب وتمارس سياسةً تُهدد التكامل القومى العربى من جانب آخر، فى هذا النطاق تبدو بوضوح طبيعة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، على أنه صراع قومى يرتبط بطبيعة العلاقة بين الأرض الفلسطينية والكيان العربى، والأمر الذى لا شك فيه أن ممثلى الصهيونية الفكرية ـ بل والحركية ـ يعتبرون أن أهم ما تعنيه هذه التوجهات السياسية، أنها نقلت اليهودية من مستوى الوازع الدينى فى الحقيقة السياسية. وطبيعة التطور السياسى، والذى محوره كان فشل الجانب العربى فى مواجهة الحركة الصهيونية، مما يؤكد هذا التصور، كذلك فإن الفكر السياسى الغربى لا يأنف فى أن يصف هذه الحركة الصهيونية بأنها حركة قومية، بل إن الفكر الصهيونى المحافظ من جانبه يرفض أن يُضفى على التطور العربى المعاصر الطبيعة القومية، الذى يعنينا أن نؤكد عليه ـ وبغض النظر عن دعاوى كلا الجانبين ـ أن هذا الصدام فى دائرة معيّنة يصير صدامًا قوميًا ـ ولو من منطلق منطق كل من الطرفين. فى هذا المستوى نجد جميع الدول العربية أو بعبارة أكثر دقة: جميع الدول ـ التى هى أعضاء فى جامعة الدول العربية ـ تصير أطرافًا فى دائرة هذا الصراع فى مواجهة ـ فقط ـ إسرائيل الطرف الثانى فى الصراع.

ثالثا ـ الدائرة الثالثة : تنقلنا إلى مستوى آخر للصراع، فالحروب المختلفة فى المنطقة خلقت نوعًا من عدم الاستقرار، وبصفة خاصة كان لابد، وأن تؤدى إلى قفل قناة السويس فترات قد تكون محددة، ولكنها قد تمتد إلى عدة سنوات، كما حدث فى عام 1967، قفل قناة السويس يؤدى إلى اضطراب ضخم فى شرقى البحر المتوسط، وبصفة خاصة فى الدول الأوربية المنتمية إلى هذه المنطقة، كاليونان وإيطاليا إلى جانب تركيا، فهذه الدول تعيش على المواصلات البحرية المرتبطة بقناة السويس، كذلك فإن شرق إفريقيا لابد وأن يتأثر بهذه الأحداث. قفل قناة السويس فى عام 1967 أدى إلى اضطرابات خطيرة فى تلك الدول، وكذلك أزمات اقتصادية خانقة، ولنذكر أهم تلك النتائج:

(1) كتاب «حاضر العالم الإسلامى، إفريقيا»، د. جمال عبد الهادى مسعود. دار الوفاء ـ المنصورة، طبعة عام 1996.

أ ـ اضطراب فى الأمور المتعلقة بشركات الملاحة، حتى أن البعض منها أعلن إفلاسه، وبصفة خاصة فى تركيا.

ب ـ ثم اضطراب آخر فى الموانئ التى تعيش على حركة النقل البحرى، مما أدى بدوره إلى كساد اقتصادى، البعض يُفسر به الأحداث العنيفة العسكرية فى اليونان، بل وكذلك فى إيطاليا.

جـ ـ أضف إلى ذلك أن عملية التصدير للموز واللحوم لم تستطع أن تواجه قفل قناة السويس لسبب حاجتها إلى نوع معين من السفن، لم تعد قادرة الدول صاحبة الشأن على تقديمه بالقدر اللازم عقب أن أضحى ما تحتاجه السفينة للانتقال من شرق إفريقيا إلى البحر المتوسط، هو ثلاثة أمثال الفترة الزمنية التى كانت تكفيها قبل قفل قناة السويس بسبب اضطرارها للالتفاف من حول جنوب إفريقيا.

فى هذه الدائرة نجد إسرائيل تقف فى جانب، وفى مواجهتها ليس فقط الدول العربية المنتفعة بقناة السويس، بل أيضاً جميع دول القرن الإفريقى غير العربية، ثم الدول الأوربية والآسيوية التى تقع فى شرق البحر المتوسط. فى لحظة معينة تزعمت إيطاليا حملة ضد إسرائيل فى داخل دول السوق المشتركة، ولكن الواقع أن الجانب العربى لم يعرف كيف يستغل هذا الواقع.

رابعا ـ الدائرة الرابعة : حيث نجد فيها إسرائيل تقف فى جانب وجميع الدول الإسلامية والكاثوليكية فى جانب آخر، والسبب فى ذلك هو موضوع الأماكن المقدسة الموجودة فى إسرائيل، وبصفة خاصة فى القدس. التعلق بهذه الأماكن المقدسة يسيطر على الإدراك الإسلامى، وكذلك على كل ما له صفة بالدعوة المسيحية، وهى أماكن موضع إكبار وإعزاز. ومن الطبيعى أن السيادة الإسرائيلية وبصفة خاصة التعنت الصهيونى ومحاولاته المتكررة لتهويد تلك المناطق ـ لا يمكن أن تجد قبولاً من الإرادات الدولية المسؤولة. أيضاً بهذا الخصوص نجد أن الدائرة المعادية لإسرائيل ضمت لحظة معينة دولاً معروفة بتعاطفها مع إسرائيل ـ كفرنسا وأمريكا اللاتينية، رغم ذلك، فالعالم العربى لم يعرف كيف يستغل ذلك الواقع، خصوصاً وأن دولة الفاتيكان كانت تقود تلك الدائرة. وهى اليوم ورغم أنها لا تزال تقف من إسرائيل موقف التحرز إلا أنها قد طورت سياستها فى حدود معينة بما يؤكد انتصاراً إسرائيلياً أيضاً فى هذه الناحية.

نستطيع ـ بطبيعة الحال ـ أن نضيف دوائر أخرى:

هناك دائرة يقف فيها الشعب الفلسطينى وحيداً فى مواجهة إسرائيل.

وهناك دائرة تقف فيها إسرائيل فى مواجهة دول العالم الثالث، ولكن هذه الدوائر

الأخيرة تكاد تنصهر فى الدوائر الأربع الأولى والأكثر أهمية؛ ذلك الذى يجب أن نلاحظه أن موضوع الصراع فى كل دائرة يختلف، وكذلك الأطراف المتعاملة تختلف فى كل دائرة عنها فى الدوائر الأخرى.

الأطراف المتعاملة فى الصراع:

تعدد الدوائر تفترض تعدداً من ثم فى الأطراف المتعاملة فى الصراع، كل دائرة تفترض أطرافًا مختلفة، تنبع مواقفها من متغيرات متباينة ومتميزة. لا يسمح المكان بطرح موقف الأطراف المتعاملة مع الصراع بتفصيل. ولكننا يجب أن نلحظ منذ البداية أن تعدد الدوائر لا يرتبط فقط بتعدد الأطراف، بل وكذلك بموضوع الصراع، وهو أمر يجب أن يكون واضحًا فى ذهن القيادات العربية، وهى تتعامل مع هذا الصراع.

فلنحدد ما يعنيه ذلك من نقاط أساسية:

أولا ـ القوى الأصيلة : التى تقف فى هذا الصراع ـ موقف التناطح الحقيقى ـ هى مصر وإسرائيل من الناحية التاريخية، فإسرائيل لم توجد إلا لتشل مصر ـ ومن الناحية الواقعية ـ فليس فى المنطقة دولة سوى مصر تستطيع أن تقف فى مواجهة حقيقية مع إسرائيل. كذلك نلحظ أن مصر دولة ثابتة فى جميع دوائر الصراع، فهى دولة جوار، وهى دولة عربية ـ إن لم تكن قائدة العالم العربى ـ وهى دولة تقع فى حوض البحر المتوسط الشرقى، بل تتحكم فيه، وهى دولة إسلامية ـ إن لم تكن هى معقل الإدراك العقدى الإسلامى.

رغم ذلك، فإن أول ملاحظة تفرض نفسها على المحلل، هو أن الاختلال الحقيقى بين مصر وإسرائيل وجد منذ بدء الصراع، وهو يسير دائمًا فى خط ثابت لصالح إسرائيل، بحيث إن مصر فى مواجهة إسرائيل فى عام 1956 كانت أقوى منها فى عام 1967، وهى فى عام 1967 كانت أكثر فاعلية منها فى عام 1973، وهى اليوم فى أسوأ حالات الضعف فى مواجهة «تل أبيب»:

أ ـ فَخَلْفَ إسرائيل وُجِدَت دأبًا أربع قوى، تؤيدها وتساندها بطريقة كاملة ومطلقة:

أول هذه القوى هى الدول الاستعمارية الغربية، فى البداية كانت فرنسا وبريطانيا، ثم حلت موضعها الولايات المتحدة.

القوى الثانية هى الرأسمالية الدولية، التى اعتبرت تدعيمها لإسرائيل وعن قناعة وسيلتها المباشرة للاستئثار بثروات المنطقة، وبصفة خاصة البترولية. وهكذا وُجد التحالف التقليدى بين الشركات المتعددة الجنسية والنفوذ الصهيونى، وبصفة خاصة بفضل **القوة الثالثة** وهى الصهيونية العالمية، التى خلقت إسرائيل، ومن الطبعى أن تحميها وتذود

عنها.

القوة الرابعة وهى الرأى العام الأوربى وبصفة خاصة الغربى. ولا يجوز أن يخدعنا بهذا الخصوص أن الدول الاشتراكية سوف تناصر مصر فى لحظة معينة. فالرأى العام الأوربى ـ حتى فى الدول الاشتراكية ـ لم يكن متعاطفًا فى أى لحظة من تاريخ الصراع بصورة واضحة إلا مع إسرائيل.

ب ـ خَلْف مصر وجدت قوى أخرى تنوعت من فترة لأخرى، ولكننا نستطيع بصفة عامة أن نمركز تلك القوى حول خمسة عناصر: العالم العربى أولاً، ثم القوى اليسارية الدولية ثانيًا، ونستطيع أن نضيف دول العالم الثالث ثالثًا، إلى جوار الكتلة الإسلامية رابعًا. ولا يجوز لنا أن ننسى بعض مواقع النفوذ ـ سواء فى العالم الغربى أو فى الولايات المتحدة. هذه القوى لو كُتِّلتْ وتم التنسيق بينها، فهى قادرة على أن توازن الكفة فى مواجهة إسرائيل ـ ولو بطريقة نسبية. ولكن الواقع أن الدبلوماسية المصرية لم تعرف فى أى مرحلة من مراحل تطور الصراع أن تخلق هذا التكتل. فى عام 1967 كانت القوى العربية تلعب فى الخفاء. القوى اليسارية الدولية لم يُدْخِلْها الرئيس السادات فى اعتباره، دول العالم الثالث كان يجب أن تستخدم كأداة فاعلة لتجريم إسرائيل ـ ابتداء من مؤتمر «باندونج». الكتلة الإسلامية لم تعرف مصر أهميتها، وليس أدل على ذلك من أنها تركت تركيا وإيران تقعان فى أخطبوط النفوذ الصهيونى[1]. أما عن مواقع النفوذ فى الولايات المتحدة، فقد تعاملت معها الدبلوماسية المصرية، وبصفة خاصة فترة الرئيس السادات عندما أتيحت لها بذلك الخصوص من فرصة حاسمة بكثير من السذاجة.

جـ ـ كذلك يجب أن نتذكر أن الصراع بين مصر وإسرائيل ليس فقط صراع قوى، بل جزء أساسى منه ينبع من طبيعة علاقات الجوار. ومصر هى الدولة الوحيدة فى المنطقة التى تملك بهذا الخصوص تقاليد واضحة، من حيث التعامل مع دول الجوار، وبصفة خاصة مع مفهوم الأمن القومى. أحد عناصر مفهوم مصر التاريخى لعلاقتها بدول الجوار، ألا تسمح بوجود دولة قوية على حدودها الشرقية، ليس فقط فى أرض فلسطين، بل فى كل أرض الشام. من المعلوم أن من يضع قدمه فى الأسكندرونة يستطيع أن يصل وبسهولة إلى الإسكندرية، ومنطقة سيناء أرض لا تصلح للدفاع عن الدلتا. ومن يخترق تلك المنطقة

---

(1) الصهيونية كحركة سياسية عملت وتعمل على تحريف بعض المفاهيم الواردة فى التوراة، وتستغل بعض المفاهيم الأخرى لتُضْفِي على حركتها السياسية نوعًا من القدسية الدينية، وتستهدف من وراء ذلك كله اجتذاب الجماهير اليهودية المؤمنة من ناحية، ومصارعة أخصامها السياسيين من ناحية أخرى. «إسرائيل بين اليهودية والصهيونية» رجاء جارودى، ترجمة حسين حيدر ـ دار التضامن، طبعة أولى 1990، ص 5 المقدمة.

يستطيع أن يضع خنجراً فى قلب مصر، أى فى القاهرة ـ بحيث يفصل الشمال عن الجنوب.

والخلاصة أنه لو وُجدت فى أرض فلسطين دولة قوية عربية ـ وليست إسرائيلية ـ لوجب استئصالها. أحد عناصر الخلاف بين مصر وإسرائيل، بل والعنصر الجوهرى لا يرتبط بالصراع القومى العربى ـ الإسرائيلى فحسب، ويجب أن يكون ذلك واضحاً فى ذهن القيادات المصرية المسؤولة.

د ـ قبل أن نترك هذه النقطة ـ والمتصلة بطرفى الصراع الأصليين ـ علينا أن نلاحظ ونطرح مجموعة من التساؤلات .



هل نعاصر حربا أخرى من حروب الهيمنة؟

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«بعد أن تطرقنا إلى طبيعة طرفى الصراع، لنا الآن بعض الملاحظات :أول هذه الملاحظات: أن اتفاقية كامب ديفيد» لم تنه هذا الصراع، لا على المستوى القومى، ولا على المستوى الثنائى. على المستوى القومى واضح؛ لأنها فقط بين مصر وإسرائيل، كذلك فهى على المستوى الثنائى بين مصر وإسرائيل لم تنه الصراع. إنها قدمت له أسلحة جديدة. السلاح الدبلوماسى وما يرتبط به من أدوات هو محور التعامل الصراعى. وهذا يعنى:

أ ـ أن الصراع العضوى قد أُجل مؤقتًا، وحل محله الصراع التفاوضى.

ب ـ وهو فى جميع الأحيان صراع إرادات.

جـ ـ وهو أى الصراع العضوى قابل لأن ينشب فى أى لحظة.

د ـ ولا يمنع من ذلك الإعلان عن أن حرب 1973 هى آخر الحروب. إن هذا هو ما يُسمى فى القانون الدولى: «إعلان نوايا» وليس التزامًا مقننًا ـ حتى ولو نُصّ عليه فى وثيقة دولية.

الفقه الإسرائيلى واع بذلك، وهو يصف الموقف بين «تل أبيب والقاهرة» بكلمة ذات دلالة: «الحرب النائمة» (dorment war) علينا أن نتذكر من جهة أخرى أنه دون مصر لن يتحقق سلام، وهذا ما تعرفه جيداً إسرائيل، ودون مصر لن يحدث قتال، وهو ما يجب أن تعيه جيداً القيادات العربية. هذه الحقيقة التى لم يفهمها لا الطرف العربى ولا نفس القيادات المصرية فهمتها بوضوح ـ ليس فقط القيادات الإسرائيلية، بل وكذلك الدبلوماسية الأمريكية ـ وخططت سياساتها مع المنطقة على أساسها يجب أن نتذكر أن سياسة المعونات الأمريكية ليست لصالح مصر[1]، ولكنها لصالح إسرائيل، وواشنطن بهذا

---

(1) «المعونة الأمريكية لمن.. لمصر أم أمريكا؟»، دينا جلال، كتاب الأهرام الاقتصادى، سنة 1988، والمؤامرة على التعليم والمعلم، حسن جودة وآخرون، ص 36 وما بعدها، لقد أثبتت الباحثة أن المعونة الأمريكية فى الفترة 1975 ـ 1983 لم تكن لصالح مصر وإنما لصالح أمريكا.

الخصوص إنما تتبع نفس السياسة التى تتبعها لحماية جنوب إفريقيا فى التعامل مع الدول المحيطة بدولة «بريتوريا». ولكن هذا موضوع آخر.

الملاحظة الثانية : أنه فى اللحظة التى عرضت فيها القيادة الإسرائيلية كيف تنظم العلاقات بين القوى المساندة لها لتقيم حائطًا قويًا يحميها ويدافع عن مصالحها. لم تعرف مصر فى أى مرحلة من مراحل الصراع العربى الإسرائيلى أن تخلق ذلك التوافق بين القوى المؤيدة والمساندة لها. ويبدو ذلك واضحًا من متابعة تاريخ التعامل المصرى، فهى لم توفق فى أى مرحلة من مراحل تاريخها فى أن تجعل العالم العربى يقف متكتلاً خلفها. إذا استثنينا ثلاثة أشهر عقب حرب أكتوبر، فمن العبث الحديث عن التضامن العربى المساند للسياسة المصرية. فحتى حرب يونيه كانت سياسة مصر مبعثًا للخلاف والصدام ـ وبصفة خاصة ـ بسبب حربها فى اليمن. وعقب حرب أكتوبر، ولا يزال الدم لم يجف بعد. بدأت الخلافات التى وصلت إلى ذروتها مع اتفاقية فك الاشتباك الثانية، وانتهت بالقطيعة الحقيقية فى أعقاب زيارة القدس. المسؤولية بهذا الخصوص مزدوجة، فالدبلوماسية المصرية[1] لم تكن ناجحة، والسياسة العربية كانت على قسط من السذاجة. كذلك فإن دول العالم الثالث تذبذبت بين تأييد مصر وتأييد إسرائيل. ويبدو هذا واضحًا فى إفريقيا ذات التقاليد التاريخية مع القاهرة. نفس الظاهرة واضحة فى الكتلة الإسلامية ـ وبصفة خاصة عقب ثورة الخمينى. وسياسة مصر بخصوص دول الجوار الإقليمى للكتلة العربية حتى هذه اللحظة تعبير عن فشل حقيقى. أما عن مواقع النفوذ فى العالم الغربى والأمريكى، فإن مصر لم تعرف حتى اليوم كيف تستثمرها، بل ولم تعرف حتى بتواجدها. إن مصر ذات التقاليد الدبلوماسية تعلمت من العالم العربى الغوغائية، وعليها أن تعيد بناء جهازها المتعلق بتنفيذ سياستها الخارجية. يبدو هذا الاضطراب واضحًا عندما نتابع سياسة مصر فى عهد عبد الناصر، ونقارن بين هذه السياسة وسياسة مصر فترة حكم الرئيس السادات، وبصفة خاصة أثناء وعقب اتفاقيات «كامب ديفيد».

التعامل المتدرج :

الملاحظة الثالثة : وتدور حول تغيير عملية إدارة الصراع بين إسرائيل ومصر عقب اتفاقية السلام محور هذا التغيير ـ وكما سبق وذكرنا بإيجاز وكما سوف نرى تفصيلاً ـ هو أن الصراع لم يعد يأخذ صورة المواجهة المباشرة بقصد الاستئصال، وإنما التعامل المتدرج بقصد تقزيم الخصم وشل حركته. هذا المفهوم الجديد يعنى تغييرًا كليًا فى

---

(1) إن وزير الخارجية إسماعيل فهمى اعتبر أن عملية السلام التى سيقوم بها الرئيس السادات هى فكرة «حشاش» والرئيس واخدها جد!! ما نُشر فى مجلة «روز اليوسف» عددها 3623 بتاريخ /1997/11 17، ص 23. تحقيق عبد الله كمال.

استراتيجية التعامل، حيث مفهوم التسلل إلى الداخل هو محور هذا الإدراك الجديد. التعامل مع الخصم بإضعافه من الداخل ليس بالجديد، بل هو الذى سيطر على «كيسنجر» فى ممارساته الدولية، والتسلل إلى الداخل يعنى ثلاث حقائق:

1 ـ أدوات التعامل السلمى ـ وبصفة خاصة التعامل الدبلوماسى.

2 ـ اتصال بقوى الرفض وعناصر الضعف ـ بقصد تطويع وتقوية تلك العناصر ـ وذلك لإضعاف تماسك الجسد من الداخل.

3 ـ الحصول على أكبر قسط من المعلومات عن حقيقة وخفايا الجسد، موضع الصدام والصراع.

إسرائيل فهمت ذلك ووعته بصورة كاملة. مصر حتى هذه اللحظة لم تفهم ذلك. إنها فهمت سياسة «كامب ديڤيد» على أنها مواجهة للمجتمع المصرى **وليس للمجتمع الإسرائيلى. وبينما ‹أقامت إسرائيل› مركزا ثقافيا هو بؤرة للتجسس فى القاهرة[1] لاتزال مصر لا تعرف شيئا عن إسرائيل[2]. وهذه هى الكارثة الحقيقية التى سوف تنزلق إليها مصر إن آجلا أم عاجلا.**

ثانيا ـ إلى جانب القوى الأصيلة فى الصراع ـ وهى بصفة خاصة مصر وإسرائيل ـ هناك قوى دخيلة فى المنطقة ـ والتى لا موضع لوجودها فى الصراع ـ بل وليس لصالح مصر أن تتدخل فى الصراع، وهى كلا من ‹واشنطن وموسكو›. إن وجود هذه القوى بأى معنى من المعانى ورفع تواجدها إلى مرتبة الطرف المتعامل ليس فى صالح مصر، إلا بشروط معينة، وهو دائما فى صالح إسرائيل. مما لا شك فيه أن إدخال فقط الولايات المتحدة فى حل الصراع ـ كما فعل الرئيس السادات ـ كان خطأ قاتلا؛ فالولايات المتحدة ليست طرفا أصيلا أولا، وهى ليست طرفا محايدا ثانيا، وهى لا تنظر أو تتعامل مع المصالح العربية بنظرة موضوعية ثالثا، وليس من صالح الحمل أن يوضع معه ذئبان: إسرائيل والولايات المتحدة. إذا كان من صالحه أن يطرد جميع الذئاب، فإنه إن فرض عليه تواجد هذه الذئاب، فليكثر منها إلى أكبر حد ممكن؛ لأن الخلاف بين الذئاب قد يتيح له فرصة الخروج من مأزقه.

---

(1) «عملية سوزانا» عمليات الموساد السرية فى مصر ـ عادل حمودة ـ دار الشباب ـ 1988، ص 265، ص 275.

(2) «النظام السياسى فى إسرائيل» لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ دار الوفاء للطباعة والنشر ـ المنصورة ـ ط 2 ، 1992.

* «إطار الحركة السياسية فى المجتمع الإسرائيلى» د. حامد عبد الله ربيع ـ دار الفكر العربى ـ طبعة عام 1978.

والخلاصة : أن التعامل مع إسرائيل والقوى الدولية يجب أن ينطلق من التدرج التالى:

أ ـ المصلحة الحقيقية ألا يكون فى مواجهة مصر سوى إسرائيل.

ب ـ فإن كان لابد من وجود ـ فى هذه المواجهة ـ قوى دولية، فخير لمصر أن توجد عدة قوى دولية وليست قوة دولية واحدة «واشنطن، موسكو، فرنسا» وغيرها .

جـ ـ أسوأ موقف هو أن توجد مصر فى مواجهة إسرائيل، وقد تدخلت فى حل الصراع فقط الولايات المتحدة.

ثالثا ـ كذلك فعلى مصر أن تفهم جيداً أنها يجب أن تنظر إلى جميع الدول العربية ـ وبلا استثناء ـ على أنها أدوات مساندة فى الصراع، بعضها يكمل بالإحاطة الاستراتيجية، البعض يسمح بالعمق الاستراتيجى، والبعض قد يقدم المساندة المادية، أو العسكرية، ولكن فى خاتمة الأمر، فإن الطرف المتعامل الذى عليه أن يتحمل عبء الصدام، والذى دونه لا يمكن إدارة الصراع فى لحظة القتال، كما فى لحظة السلم هو مصر.

أسباب ذلك عديدة : فهو الطرف الثابت فى جميع دوائر الصراع. وهو الطرف الذى يستطيع أن يقدم الجيش المتماسك القادر على المواجهة، مصر ذات الموقع الاستراتيجى والهيبة الدولية، التى تسمح بالتصدى وهى ذات الوظيفة القيادية والإقليمية والحضارية التى تؤهلها لحمل عبء عملية المواجهة، بعبارة أخرى: أنها هى وحدها التى يجب أن تدير عملية الصراع. ولكن هذا لا يعنى أن الدول العربية الأخرى ليست مسؤولة. إنها بدورها مسؤولة، ولكنها جزء فى ذلك القطار الذى يجب أن ينطلق ـ حيث تكون مصر هى مقدمة القطار ـ دونها لن يستطيع القطار التحرك.

القيم الأصيلة المتحكمة فى الأطراف المتعاملة مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى:

سبق أن رأينا أن الأطراف المتعاملة مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى الأصيلة والحقيقية هى فقط مصر وإسرائيل. وأن جميع الأطراف الأخرى لا تخرج عن واحد من اثنين: إما أنها دخيلة على الصراع توظفه لصالحها، أو أنها مساندة لعملية الصراع تقف إلى جانب أحد الطرفين بشكل أو بآخر. لا يعنى ذلك أنها محددة الأهمية، ولكن أهميتها تتوقف أساساً على أحد الطرفين الرئيسيين أو كليهما: مصر وإسرائيل. فكلاهما (هما) وحدهما اللذان يسمحان للطرف الدخيل بأن يكون له موضع، وكلاهما فقط اللذان يستطيعان ويعرفان كيف تصير المساندة من تلك الأطراف الأخرى ذات قدرة فاعلة. ولكن علينا أن نتذكر مرة أخرى أن توتر الصراع ليصل إلى حالة الحرب أو تخفيف حدة الدفاع ليصير صورة من صور التعايش، يتوقف فقط على إرادة دولتين وهما مصر وإسرائيل. إن إدارة الصراع ـ بحكم طبيعته وخصائصه ـ لا يمكن أن تديره إلا «تل أبيب» من جانب فى

مواجهة القاهرة من جانب آخر.

وهذا يقود إلى طرح السؤال الحاسم: ما هى القيم السياسية التى تتستر خلف الصراع؟ أو بعبارة أدق الأهداف التى تسيطر على من يقود الصراع، سواء كان الجانب المصرى أم الجانب الإسرائيلي؟، هل هذه الأهداف لا يمكن أن تتخطى واحداً أو أكثر من القيم الخمس التالية؟ نذكرها بالترتيب ثم نحاول أن نحدد دلالة كل منها وموقعها من ديناميكيات أزمة الشرق الأوسط:

أولا ـ أول هذه الأهداف هو تثبيت الشرعية الإقليمية.

ثانيا ـ الهدف الثانى وهو أن يصير الصراع طريقًا يسمح بالتوسع فى النطاق الإقليمى للإرادة القومية.

ثالثا ـ وهو قد يصير أسلوبًا أساسيًا من أساليب إعادة تشكيل التوازن الإقليمى.

رابعا ـ ولكنه قد يرتفع ليصير المنطلق الحقيقى لتمكين إحدى القوى السياسية المتعاملة من السيطرة والهيمنة على المنطقة.

خامسا ـ ولكنه قد يصير وسيلة لخلق نوع من التعايش السلمى، وفض الخلافات بين مختلف القوى المنتمية إلى المنطقة.

هذه الأهداف الخمسة قد تتوافق فى لحظة معينة، وقد تتابع فى مرحلة واحدة من مراحل الصراع، ولكن كلاً منها يختلف من حيث جوهر التعامل.

فلنحاول أن نفهم دلالة كل منها:

الأول ـ يثور بصفة خاصة بالنسبة لإسرائيل، ويفسر حركتها السياسية والدولية منذ وجودها حتى حرب 1956. هذه الحرب كان الهدف الحقيقى منها هو إثبات أن إسرائيل أضحت دولة تملك شرعيتها الإقليمية. لقد حصلت على شرعيتها الدولية بقرار التقسيم، ولكنها لم تستطع حتى ذلك التاريخ أن تكتسب الشرعية الإقليمية، بل ويمكن القول: إنها لم تحصل على صك الشرعية الإقليمية حقيقة إلا فى عام 1975 عندما اعترفت بها صراحة وفى وثيقة دولية أكبر إرادة سياسية عربية ـ أى فى اتفاقية فك الاشتباك الثانى ـ مع الرئيس الراحل أنور السادات.

إن معنى الشرعية الإقليمية عنصران كل منهما يكمل الآخر: الاعتراف بالوجود الإسرائيلى فى النطاق الإقليمى ـ أى من الدول التى تنتمى إلى الإقليم الذى تعيش فى إطاره الدولة اليهودية ـ ومن جانب آخر حق إسرائيل فى أن تقول كلمتها فى علاقتها بالدول المحيطة بها بل وسوف تزداد فاعلية إسرائيل من هذا المنطلق عندما تزعم حقها فى أن تتعامل مع الدول العظمى على قدم المساواة ـ فى كل أو بعض ما يتصل بالإقليم. برز

هذا منذ حرب 1956، حيث ظهرت إسرائيل كحليف لكل من فرنسا وبريطانيا فى وقت لم تكن بعد قد برزت فيه واضحة قوة كل من «موسكو وواشنطن». وسوف يكتمل ذلك عندما تزعم إسرائيل بحقها فى أن تتحدث باسم المنطقة ـ كما حدث ذلك فى لحظة معينة فى التعامل مع دول أوربا الغربية ـ وبصفة خاصة فترة حكم «ديجول» قبل حرب الأيام الستة. والغريب أن الذى تصدى لها بذلك الخصوص لم يكن سوى رئيس الدول الفرنسية، ولم يلحظه ولم يفهمه أى قائد عربى أو دبلوماسية عربية ـ بما فى ذلك الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان فى أوج نفوذه وقوته الشرعية الإقليمية، حصلت عليها جزئياً إسرائيل فى حرب 1956، وحتى رغم الانسحاب من سيناء، فإن «تل أبيب» حققت فى تلك الحرب جميع أهدافها: إنها دولة قادرة على أن تسحق خصومها، وتملك الحق فى أن تقول كلمتها فى أى سياسة تصدر من الطرف الثانى فى الصراع، أى مصر ـ ويكفى لتأكيد ذلك فتح الممرات المائية أمام تجارتها ورغم السيادة المصرية.

الثانى ـ وهو يرتبط بدوره بطبيعة الدولة اليهودية. محور هذه الدولة ـ وكما سبق وذكرنا ـ هو التوسع المستمر، بل إنها يوم أن تتوقف عن التوسع تفقد طبيعتها، ليس فقط هذا هو هدفها الأساسى ـ بمعنى إسرائيل الكبرى التى تعبر عن الوعد الإلهى ـ ما بين النيل والفرات ـ بل لأنها وهى تسعى لأن تهيمن على المنطقة، لابد وأن تتحول إلى مساحة على قسط معين من الأهمية كذلك، وهى تعتبر أن وظيفتها تجميع جميع يهود العالم، فلابد وأن تخلق الإطار الإقليمى الذى يسمح بذلك، ثم وهى تنظر إلى مصر على أنها الخصم الطبيعى، فلابد وأن تسعى لأن تقترب على الأقل إقليمياً من الوزن الذى تقدمه مصر، وهى لذلك لم تحدد حتى اليوم حدودها وتاريخها هو توسع إقليمى مستمر.

فى حرب 1967 حققت خطوة أولى. فى حرب 1982 كانت الخطوة الثانية فى اتجاه لبنان.

متى تحدث الخطوة القادمة؟

كذلك يجب أن نتذكر أن التوسع فى الفقه الإسرائيلى لا يملك صورة واحدة. فهو أفقى بمعنى ضم أرض جديدة، ولكنه أيضاً قد يكون رأسياً، بمعنى تعميق الانتماء الصهيونى إلى الأرض، سواء بطرد أهالى الأرض من غير اليهود أو تحويل هؤلاء، أى الأهالى ـ غير اليهود إلى حقيقة تابعة ومترابطة مع الفكر والعقيدة الصهيونية. وهو ما يحدث فى الضفة والقطاع منذ حرب 1967، وهو ما يحدث كذلك فى صورة خفية وغير واضحة فى لبنان ومصر

والملاحظة الجديرة بالتأكيد أن التوسع لا يفترض القتال والانتصار فى ميدان الصراع العضوى. التوسع قد يكون ـ كما ذكرنا ـ أفقياً، ولكنه قد يكون رأسياً.

فى عام 1967 كان التوسع أفقيًا. عقب ذلك ـ وبصفة خاصة فى الضفة ـ حدث توسع رأسى، بمعنى، التهويد ونشر المستوطنات، وهكذا خضعت هذه المنطقة لتوسع أفقى ورأسى. وقد برز ذلك أكثر وضوحًا فى منطقة الجولان التى أعلن ضمها للأراضى الإسرائيلية. على أن التوسع قد يصير فقط رأسيًا أو بعبارة أدق: فإن التوسع قد يكون عسكريًا وقد يكون سلميًا. الذى يحدث فى مصر هو نوع من أنواع التوسع السلمى، بمعنى خلق المصالح المشتركة والصداقات المتعددة الذى قد يكون فى بعض الأحيان أخطر، أو على الأقل لا يقل خطورة عن التوسع العسكرى.

الثالث ـ كذلك فإن الصراع قد يصير أداة من أدوات إعادة تشكيل التوازن الإقليمى لصالح أحد الطرفين المتصارعين. معنى ذلك أنه فى كل منطقة إقليمية يوجد نوع معين من التوازن تفرضه الأحداث، ينبع من طبيعة القوى المتعاملة فى المنطقة، يلتهب الصراع ويصير فى تلك اللحظة منطلقًا لإعادة تشكيل التوازن لصالح أحد الطرفين المتصارعين. حدث ذلك فى عام 1967 من كلا الجانبين؛ مصر ممثلة فى شخص جمال عبد الناصر، وإسرائيل تقودها المؤسسة العسكرية ـ من حيث واقع هذا الصراع، فقد كان جمال عبد الناصر يمثل القوة المهيمنة على المنطقة، ولكن بعض القوى العربية كانت تناوئه فى ذلك، بل وتشكك فى قدراته الحقيقية. إضعاف هيبة جمال عبد الناصر عقب فشل الوحدة مع سوريا أولاً، ثم عقب استمرار الحرب فى اليمن دون أن تحقق أهدافها الحقيقية ثانيًا، لم يكن لصالح الجانب العربى.

فى الجانب الآخر، فإن إسرائيل كانت تعانى من أزماتها الداخلية، ولم تكن بعد قد انطوت تحت الجناح الأمريكى، هدفها الأساسى هو كيفية التعامل، بحيث تستطيع أن تتحكم فى منطقة الشرق الأوسط، ومن هذا المنطلق تصير قادرة على مخاطبة القوى العظمى. مدير وزارة الخارجية الإسرائيلية «فيتال» أرسل إلى جامعة «دبلونج» بالقرب من «لندن»، ليجيب على السؤال: كيف تستطيع دولة صغيرة أن تتعامل مع القوى العظمى من منطلق الندية؟ الكتاب الذى صدر بعنوان: «عدم المساواة بين الدول» تضمن حصيلة الرؤية التى سوف يقدر لها أن تكون أساس الإدراك القيادى الإسرائيلى فى حرب عام 1967. محور ذلك هو أن الدولة الصغيرة لو استطاعت باستراتيجية نشطة أن تعيد تشكيل التوازن الإقليمى لصالحها، فهى قادرة؛ من منطلق مبدأ القوة المسيطرة إقليميًا، أن تتعامل مع الدولتين الأعظم، ولو لفترة قصيرة على قدم المساواة. وهكذا كانت أحداث عام 1967 حيث راحت إسرائيل تستعد منذ عدة أعوام سابقة على نشوب تلك الحرب؛ لتحقق ذلك الاختلال الإقليمى لصالحها. **لم يفهم ذلك جمال عبد الناصر الفهم الواعى الحقيقى، وانزلق فى صراع عسكرى لم يَعُد له عُدّته، وتصور أن قصة 1956 سوف تتكرر دون أن يُدرك الخلاف الواضح**، ليس فقط فى الإطار الدولى، بل فى الأهداف التى تسيطر على القيادة

الإسرائيلية.

وهكذا مكن «تل أبيب» من أن تحقق هدفها، وهو خلق الاختلال فى التوازن لصالحها بعد أن أحالت مصر إلى دولة مهزومة ـ غير قادرة على الدفاع عن نفهسا ـ وقد احتُلّت أراضى واسعة من أرضها من جانب، وأقفلت قناة السويس من جانب ثان، وفقدت الهيبة الدولية والإقليمية من جانب ثالث.

الرابع ـ الهدف الرابع يصير الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط ـ منطق خلق الاختلال ـ فى التوازن الإقليمى ـ لا يعنى بالحتمية الهيمنة على المنطقة(1). الهيمنة خطوة أكثر بعداً، حيث تعنى السيطرة الفعلية على مختلف القوى فى داخل منطقة الشرق الأوسط، وتحديد حركة تلك القوى تبعًا لأهداف ومصالح القوة المسيطرة. من المعلوم أن هذه المنطقة ليس بها دول كبرى قوية ـ سوى مصر وإسرائيل ـ ونستطيع أن نضيف تركيا وإيران. الدول العربية الأخرى ليست سوى كيانات هشة لا قيمة لها، إلا لو قُدّر لها تحقيق نوع معين من الوحدة الحركية. ضرب أحد طرفى الصراع ضربة قوية ـ سواء بهزيمة ساحقة أو باستيعاب وتطويع يسمح للدولة الأخرى سيطرة وهيمنة حقيقية على المنطقة. هذا الهدف كان فى فكر القيادة الناصرية، وكذلك القيادة الإسرائيلية فى عام 1967. فشلت كلا القيادتين فى تحقيق ذلك الهدف: القيادة المصرية بالهزيمة الساحقة، لم تستطع أن تحقق أى هيمنة، بل فقدت القدرة التى كانت تملكها. أيضاً القيادة الإسرائيلية فشلت، وقد كان مرد ذلك عدة أسباب:

السبب الأول ـ لأن القيادة الإسرائيلية اختلت عقب الهزيمة السريعة الساحقة. لم تكن تتوقع أن تقضى على القدرة المصرية فى عدة ساعات. كما أن الهزيمة تقود إلى الاختلال، فإن النصر غير المتوقع أصاب القيادة الإسرائيلية بنوع من فقد القدرة على الرؤية. وهى لذلك لم تعرف كيف أن النصر لا يكون حقيقياً إلا باستئصال الأداة المقاتلة العدوّة، وهو أمر لم يحدث فى حروب 1967. الجيش المصرى الحقيقى كان فى اليمن، وهو صاحب معركة رأس العش. هذا الجيش لو كانت القيادة الإسرائيلية واعية لكان يجب عليها أن تستأصله.

السبب الثانى ـ لأن العسكرية الإسرائيلية لم تستمر فى مسيرتها، سواء للقضاء على الأداة المقاتلة، أو بصفة أساسية لتطويع الأداة السياسية المصرية ـ التى سرعان ما انتصبت لتقف فى مواجهة العدوان.

السبب الثالث ـ ولعل هذا هو المحور الحقيقى ـ وهو صمود جمال عبد الناصر ـ هذا

---

(1) كتاب: «نهضة أمة.. كيف نفكر استراتيجياً» لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ مركز الإعلام العربى ـ طبعة عام 1997، ص 328 ـ ص 343.

الصمود الذى برز واضحًا منذ اللحظة الأولى للهزيمة ـ هو النصر الحقيقى الذى قدمه القائد المصرى للأمة العربية. ولكن فى صورة واضحة منذ حرب الاستنزاف. هذا الهدف وضح مرة ثانية من الجانب الإسرائيلى فى أعقاب حرب أكتوبر، وبصفة خاصة مع اتفاقية فك الاشتباك الثانى.

قصة الثغرة هى نقطة البداية فى هذا التطور، على أن هذا التطور يصير ساطعًا عقب زيارة الرئيس السادات للقدس فى نوفمبر 1977، وبصفة خاصة يبرز ذلك بلغة واضحة من خلال الخطاب الذى استقبل به «مناحيم بيجن» رئيس الدولة المصرى فى الكنيست. المحلل المحايد لا يستطيع أن يجد نموذجًا آخر لزعيم أكثر تحجرًا وأكثر غباءً من «مناحيم بيجن» كما يبدو فى ذلك الموقف. هل سوف يتحول هذا **الهدف إلى محور المعركة عسكرية قادمة؟ هل سوف نعاصر حربا أخرى**[1] **تسعى من خلالها إسرائيل لتحقيق هذه الهيمنة؟ سؤال آخر نطرحه مؤقتا دون الإجابة عليه، الذى يعنينا أن نذكر به أن هذا الهدف يمكن أيضا أن يسيطر على السياسة المصرية، ولكن ذلك يفترض قيادة مغامرة، وطبقة قيادية متماسكة، وقناعة بوظيفة إقليمية، أمور لا تتوفر حتى اليوم فى وادى النيل، وقد لا تتوفر خلال فترة قادمة غير قصيرة.**

الخامس ـ الهدف الأخير هو خلق نوع من التعايش بين القوى المتصارعة، وفض الخلافات ولو لعدة أجيال. محور هذا الهدف أن الصراع قد وصل إلى مرحلة معينة، حيث هناك مواقف لم يعد من الممكن إلغاؤها، وحيث برزت أهداف أكثر أهمية من هذا الصدام العنيف فى التصور والإدراك للقيادة المصرية. المواقف التى لم يعد من الممكن إلغاؤها تدور حول عنصرين أساسيين:

---

(1) أولاً ـ ليست بالضرورة أن تكون حربًا عسكرية، ولكن كما قال الأستاذ الدكتور فى ص 28 (الملاحظة الجديدة) بأن التوسع قد يكون عسكريًا أو سلميًا. فالحرب الاقتصادية أو الثقافية أو النفسية هى أيضًا من أجل الهيمنة، وكل ذلك أشارت إليه البروتوكولات التى حدد فيها اليهود أهدافهم للهيمنة على العدو. ففى مجال التعليم مثلاً نرى البروتوكول رقم 13 يقول: «لقد خدعنا شباب الكفار ويعنى غير اليهود، وأدرنا رأسه وأفسدناه بتلقيه المبادئ والنظريات التى نعرف أنها خاطئة على الرغم من أننا الذين قمنا بتعليمها...» وقد تحقق لهم ذلك: فقد سلّمت مناصب الأستاذية فى المعاهد والجامعات لأكثر العناصر عداءً للإسلام، واستطاعوا تغذية الأجيال الناشئة بالنظريات والأفكار الاجتماعية والسياسية والفلسفية والنفسية الهدامة... وهذه نوع من أنواع الهيمنة.

ثانيًا ـ لقد قال الأستاذ الدكتور حامد عبد الله ربيع بأن هناك حربًا حول عام 1995. «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية» أ. د. جمال عبد الهادى/ عبد الراضى أمين ـ دار الوفاء ـ طبعة عام 1988؛ كما ذكر أستاذ الاستراتيجية العسكرية اللواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل بأن هناك احتمال حرب قبل نهاية هذا القرن؛ «النظام السياسى فى إسرائيل»؛ مجلة استراتيجيًا، العدد 109 السنة التاسعة نوفمبر/ ديسمبر 1991 تحت عنوان «الجولة الإسرائيلية العربية السادسة» السنة التاسعة.

العنصر الأول ـ ويرتبط بالقيادات العربية الحالية التى ترهلت ولم تعد صالحة أو راغبة فى مواصلة القتال.

العنصر الثانى ـ أنه فى أرض فلسطين يوجد كيان رغم أنه دخيل، إلا أنه قد استقر وضرب بجذوره فى الأرض، ولم يعد الإطار الدولى يسمح بنزعه أو استئصاله. هذه السياسة الواقعية يرتبط بها متغير آخر، وهو أن الآلام التى عانت منها المنطقة تفوق الوصف، وقد آن للمنطقة أن تنظر إلى مشاكل أخرى أكثر أهمية من مجرد الصدام بين إسرائيل ومصر. هذا المفهوم هو الذى ساد الجانب المصرى فى حرب عام 1973.

ولكن ما معنى إدارة الصراع العربى الإسرائيلى؟

وما هى مسالكه ونماذجه وخصائصه؟

سؤال آخر هو لب هذه التأملات، وإلى حديث قادم».

الفصل الثالث

مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع العربى - الإسرائيلى

إدارة الصراع .. ونماذج الإدارة

المبحث الأول: عملية إدارة الصراع و خصائصها

المبحث الثاني: نماذج لإدارة الصراع العربى- الإسرائيلي

المحور الأول : نموذج الإدارة فى عهد عبد النا صر

المحور الثاني: نموذج الإدارة فى عهد أنور السادات

المحور الثالث: تقويم لنموذجي عبد النا صر والسادات

المحور الرابع: نموذج الإدارة عند مناحيم بيجن

المبحث الثالث: ستة مبادئ صهيونية لم تتغير





عملية إدارة الصراع .. وخصائصها

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

المتتبع للفقه السياسى العربى يلحظ بوضوح نوعًا من الخلط بين المفاهيم الأساسية، بحيث ينتهى القارئ بنوع من الاشتباك بين العناصر المختلفة التى يتكون منها تحليل أى ظاهرة. هذا الاضطراب الفكرى ـ فى واقعنا السياسى ـ قاد إلى عدم وضوح الرؤية بالنسبة لحكامنا والمسؤولين عن مستقبل ومصير هذه الأمة. أحد تطبيقات ذلك الخلط بما ترتب عليه من نتائج مفجعة يرتبط بما يسمى إدارة الصراع وعلاقة عملية إدارة الصراع بما يسمى عملية صنع القرار(1).

فلنحاول فى عجالة سريعة أن نحدد المرتكزات الأساسية بوضوح.

مراحل النشاط السياسى ـ وبصفة خاصة فيما يتعلق بالتعامل الخارجى ـ تفترض التمييز بين أربعة مستويات:

الأول ـ صنع السياسة.

الثانى ـ صنع القرار السياسى.

الثالث ـ تنفيذ القرار.

الرابع ـ إدارة الصراع المرتبط بذلك القرار.

يقصد بصنع السياسة: كل ما له صلة بعملية البناء المجردة للتعامل. وهى تدور حول

---

(1) عملية صنع القرار، أو أخذ القرار، له أسلوبه ومنهجه، ولا يؤخذ القرار دون دراسة أو فهم، ولكن يقول أستاذ الاستراتيجية اللواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل فى كتابه «النظام السياسى فى إسرائيل» مرجع سابق عن عملية أسلوب صنع القرار، فيقول: «لئن كانت الدولة ـ أية دولة ـ هى مؤسسة سياسية كبرى، تسعى نحو بلوغ أهداف بعينها، تعلقت بها آمال شعب هذه الدولة، فإن تحقيق أى من هذه الأهداف لابد من إرادة، تعبر عنها السلطة السياسية، فى شكل عملية مستمرة لصنع واتخاذ القرارات ومتابعة تنفيذها، والإعداد للتعامل مع موقف أو صنع جديد من خلال اتخاذ قرار آخر... وهكذا» ص 225 المرجع السابق.

الإدراك والتصور لعناصرمعينة، حيث تتحدد بوضوح وصراحة، ولو فقط من خلال التصور، ولكن على أساس الإمكانيات المتوفرة والقدرات المتاحة ثلاثة أشياء: الأهداف، وترتيب الأهداف، وتحديد البدائل لكل هدف، بمعنى أن هناك أهدافًا قومية، وهذه الأهداف فيما بينها تملك مستويات متعددة ـ من حيث الأهم فالأقل أهمية ـ وكل هدف له بدائل، أى له متغيرات، كل منها يمكن أن يحل محل الهدف الأصيل ـ إن لم يكن من الممكن تحقيقه. ويرتبط بهذا التحديد لدوائر التعامل، بمعنى أن هناك حداً أقصى لما نريده ـ يجب ألا نتجاوزه فى الظروف المعتادة ـ وحداً أدنى لا يجوز أن نتجاوزه مهما كانت الظروف. صنع السياسة بهذا المعنى هى عملية بناء مجردة، ترمى لتحديد تصور نظرى لأهداف الحركة السياسية وكيفية تحقيق تلك الأهداف، سواء من حيث أدوات التعامل أو مراحل التعامل، ومن ثم فإننا عندما نتحدث عن صنع السياسة، فإننا نظل دائمًا فى دائرة ذلك الذى يجب أن يكون. صنع السياسة بهذا المعنى، عملية مكتبية بعدها المُنَظِّر والأيديولوجى، وبتوافق تام مع الاستراتيجى العسكرى.

عملية صنع القرار : هى نقل تلك الأهداف المجردة إلى حيز الواقع، بمعنى التعامل الفعلى مع الأحداث، التعامل الفعلى مع الأحداث ومع التطورات، يعنى خطوات جزئية متتابعة مدروسة، تقود فى نهاية المطاف إلى تحقيق الهدف الكلى الشامل، الذى هو محور عملية صنع السياسة «القرار»، ومن ثم هو جزئية تعبر عن الارتطام مع الواقع، بقصد تحقيق الهدف المجرد. صنع القرار هو اختصاص الحاكم الذى يجب أن يستعين بأعوانه، ولكنه يظل هو وحده صاحب الكلمة الأولى والنهائية.

تنفيذ القرار يعنى إعداد الإطار الدولى والإقليمى والداخلى لاستقبال القرار، بحيث يتم تحقيق أكبر قدر من العائد على تنفيذ القرار، وأقل قدر من التكلفة، وهذا ما يسمى باقتصاديات الحركة. فتنفيذ قرار مكلف دون عائد أو حيث عائده محدود وقليل، لا يعبر عن حصافه، ولكن عن عدم صلاحه. لا يجوز أن يترتب على أى قرار سياسى ـ وبصفة خاصة فى التعامل الخارجى ـ أن يقود إلى إضعاف الدولة، على سبيل المثال: مقتل سفير دولة عظمى، لو قوبل بإعلان حرب على تلك الدولة، يعنى سذاجة من جانب حاكم تلك الدولة. عملية تنفيذ القرار أو ما يسمى فى بعض الأحيان تنفيذ السياسة الخارجية، تبرز خطورتها حقيقة فى التعامل عبر الحدود القومية، حيث إطار التعامل لا يخضع لتحكم صانع القرار، وحيث يكون أمام صانع القرار أكثر من إدارة واحدة لتنفيذ أهدافه.

تنفيذ القرار وإدارة الصراع :

تنفيذ القرار يقود إلى ما يسمى عملية إدارة الصراع، وذلك بصفة خاصة عندما تتعقد مشكلة تنفيذ القرار، أو يرتبط به صراع متعدد الأبعاد والدوائر، ومن ثم يصير على الحاكم

واجب التنويع بين القرارات والأدوات والتتابع والإعداد للموقف ـ وبصفة خاصة فى السياسة الخارجية ـ حيث تبرز متغيرات مختلفة عن السياسة الداخلية، وأهمها:

أولا ـ بسبب تعدد أدوات تنفيذ القرار، صانع القرار الخارجي يجد أمام نفسه أكثر من إدارة واحدة لتنفيذ أهدافه ابتداء من التفاوض والاتصال إلى القتال وشن الحروب بصورها ونماذجها المتعددة.

ثانيا ـ بسبب عدم خضوع التعامل الخارجى لأى قواعد أخلاقية، بحيث إن الحاكم من حقه الكذب والمناورة فى أسوأ صورها ـ حيث التقاليد التى تعيشها الأسرة الدولية تسمح بذلك، بما فيه ما يسمى الحرب النفسية وغسيل المخ.

ثالثا ـ صعوبة إعداد الإطار الخارجي ـ الذى يتتابع من إطارٍ لدول الجوار ـ ثم النظام الإقليمى دون الحديث عن الأسرة الدولية.

كذلك يجب أن نضيف أن التعامل الخارجى فى حاجة إلى معركة من نوع معين، لا يسلكها الحاكم لمجرد نجاحه داخلياً. وبصفة خاصة فى الدول المتخلفة، حيث الحاكم ـ فى أغلب الأحيان وهو يعبر عن المجتمع القومى ـ لم تُقدّر له المعرفة الحقيقية والعلمية بالعالم الخارجي، ومن ثم فى حاجة إلى **خبرة العلماء**(1)، وهذه فى ذاتها **مشكلة** أخرى. لقد أثبتت الخبرة المعاصرة ـ فى الدول المتخلفة ـ صعوبة التعامل بين العالم والقائد، الأول لا يحترم الثانى، وهذا الأخير مملوء بعقد النقص فى مواجهة الأول. ونقصد بطبيعة الحال العالم الحقيقى، حيث إن العالم الثالث بدوره قد فتح الباب واسعاً للفوضى العلمية، حيث لا توجد أى ضوابط حقيقية للولوج إلى أسرة العلمية القومية، والحديث بهذا الخصوص ذو شجون ليس هذا موضعه.

الذى يعنينا أن نُذكّر به، هو العلاقة الوثيقة بين صنع القرار وإدارة الصراع، دون أن يعنى ذلك الخلط بينهما.

القرار هو أحد أدوات إدارة الصراع، الأول، أى القرار لابد وأن يسبق إدارة الصراع ، ولكنه لابد وأن يتتابع مع عملية إدارة الصراع، حيث بعبارة أخرى هناك ديالكتيكية معينة، تربط بين كلا العنصرين برابطة وثيقة تجعل كلاً منهما مقدمة ونتيجة للآخر. القرار هو جزئية فى إدارة الصراع، وهو خطوة تكتيكية تتدرج فى عملية إدارة الصراع، ولكنه كذلك قد يوجد مستقل عن عملية إدارة الصراع.

---

(1) إن الحاكم الذى يجيد عملية صنع القرار واتخاذه يجب أن يعتمد على العلماء المخلصين ـ أهل الاختصاص ـ العاملين بالشريعة فى الاستماع إليهم، وأخذ مشورتهم، أما النظام العالمى الجديد قد فصل بين الدين والسياسة، فجعل الحاكم فى واد، والعلماء والدين فى واد آخر. وهذا ما عبّر عنه الدكتور حامد ربيع بأنه مشكلة.

ما الذى يجب أن نقصده بإدارة الصراع؟

هو كل ما يتصل بعملية الالتحام بين القائد والموقف، وقد تحدد ذلك الموقف زمانًا ومكانًا وموضوعًا، لتحديد أهداف معينة ـ من خلال التحكم فى القدرات الذاتية والجماعية واستغلال الفرص التى يتيحها التطور العام ـ لإطار التعامل بين القائد والموقف، بعبارة أخرى: إدارة الصراع تعنى:

أولا ـ أن هناك قائدًا أو قيادة.

ثانيا ـ أن هناك موقفًا له خصائص معينة.

ثالثا ـ أن هناك أهدافًا محددة قد قُنِّنتْ مسبقًا.

رابعا ـ أن القائد أو القيادة قادر من خلال التحكم فى قدراته على تحقيق تلك الأهداف كلاً أو جزءًا.

القرار هو : أداة إدارة الصراع، ولكن ليس هو الصراع. القرار بحرب، أو بالدخول فى مفاوضات هو أداة فى إدارة الصراع، وليس هو عملية إدارة الصراع، إنه مركبة أمتطيها لأصل إلى موقعٍ معين، ولكنه ليس الوصول إلى ذلك الموقع.

الصراع العربى الإسرائيلى لا يخرج عن هذه القاعدة.

الخصائص :

سبق أن رأينا أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى يملك خصائص معينة، ورغم أنه صراع إقليمى، فهو قد اتسع وامتدت آفاقه تدريجيًا ليصير صراعًا دوليًا، رغم ذلك فإن الأطراف الفاعلة فى هذا الصراع هى فقط وأساسًا، إسرائيل من جانب، ومصر من جانب آخر، وَصفْه بأنه عربى ـ إسرائيلى، لا يمنع من أن الجانب العربى فى ذاته يمثل ثقل المساندة. إن قوته لا تَنْبُع إلا من توظيفه من جانب الإرادة المصرية. ومن هنا يبرز عمق المأساة عندما تُشل الإرادة المصرية، أو تتدخل فى تكوينها عناصر تسعى جاهدة إلى إفسادها.

ولنقلها، ونعلنها بصراحة وهى كثيرة كذلك، رأينا أنه رغم الحديث المتتالى والمتكرر عن عملية صنع السلام فى المنطقة، فإن هذا الإدراك يتجاهل طبيعة هذا الصراع وينفى جوهره، بل هو هذا الحديث يعنى كذلك عدم الفهم لمعنى إدارة الصراع.

كيف يجب أن يدار الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وبصفة خاصة عقب مؤتمر قمة الدار البيضاء؟ ولنتذكر أن أزمة لبنان وأزمة الخليج العربى، وأزمة الانتفاضة الفلسطينية ليست جميعها سوى عناصر فى هذا الصراع. ولنتذكر أن المنظمات الإقليمية الجديدة بدورها يجب أن توظف فى هذا الصراع وإدارته كيف؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن

بخصوصه تصوراً واضحاً ومقنناً.

هذه التساؤلات تفترض عدة مقدمات يجب أن نسلم بها:

الأولى ـ أننا ننطلق من المصالح العربية، أى أننا نقف مع الطرف المتعامل العربى، وأن هذا لا يعنى أنه لا توجد تصورات أخرى تبعًا للطرف المتعامل، سواء كان إسرائيليًا أو إحدى القوى العظمى.

الثانية ـ أننا نجعل محور التحليل هو ما سبق وذكرناه، أن الطرف المتعامل العربى يتمركز حول مصر كمقدمة لعربة الصدام، تسحب خلفها جميع الدول العربية، ولا تلقى على أى دولة عربية أخرى مسؤولية قيادة الصراع، مهما كانت نتائج وتضحيات الصراع.

الثالثة ـ أننا ننطلق وقد أضحت هناك مجموعة من الحقائق التى يجب أن نعترف بوجودها بغض النظر عن قبول أو رفض السياسة التى قادت إليها، وبصفة خاصة اتفاقيات «كامب ديڤيد» وما ارتبط بها، وما لحق بها من مواقف سياسية. إنها وقائع قائمة لا يمكن إلغاؤها.

الرابعة ـ أننا نجعل محور العرض هو التحليل العلمى الجامد بلغة الواقع، ولكن بصراحة العالم، وليس بلغة المزايدات التى برعت فيها فى الفترة الأخيرة أوساطنا التى تزعم بأنها علمية.

سبق أن ذكرنا أن إدارة الصراع، تعنى قيادة أولاً، وموقفًا ثانيًا، وقدرات ثالثًا، وأهدافًا واضحة رابعًا. وسوف نتعرض لكل ذلك بدقة وتفصيل. ولكن يعنينا مسبقًا أن نذكر بأن القدرات التى يجب أن يتلاعب بها القائد أو القيادة هى خمسة:

أولا ـ الجيش أو الإدارة العسكرية.

ثانيا ـ الدبلوماسية أو الجهاز الدبلوماسى.

ثالثا ـ الإعلام وكل ما يتصل بعملية جمع المعلومات.

رابعا ـ القوى الداخلية.

خامسا ـ القوى المتعاطفة أو المؤيدة صاحبة المصلحة فى النطاق الخارجى.

ولنتذكر ـ ونحن بصدد هذه المعلومات الموجزة التى هدفنا منها أن تكون المفاهيم محددة بطريق علمية ـ أن الجيش ليست وظيفته فقط أن يقاتل، بل إن وظيفته أيضًا أن يمنع القتال، وهذا ما يسمى بالوظيفة الردعية للأداة المقاتلة، أضف إلى ذلك: أن القتال بين الشعوب لم تعد فقط صورته الصدام المسلح ـ الذى يأخذ صورة جيوش متكتلة كل منها يقف فى مواجهة الآخر ـ فهناك أيضًا تشجيع القلاقل المحلية من جانب، دون الحديث من

جانب آخر عن الحرب النفسية، حيث يصير التعامل مع العدو من داخله، ورغم أن أسلوب التعامل هو دائماً القتال والصدام المسلح. أضف إلى ذلك: أننا ونحن فى مجال الحديث عن إدارة أزمة لها طابع خاص ـ فضلاً عن أنها أزمة خارجية وليست أزمة داخلية ـ فإن الدبلوماسية والعمل الدبلوماسى يصير المعبر الحقيقى للوصول إلى الخصم، بل إنه يصير أيضاً الحائط الأخير للحماية الذاتية.

الإعلام يجب أن يُفَهَّمْ بأوسع معانيه، إنه يقدم المعلومات السابقة على اتخاذ القرار، وهو يخلق الاتصال مع الأعداء، وهو يسهم فى خلق الموقف الصالح لإدارة الأزمة بالدعاية الواعية والذكية، وهو المطرقة الأساسية التى تستخدم فى تحطيم نفسية الخصم، أما عن القوى الداخلية، فعلينا أن نُميّز فيها بوضوح بين عناصر ثلاثة:

نخبة حاكمة هى الدرع الأول لحماية القائد للصراع الذى يسير على رأسها ويسعى إلى تحقيق الأهداف الحقيقية للمجتمع السياسى، التى لا يعبر عنها بالصراحة الحقيقية، إلا هذه النخبة الحاكمة، ثم القوى المساندة للقيادة، حيث تمرح فى داخلها تلك القيادة وبصفة خاصة ذلك القائد والتى تصير علاقته بها كعلاقة السمك بالماء لو خرج منها لانتهت حياته.

ثم **قوى معارضة** يجب لحظة الصراع القومى أن تنصهر بدورها مع هذه القوى المساندة، ورغم جميع الخلافات، بحيث يتحول المجتمع إلى قبضة ضاربة فى بوتقة واحدة من التماسك، ولو المؤقت تسير فى اتجاه واحد وتضرب فى موقع واحد، حيث الخصم الذى لا موضع بخصومته لأى شك أو التباس.

فإذا انتقلنا إلى القوى الخارجية؛ لكان علينا أن نُميّز أيضاً بين القوى المتحالفة، أى بتلك المتوافقة مع حركة قائد الأزمة فى ترابط تام، **ثم قوى إقليمية** يتعين على إدارة الأزمة أن تخضعها لعملية جذب مصلحية كحد أدنى فى التعامل، **ثم قوى دولية** قد لا تنتمى إلى المنطقة، ومن ثم يصير جوهر السياسة كحد أدنى هو تحييد مواقفها إن لم يكن خلق عناصر المصلحة المشتركة مع أهدافها فى المنطقة.

هذه هى الدلالات الحقيقية لمفهوم إدارة الصراع.

أيضا الصراع العربى ـ الإسرائيلى، صراع يخضع لمنطق إدارة الأزمات. لنستطيع أن نفهم هذه العملية ـ وكيف تجب إدارة الصراع من الجانب العربى، لابد وأن نبدأ فنتابع النماذج التاريخية التى تقدمها لنا خبرة الأعوام العشرين الماضية، قبل أن نطرح الموضوع من منطلق تنظيرى، الأمر الذى لابد وأن يقودنا من جانب إلى التعرض لمستقبل الصراع واحتمالاته من جانب آخر إلى مؤتمر القمة، وموضوع ذلك المؤتمر من إدارة هذا الصراع.

النماذج التاريخية لإدارة الصراع العربي ـ الإسرائيلي :

لو توقفنا أمام فترة العشرين عاماً الماضية، والتى تمثل إلى حد معين موقف إقليمى ودولى يكاد يعكس خصائص واحدة، أو على الأقل متشابهة، **لاستطعنا أن نُميِّز بين أربعة** نماذج لإدارة هذا الصراع تتصف بالصراحة والوضوح نموذجان يمثلان الجانب المصرى، ونقصد بذلك **نموذج جمال عبد الناصر**، ثم نموذج الرئيس السادات. كل منهما يختلف من حيث جوهره فى إدراكه للصراع، ومن ثم فى تعامله مع الصراع، وإن كان هذا لا يمنع من أن كلاً منهما خلال هذه الفترة، والتى تبدأ مع حرب الأيام الستة يقتربان ويتشابهان إلى حد كبير فى الجانب الآخر، أى الجانب الإسرائيلى، نجد **نموذج «مناحيم بيجن»**، ورغم أن «مناحيم بيجن» لم يحارب مصر فى خلال فترة قيادته للصراع، إلا أن نموذجه أكثر النماذج وضوحاً وصراحةً. النموذج الرابع يقدمه لنا « **هنرى كيسنجر** » بدوره نموذجاً واضحاً من حيث خصائصه، ولكنه يجب أن نتذكر أنه طرف ثالث، وليس طرفاً مباشراً فى الصراع «هنرى كيسنجر» كان يمثل المصالح الأمريكية، وبغض النظر عن علاقاتها بإسرائيل، فهى متميزة ولا تمثل الطرف المباشر فى هذا الصراع.



نماذج لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى

المحور الأول

نموذج الإدارة فى عهد عبد النا صر

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«مما لا شك فيه أن جمال عبد الناصر شخص عملاق وقائد متميز، على أننا قبل أن نتطرق إلى خصائص القيادة الناصرية للصراع العربى ـ الإسرائيلى، يجب أن نتذكر مجموعة من الحقائق:

الحقيقة الأولى ـ أن الفشل فى قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، لا تعنى فشل القائد فى جميع أبعاد حركته السياسية. وقيادة صراع إقليمى من مستوى الصراع العربى ـ الإسرائيلى يفترض، وكما سوف نرى. من المقومات بما لا يعنى بالحتمية توفرها فى أى قائد يتصدى للتغيير فى المنطقة.

الحقيقة الثانية ـ أن فترة حكم عبد الناصر وقيادته للصراع، فترة غير قصيرة ولا يمكن أن تخضع لنفس القواعد. قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى عام 1956 ليست هى نفسها فى عام 1967 لأكثر من سبب واحد، ويكفى أن نتذكر أن الموقف الدولى أثناء العدوان الثلاثى، لم يكن هو الموقف الدولى عندما نشبت حرب الأيام الستّة ـ فى النموذج الأول، فإن واشنطن وموسكو كانتا فى حالة شبه اتفاق على ضرورة إخراج كل من «بريطانيا وفرنسا» من المنطقة، بينما فى النموذج الثانى، فإن الخلاف كان بين «واشنطن وموسكو»، وأن الأولى كانت تريد أن تزحزح الثانية من السيادة على المنطقة، هدف إسرائيل أيضاً لم يكن واحداً فى الأول لا تريد سوى انتزاع الشرعية الإقليمية، أما فى

الثانى فهى تريد خلق اختلال فى التوازن الإقليمى. أضف إلى ذلك: أن ناصر كان هو ونظامه قد تغير بين عام 1956 وعام 1967 لا يعنى التغيير المتقدم، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن عناصر الموقف لم تكن واحدة، وقد سبق وذكرنا أن أحد العناصر الأساسية فى إدارة الصراع هى خصائص الموقف الذى يتم التعامل معه.

الحقيقة الثالثة ـ وهى أنه علينا أيضاً أن نعترف بأن مصر لم يُقدَّر لها سيادة المنطقة منذ ما لا يقل عن ثلاثة قرون، بل ومنذ معركة عين جالوت، فإن مصر قد انطوت على نفسها ولم تفهم حقيقة وظيفتها فى المنطقة، ورغم أننا فى بعض الأحيان نقارن بين «محمد على» والزعيم المصرى الراحل. إلا أن هذه المقارنة ترتبط فقط بالتعامل مع الوظيفة الدولية لمصر، التى يفرضها واقعها الاستراتيجى، ولنتذكر أن وظيفة مصر الدولية ليست هى وظيفتها الإقليمية، ورغم الترابط بين كل منهما، إلا أن كلاً منهما تملك استقلالها المتميز. وظيفة مصر الإقليمية تعنى تلك الوظيفة الحضارية التى تجعل من مصر مصدراً لإشعاع معين فى منطقة الشرق الأوسط، يفرض عليها أن تقود المنطقة. الوظيفة الدولية تعنى أن موضع مصر يحتم عليها التعامل مع القوى العظمى، ومن ثم يفرض عليها أن تتبع ذلك السلوك الذى يحميها من محاولة السيطرة على مقدراتها، وهى لذلك لابد وأن تتحالف مع القوى الدولية الثانية التى تستطيع أن تحميها من القوة الدولية الأولى «محمد على» فهم ذلك فتعامل مع «فرنسا». «جمال عبد الناصر» بدوره كان واعياً بتلك الحقيقة، فوجه تعامله إلى الاتحاد السوفيتى.

والذى يعنينا فى هذه العجالة السريعة، يدور حول قيادة ناصر عقب هزيمة 1967، وكيف أدار الصراع خلال الأعوام الثلاثة التى سبقت وفاته فى سبتمبر 1970، ورغم ذلك فإنه لابد من أن نتعرض لموضوعين، قد يقودنا أى منهما إلى ما يخرج بنا عن موضوعنا، ولكنه فى الواقع عنصر أساسى فى فهم ـ بدقة وعملية ـ حقيقة ودلالة هذه الخبرة التاريخية.

ـ يجب أن نحدد أولا خصائص القيادة التى يطرحها «جمال عبد الناصر».

ـ وعلينا كذلك أن نفهم خصائص إدارة الصراع أثناء أزمة عام 1967.

ـ وأخيرا يجب أن نتتبع تطور المفاهيم الناصرية عقب هزيمة عام 1967، حتى وفاته.

ـ وقبل ذلك يتعين علينا أن نحدد حقيقة أزمة يونيو وحرب الأيام الستة، إن هذا سوف يساعدنا على فهم حقيقة الأطراف المتعاملة مع الصراع والدور الذى يجب أن تلعبه الإدارة المصرية فى تعاملها مع الموقف.

نستطيع أن نحدد خصائص تلك القيادة فى خمسة عناصر أساسية:

أولا ـ فعبد الناصر قبل حرب 1967، كما أنه عقب تلك الحرب أثبت قدرة غريبة على اتخاذ القرار، والتمسك به، بل وعدم التراجع عن تنفيذه مهما كان خاطئًا.

ثانيا ـ أثبت قدرة غريبة على التعامل مع الجماهير العربية. كانت هناك علاقة غريبة خفية ربطت بين الزعيم المصرى والمجتمع العربى فى جميع أجزاء هذا الوطن. لا شك أن الإخلاص والإيمان والتواضع السلوكى، كانت جميعها عوامل ميزت شخصية «عبد الناصر»، وخلقت التجاوب اللاشعورى مع المجتمع العربى، ولعل خصائص الموقف فى الوطن العربى خلال الفترة الأولى من حكم «عبد الناصر»، مما يفسر جزءًا من هذه الشعبية الجارفة، ولكن لا شك أن شخصية عبد الناصر والدور الذى قام به «صوت العرب»، وطبيعة المرحلة التى كانت تمر بها الأمة العربية، أسهم كل منها بشكل أو بآخر فى بلورة هذه الشعبية التى لم يعرفها حاكم آخر منذ عدة قرون.

ثالثا ـ كذلك فإن «جمال عبد الناصر» أثبت قدرة واضحة على التلاعب بالقوى السياسية، سواء فى الداخل أم فى الخارج ـ لا يعنى ذلك أنه يمثل النموذج الدبلوماسى، فقد كان يأنف المهادنة المخادعة، ولكنه كان إذا أراد استطاع، أن يُطوع القوى السياسية بعبارة واضحة، وقد بدا ذلك بصورة خاصة عقب هزيمة 1967، وبصفة خاصة فى مؤتمر «الخرطوم» لقد ذهب إلى «السودان» وهو مهزوم، وخرج منها وجميع القيادات العربية تقف خلفه، بما فى ذلك السعودية!! كذلك أثناء حرب الاستنزاف، استطاع بدبلوماسية واضحة توريط «موسكو» فى حرب القناة.

جمال عبد الناصر وحرب 1967:

رغم أن الوثائق الحقيقية عن حرب يونيو لا تزال تحيط تلك المأساة بغموض لا حدود له، وقد لا تنكشف الحقيقة إلا عقب أعوام كثيرة، إلا أننا يجب فى تحليلنا لهذه المأساة ـ بقصد اكتشاف الدلالة ـ لابد وأن نتسلح من جانب بالصبر، ومن جانب آخر بالشجاعة، ومهما قيل عن أخطاء «جمال عبد الناصر»، فإن النظرة العميقة لابد وأن تكتشف أن الهزيمة المصرية الساحقة كانت نتيجة مجموعة من المتغيرات، بعضها ينبع من أسلوب إدارة الصراع، وبعضها ينبع من متغيرات أخرى لا صلة لها بعملية إدارة الصراع.

هزيمة مصر عام 1967 كانت قد تقررت من جانب جميع القوى الدولية عقب الوحدة بين مصر وسوريا، وكما أن هذه الوحدة كان من الممكن أن تُحجِّم إسرائيل وتمنعها من أى اعتداء على أى من الدول العربية المحيطة بها، فإنها كان لابد وأن تقلق خصوم المنطقة وتعيد إلى الذهن قصة «محمد على»، أى قوة دولية لم يكن من مصلحتها أن ترى العالم العربى يسير نحو الوحدة. الترابط الحقيقى بين شمال إسرائيل وجنوبها، يعنى أن المخطط

الأوربى ذاته بإنشاء إسرائيل قد فشل. وذلك دون الحديث عن الرعب الذى أحاط بالقيادة الإسرائيلية، وقد وجدت نفسها محاطة بكماشة هائلة تضمها من الشمال والجنوب، فضلاً عن الغرب. الأحداث اللاحقة للوحدة كانت تؤكد هذا الخوف، فالتطور الوحدوى فى الأردن ـ بل وفى العراق ـ كان ينبئ بحركة عارمة نحو هذا الهدف. وهكذا تبلورت هذه الخطة التى أكدتها عقب ذلك أحداث اليمن، والتى تدور حول خمسة عناصر أساسية:

العنصر الأول ـ أن تتلقى مصر ضربة قوية، وأن تكون الضربة الأولى.

العنصر الثانى ـ أن تكون هذه الضربة من القوة، بحيث تخلق الشَّلَلَ الكامل فى الجسد المصرى.

العنصر الثالث ـ أن تكون الضربة ساحقة وسريعة، بحيث يختفى اسم «عبد الناصر» من المنطقة، بل وإلى الأبد، وأن يحل محل الحب والكبرياء لتجربته ولشخصيته فقط الكراهية.

العنصر الرابع ـ أن تكون الضربة فقط من الجانب الإسرائيلى، بحيث تبدو ضخامة هذه الضربة، وقد وجهتها دولة صغيرة لا قيمة لها فى نطاق التعامل الدولى.

العنصر الخامس ـ أن تكون خسائر إسرائيل فى أقل مستوى ممكن، وبصفة خاصة من الناحية البشرية.

لقد كانت حرب يونيو مؤامرة دولية، أُعِدّ لها منذ نهاية الستينات وسقط فيها القائد العملاق، وقد أحاطت به الذئاب من كل جانب، ومن بينها من خرج من الأرض العربية. إن الخطأ الحقيقى الذى وقع فيه «جمال عبد الناصر» فى إدارته للصراع هو أنه استهان بخصومه ولم يُعدّ نفسه لمواجهة هذه المعركة بكل إمكانياته. وقد كان الواجب عليه أن يعمل لهذا الهدف جاداً ـ وبصفة خاصة منذ الوحدة مع سوريا ـ وليس فقط منذ الانفصال.

الانفصال : هو الضربة الأولى فى هزيمة يونيو، ويتجلى هذا بصفة خاصة فى النواحى التالية:

أولا ـ أنه لم يغير الطاقم الذى كان يحيط به أثناء الوحدة مع سوريا. الفارس كان عليه أن يعلم أن الحصان الذى يمتطيه قد تجاوزته الأحداث، ولكل موقف رجاله. لم يكن حول عبد الناصر أثناء حرب يونيو سوى المجموعة التى لا تصلح لمواجهة أى موقف بطولى(1).

ثانيا ـ أنه كان عليه أن يُعد الإطار الدولى، منذ ذلك التاريخ لحركته ولصدامه مع

---

(1) لأنها مجموعة ـ كما وصفها الدكتور حامد ربيع ـ «قد ترهلت» وانشغلت بحياتها الدنيا؛ «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية» مصر والحرب القادمة ـ أ. د. حامد عبدالله ربيع ـ طبعة دار الوفاء، 1998.

إسرائيل، الحرب كانت قادمة لا محالة، فالقيادات فى «تل أبيب» ما كانت تستطيع أن تسمح لتجربة الوحدة بأن تتكرر، لتجد نفسها فى موقف المحاصر من جميع النواحى، ومن ثم كان على الرئيس المصرى أن يعد لذلك الإطار الدولى ما يأتى:

أ ـ إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة.

ب ـ تدعيم قنوات الاتصال مع القيادات الأوربية.

جـ ـ تقوية الروابط مع الاتحاد السوفيتى، إلى أقصى فاعلية، ولو من خلال التوريط فى عملية إدارة الصراع.

د ـ القيام بدعاية دولية واسعة النطاق ضد إسرائيل.

هـ ـ محاولة التسلل داخل إسرائيل بالتعامل مع قوى التفكك فى المجتمع الصهيونى.

ثالثا ـ كذلك فقد كان عليه أن يعيد تشكيل أولويات الأهداف القومية، لقد كانت سياسة «جمال عبد الناصر» تسير فى طرق ثلاث:

ـ التجديد الاشتراكى. ـ الوحدة العربية. ـ والصدام مع إسرائيل.

كان واجبه أن يترك الهدفين ـ الأول والثانى ـ ولو مؤقتًا، ويكتل جميع قواه فى العنصر الثالث. ويعنى ذلك كثيرًا من النتائج: تصفية حرب اليمن، تجنب معارك مع الحكام العرب ـ إرجاء ولو مؤقتًا كل ما له صلة بالعدالة الاشتراكية.

رابعا ـ كذلك فى إدارته للصراع، كان يجب عليه أن يتعامل مع الموقف بطريق التدرج. الذى حدث أنه انساق إلى مواقف صلبة جامدة لا يستطيع الخروج منها. اتخذ مواقف قاطعة لا رجعة فيها، وقد ظهر بذلك فى العديد من القرارات، نذكر بصفة خاصة موقفه من إسرائيل عندما أعلنت أنها تعتبر إقفال مضيق «تيران» بمثابة إعلان للحرب، كذلك عندما طالب الأمم المتحدة بسحب قواتها من الأراضى المصرية. ولعل هذه المواقف المتشددة كان مردها أنه لم يفهم بوضوح كيف أن القوى الدولية ـ وليست فقط إسرائيل ـ كانت تدفعه إلى موقف الصدام العضوى ـ بأسلوب معين ـ والذى تجلى فى أمور عديدة تستطيع العين الفاحصة اليوم على مَبْعَده عشرين عامًا أن تلمسها:

أ ـ سبق أن ذكرنا إعلان الجنرال «ديجول» الذى كان فى صالح إسرائيل، أكثر منه فى صالح الجانب العربى من حيث الواقع.

ب ـ تظاهر الولايات المتحدة بأن كل ما يعنيها هو فتح خليج العقبة أمام الملاحة الدولية، وأن هذا هو كل ما يعنيها من الموضوع، ورغم أنها أعدت خطة الحرب بالاشتراك مع القيادة الإسرائيلية، بل وصل الأمر فى عملية التمويه بأنها كانت توهم بأنها تقف خلف

إسرائيل لتمنعها من شن الحرب.

خامسا ـ أن «جمال عبد الناصر» وهو يدير صراعًا متعدد الدوائر، كان يجب أن يعلم وأن يدخل فى اعتباره حقيقة السياسة الأمريكية ـ وبصفة خاصة عقب مجيء «جونسون». لم يكن هذا الأخير فى خصائصه الشخصية ولا فى إدارته السياسية تكرارًا لـ «كنيدى». أولويات السياسة الأمريكية فى تلك الفترة كانت بالترتيب التالى:

- فيتنام. ـ العلاقات السوفيتية.
- الصين. ـ وأخيرًا الشرق الأوسط.

وكان عليه ـ ليس فقط أن يفهم هذا الترتيب ـ بل أن يدرك أنه والولايات المتحدة فى حالة هزيمة أو فشل فى فيتنام، لن تسمح لنفسها بفشل آخر فى الشرق الأوسط، أو بعبارة أخرى: أن حدود حرية الحركة فى هذه المنطقة محدودة، ليس فقط لخطورة المنطقة وما تعنيه من احتمالات المواجهة مع الاتحاد السوفيتى، بل ولأن الولايات المتحدة ما كانت تسمح لنفسها بهزيمة جديدة فى تلك المنطقة، أى ميدان آخر للتورط فى قتال يماثل ما هو قائم فى فيتنام.

وقد كان يعنى ذلك ضرورة بناء خطة واضحة مُقننة متعددة المراحل، للتعامل مع أزمة الشرق الأوسط، وهو أمر لم يحدث عقب حرب 1967. نضج «جمال عبد الناصر»، واكتملت نظرته الحقيقية للصراع العربى ـ الإسرائيلى، لقد فهم عقب قرابة خمسة عشر عامًا حقيقة هذا الصراع، واتضحت فى ذهنه الرؤية ـ لتعكس فهمًا واعيًا. مفهوم «عبدالناصر» تحدد منذ ذلك التاريخ فى عناصر خمسة:

أولا ـ هو صراع كلى شامل، إنه ليس مجرد نزاع حدودى، أو مشكلة الاستيلاء على قطعة من الأرض، إنه صراع مصيرى يجب أن ينبثق باستئصال إسرائيل من المنطقة، وهو بهذا المعنى صراع متعدد الدوائر، ولكن قلبه الحقيقى هو المشكلة الفلسطينية، بما يعنيه ذلك من انتزاع الأرض العربية، وإضفاء شرعية يهودية على تلك الأرض.

ثانيا ـ رغم ذلك، فإن هذا الصراع ينطلق فقط من القدرة المصرية، وأساسًا من الفاعلية المصرية. الحديث عن التضامن العربى هو لغة سياسية وليست لغة قتال.

حرب الاستنزاف التى كانت بداية الهزيمة الحقيقية لإسرائيل، لم يشترك فيها جندى واحد غير مصرى.

ثالثا ـ العنصر الثالث وهو الإيمان بأن الحرب مع إسرائيل لا يمكن إلا أن تكون حربًا طويلة الأمد. هذا العنصر الذى كانت قد طرحته قبل ذلك القيادة السوفيتية، والذى لم تكن قد آمنت به العقلية العسكرية المصرية السائدة حتى حرب 1967 اختفى كلية من إدراك

«عبد الناصر»، وفهم بصراحة ووضوح، كيف أن القضاء على إسرائيل لن يكون إلا من خلال حروب متتابعة ومعارك متتالية.

رابعا ـ كذلك نجد «جمال عبد الناصر»، ولأول مرة قد بدأ يؤمن حقيقةً بأهمية التعامل مع الإطار الدولى، والدور الذى تستطيع مصر أن تلعبه بذلك الخصوص، سواء لعزل إسرائيل أو التأثير فى قوى الرأى العام الدولى، أو جذب القوى الدولية للتعاطف مع مصر، وفى هذه الناحية نلحظ بوضوح مدى التحول الذى طرأ على عقلية «جمال عبد الناصر» عقب حرب الأيام الستة.

خامسا ـ ضرورة التعامل مع إسرائيل من الداخل، قبل حرب يونيو، لم يكن أحد يعرف شيئًا عما يحدث فى إسرائيل، بل إن أساتذة أجلاء حُبِسُوا أو هُدِّدُوا لمجرد أنهم ذكروا بعض الحقائق عن إسرائيل فى محاضراتهم الجامعية. عقب ذلك انفتح الذهن القيادى المصرى على الرغبة فى المعرفة وجمع المعلومات عن حقيقة إسرائيل، وقد برز هذا فى أكثر من مجال واحد، ورغم أنه بدأ أكثر من مجال واحد، ورغم أنه بدأ بداية متواضعة ولا يزال كذلك حتى اليوم. وهذه الخصائص للإدراك الناصرى برزت واضحة فى حرب الاستنزاف، ثم فيما تلاها من أحداث. ولنتذكر مبادرة «روجرز» وقصة الخلاف الأردنى الفلسطينى[1] الذى أنهى حياة الزعيم المصرى. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه لو قدرت له الحياة لكانت قد تغيرت إدارته للصراع العربى ـ الإسرائيلى، بل ويمكن القول دون مبالغة: إن معركة أكتوبر هى معركة ناصرية[2]، بقدر كونها معركة ساداتية، تُرى هل لهذا وُضعت خطة لإنهاء حياة الزعيم، قبل أن يصير إعصارًا يُخلص المنطقة من الكابوس الصهيونى؟

أسئلة تتدافع ولكن المؤرخ يقف أمامها عاجزا».

---

(1) هذا الخلاف راح ضحيته حوالى 25000 قتيل فلسطينى فى مذابح أيلول الأسود!!

(2) قالها الرئيس السادات فى إحدى خطبه فى انتصارات أكتوبر أو العاشر من رمضان قال: «بأن خطة العاشر من رمضان أنا أخرجتها من درج عبد الناصر».

المحور الثانى

نموذج الإدارة فى عهد الرئيس السادات

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«متابعة نموذج إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى قبل هزيمة يونيه 1967 يلاحظ بوضوح، أن القيادة المصرية حركياً وفكرياً، لم تستطع أن تفهم طبيعة هذا الصراع، ولم تعرف كيف تخطط للتعامل معه. وهى لا تزال كذلك إلى حد معين حتى هذه اللحظة. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن هذه القيادة فى أعقاب حرب الأيام الستة بدأت تقترب من المفهوم، وتدرك أن التعامل مع هذه الظاهرة ليس بتلك البساطة. يجب أن نعترف أن التعامل مع المشاكل الدولية سيطرت عليه الهواية، وليس الاحتراف ـ وهو لا يزال يخضع فى قسط كبير لذلك الواقع. إن أول درس تعلمته القيادة أن إدارة الصراع ليس هو عملية صنع القرار، كذلك فإن الصراع يتكون من أزمات متعددة ومتتابعة. يجب أن يكون واضحاً فى التفرقة بين القرار، والأزمة، وإدارة الصراع. وإذا كانت هذه الكليات الثلاث تتداخل، فإن كلاً منها يملك استقلاله التام.

ولعل هذا يرتبط بسؤال هام: ما هى العناصر اللازم توافرها فى السياسة الخارجية حتى يُقدر لها النجاح؟

السياسة الخارجية لتنجح، لابد أن تتوفر فى إدارتها خمسة شروط أساسية:

الأول ـ وضوح الأهداف وترتيبها.

الثانى ـ الإعداد الجيد للإدارة الدبلوماسية.

الثالث ـ أن تستعين الأداة الدبلوماسية بالأدوات التكنولوجية المتقدمة، سواء فى جمع المعلومات، أو فى إدارة المرفق الدبلوماسى فى موقع نشاطه.

الرابع ـ أن تنطلق السياسة الخارجية من مبدأ التخطيط المتدرج.

الخامس ـ أن تتقن وزارة الخارجية فن توزيع الأدوار من جانب، والإخراج المسرحى من جانب آخر.

هذه الشروط هى الحد الأدنى لتنظيم مرفق العمل الدبلوماسى.

فالأهداف يجب أن تكون واضحة، وهذه هى السياسة القومية، ووظيفة القائد القومى.

والموضوع يعنى تحديداً من جانب، وترتيباً تصاعدياً من جانب آخر، وإبرازاً بدقة

للبدائل لكل هدف من تلك الأهداف، والإعداد يعنى ليس فقط دراسة مسبقة، بل واختيار مَرّده القدرات الذاتية، ثم تدريب متتابع.

الدبلوماسى اليوم ليس رجل الصالونات، بل هو مقاتل وحيد فى بلد الأغراب، كما يقول الفقه الصهيونى. الأداة الدبلوماسية يجب أن تستعين بجميع ما قدمه العلم والتكنولوجيا من منجزات ـ وبصفة خاصة جمع وتخزين المعلومات مع القدرة الفائقة على تحليلها ـ والتنبؤ من خلالها بالحركة المعادية.

من المعروف أن وزارة الخارجية الأمريكية، تنبأت بالحرب العالمية الثانية قبل وقوعها بأسبوعين، بينما جميع القوى الدولية الأخرى ـ بما فى ذلك الدول المجاورة لألمانيا ـ فوجئت بالقتال، ومرد ذلك فقط هو استخدام هذه الوسائل العلمية، حدث ذلك منذ قرابة خمسين عامًا، فلنتصور ما يمكن أن يقدم التقدم التكنولوجى اليوم للسياسة الخارجية؛ كذلك فإن السياسة الخارجية لم تعد تعرف العشوائية، ولا السلوك غير المخطط. التخطيط فى السياسة الخارجية وصل إلى درجة من التقدم والتخصيص، حتى أن الكلمة التى تصدر من المسئول يجب أن يُعد لها، ليس فقط من حيث صياغتها، بل ولحظة صدورها. إن تصريحًا يصدر يوم الأحد، ليس مثل ذلك الذى يصدر صباح الإثنين ووظيفته تختلف؛ لأن الأحد عطلة تعوَّد الإعلام أن يجعلها فترة استرخاء؛ ولذلك مثل هذا التصريح يصير بمثابة بالون اختبار؛ ولذلك فإن وزارة **الخارجية هى مجموعة مراكز بحوث**، وليست إدارات معتادة. وأخيرًا وليس آخرًا، فالسياسة الخارجية اليوم تقوم على مبدأ توزيع الأدوار، وقد ارتبط ذلك بعملية الإخراج المسرحى، وبصفة خاصة تبرز هذه الصفة فى السياسة الخارجية للدول الكبرى التى تسعى لاختراق إطار المجتمع الدولى لصالحها. كل سياسة تريد أن تصير فاعلة فى خارج حدودها، ويجب أن تتعلم ذلك إخراجًا مسرحيًا من جانب، وتوزيع أدوار من جانب آخر. جميع هذه الخصائص لم تعرفها السياسة العربية، إلا مع الرئيس السادات لسنا فى مجال الدفاع أو الهجوم على السياسة الساداتية، نحن فى محاولة لفهم حقيقة تلك السياسة، من حيث إدارتها للصراع لاكتشاف عناصر الضعف، ولكن أيضًا لنلتمس نواحى القوة؛ لنستطيع أن ننتفع بالخبرة ودلالة تلك الخبرة. وسوف تكتمل تلك الدلالة.

نموذج السادات فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

أولا ـ فالمعلومات غير كافية، وسوف تظل كذلك إلى فترة غير قصيرة، ولا يجوز أن يخدعنا بهذا الخصوص كثرة ما كُتب ونُشر عن حرب رمضان، ويكفى أن نتصور أن نقص

هذه المعلومات وصل إلى حد التساؤل عن حقيقة الدور الذى لعبه «كيسنجر»، هل هو لصالح إسرائيل أم فقط لصالح الولايات المتحدة، حتى أن البعض يصل به الأمر إلى القول بأن الولايات المتحدة انتقلت فى أثناء الحرب من صديق لإسرائيل إلى صديق للعرب.

ثانيا ـ الناحية الثانية التى تخلق هذه الصعوبة، هو تطور «السادات» خلال الصراع. فهو نجح نجاحًا حقيقيًا خلال الفترة الممتدة حتى حرب أكتوبر، ولكنه فشل فشلاً كاملاً خلال الفترة التى تبدأ من زيارة القدس حتى مقتله. أليس هو نفس الشخص فى الصراع فى كلا المرحلتين؟ بل إن موقفه فى المرحلة الناجحة، أين «كيسنجر» ببراعته فى المرحلة الأولى من «كارتر» فى المرحلة الأخيرة، وأين إسرائيل الناجحة فى نهاية حرب أكتوبر من إسرائيل المترددة المضطربة فى المرحلة الأخيرة؟ فكيف نفسر هذا التناقض؟

ثالثا ـ كذلك الناحية الثالثة، وهى المقارنة الطبيعية واللاشعورية بين المرحلتين. «جمال عبد الناصر» رغم الهزيمة الساحقة ظل حتى نهاية حياته شامخًا عالى الرأس، أما السادات منذ نهاية الحرب بدأ عمليات المناورة التى لم يفهمها رجل الشارع إلا على أنها تنازلات كانت تعنى حقيقتها ضربات ساحقة للكبرياء المصرى والعربى.

رغم ذلك فعلينا أن نغوص فى أعماق هذا النموذج، نكتشف خباياه، وليس لنا من ذلك سوى هدف واحد: أن نفهم دلالته ونحن نخطط لمرحلة جديدة من التعامل مع مشكلة الشرق الأوسط.

مما لا شك فيه أن التعرض لنموذج السادات فى إدارة الصراع، يفرض العديد من الملاحظات، بل ومن الصعوبات التى يستحيل تخطِّيها فى الوقت الحاضر، ليس فقط بسبب نقص المعلومات الحقيقية، ولكن أيضًا بسبب التطور الخطير الذى أصاب إدارة «السادات» فى صراعه من النجاح الحقيقى إلى الفشل الحقيقى. هذا من جانب، ومن جانب آخر بسبب المقارنة اللاشعورية بين نموذج «جمال عبد الناصر» ونموذج «السادات»: فلنبدأ بأن نحدد هذه المتغيرات:

أ ـ الرئيس «السادات» هو استمرار لشخصية «عبد الناصر». المدركات التى انطلق منها الرئيس السادات ـ خلال الفترة الممتدة حتى حرب أكتوبر ـ هى استمرارية لمفاهيم «عبد الناصر». وذلك رغم أنه هناك خلاف جوهرى فى شخصية «السادات» لو قورنت بشخصية «عبد الناصر». وقد برز هذا الخلاف واضحًا عقب حرب أكتوبر ـ وبصفة خاصة قبل وبعد زيارة الرئيس «السادات» لمدينة القدس. فالرئيس «عبد الناصر» ـ كما سوف نرى فيما بعد ـ هو زعيم مؤمن باختياره الإلهى. أما «السادات» فهو حاكم جاءت إليه السلطة عن طريق المصادفة ويريد أن يتمسك بتلك السلطة لأكبر فترة ممكنة. الأول يعنيه أساسًا حركة المجتمع الذى يقوده ويسير على رأسه. الثانى لا يعنيه إلا نفسه ولا يفكر فى

غيره بأى معنى من المعانى، كبرياؤه الذاتى هو الذى يسيطر على سلوكياته «عبد الناصر» لا يسيطر عليه سوى كبرياؤه القومى.

ب - الرئيس «السادات» كذلك قد تطور خلال رئاسته للدولة فى مدركاته وفى إدارته للصراع العربى - الإسرائيلى. فهو عقب زيارته للقدس ليس هو قبل حرب أكتوبر. شخصية الرئيس «السادات» خضعت لتطورات عنيفة يجب أن تكون واضحة فى الذهن، ونحن نحاول فهم فلسفته وأسلوبه فى إدارة الصراع، ساعد على ذلك طبيعته الشخصية، فهى ليست متماسكة، وهى من السهل تطويعها، وهى تتميز بالالتواء وعدم الوضوح.

الفارق الأساسى بين «السادات» والرئيس «جمال عبد الناصر» ينبع من نقطتين أساسيتين:

الأولى شخصية كل منهما، «جمال عبد الناصر» كان زعيمًا وذئبًا، أما «السادات» فهو رجل دولة وثعلب. من هنا تنبع جميع الفوارق.

«عبدالناصر» كان يعتقد بأنه مختار من العناية الإلهية، ليقود العالم العربى وهو مندفع، تشده أصوات الجماهير إذا أقبل على خصمه، فبصدره يتلقى اللطمات، ولا تعنيه الكدمات. يتقدم للمعركة، والدماء تسيل من جميع أجزاء جسده دون تردد ودون خوف، لا تبرز خصائصه حقيقة إلا فى المواقف الصعبة.

أما السادات فقد كان على خلاف ذلك، فهو يتظاهر بالموت حتى يتمكن من عدوه ويقتله دون أى مخاطر، محترف فى خلق القلاقل، يهاب المواقف المعقدة، ويهرب منها إلى الطريق السهل، وهو يعشق الحياة التى ظلت ممتنعة عليه طيلة حياته السابقة على الرئاسة، ويعيش فقط من أجلها. هذا الخلاف لم يتضح فى بداية حكم الرئيس «السادات». حياته بالقرب من الرئيس «عبد الناصر» خلال أعوام ثلاثة سابقة على موت الزعيم المصرى مع شخصية ضعيفة تسودها عقدة الإسفاف، جعلت شخصيته صورة ممسوخة للرئيس «عبد الناصر».

وهكذا فى بداية حكمه تقمص بلا وعى تلك الشخصية، وسار على دربها، ولكنه تدريجيًا مع ممارسة الحكم بدأ يبتعد عن خصائص سلفه، ليتصف بخصائص جديدة فى إدراكه للصراع العربى - الإسرائيلى. ضعف شخصيته سمح لعناصر أخرى داخلية وخارجية محيطة به أن تعيد تشكيل إدراكه وتوجهه فى الطريق الذى يريد. وبصفة خاصة عقب الثغرة أصابته صدمة عنيفة، فرضت على شخصيته التهلهل. وظلت هذه العملية - التهلهل - فى شخصيته والتسلل للإمساك بتلابيب تلك الشخصية منذ حرب أكتوبر فى ارتفاع مستمر، حتى وصلت إلى قمتها مع زيارته للقدس.

قبل أن نُفصّل ذلك ونتائجه - فى إدارته للصراع العربى - الإسرائيلى - فلنتذكر

الخصائص العامة لإدراكه لحقيقة الصراع، والتى بدت واضحة عقب اتفاقية فك الاشتباك الثانى، والتى لم تكن سوى أفكار زرعت فى رأسه نتيجة عملية غسيل المخ، واسعة النطاق، بدأت مع زيارة «كيسنجر» لمصر أثناء حرب رمضان:

أولا ـ فهو يؤمن بأن الصراع العربى ـ الإسرائيلى هو صراع طويل الأجل. إنه صراع أجيال، هذا المفهوم قد سبق وآمن به «جمال عبد الناصر»، ولكن السادات أضاف أن هذا الصراع لن ينتهى بمعركة أو عدة معارك، وهو لن يغير فى مدخلاته مرحلة تهدئة واسترخاء تسمح باسترداد النفس. إن جيلنا قد دفع الكثير وآن له أن يستريح قليلاً ليترك مهمة هذا الصراع للأجيال القادمة.

ثانيا ـ ولكن هذا لا يمنع من ضرورة تحريك القضية، وعدم ترك هذه القضية تتجمد. على العكس إن فترة الاسترخاء تفرض علينا أن ندفع القضية لأن تبرز على السطح بجميع الوسائل الممكنة والمتاحة. وهذا بدوره ـ أى ضرورة تحريك القضية ـ مفهوم ناصرى. ولكن ناصر كان يرى التحريك أسلوبه الوحيد ـ القتال ـ حتى ولو كان لمجرد أن يجعل الخصم لا يستطيع الجلوس على مقعد النصر.

السادات اعتقد أن عدم تجميد القضية لا يعنى فقط القتال. هناك أدوات أخرى لا تقل فاعلية، ومنها الأداة الدبلوماسية.

ثالثا ـ العنصر الثالث وهو أن القضية هى بالأساس قضية مصرية إسرائيلية. وهنا تبدو عملية الانزلاق فى الفكر الناصرى. فـ «جمال عبد الناصر» لم يكن يرى فى الصراع فقط صداماً بين مصر وإسرائيل، ولكنه عقب حرب يونيه آمن بأن عليه أن يعتمد فقط على القدرة المصرية. الرئيس «السادات» طوّر هذا المفهوم الناصرى ليصل إلى القول بأن القوى العربية ليست صالحة، ولا قادرة، بل وليست راغبة فى عملية المواجهة. ولعل أحد عناصر خلق هذه القناعة، عندما تخلت ليبيا عن تقديم البترول إلى القوات البحرية المصرية لغلق باب المندب، ولم تتردد طهران فى أن تقدم تلك المساعدة.

رابعا ـ العنصر الرابع فى إدراك السادات، أن العدو الحقيقى لمصر وللعالم العربى هو الصهيونية الأمريكية. ليست إسرائيل سوى أداة تنفذ إرادة عدو أكثر قوة وأكثر فاعلية. وقد آن الأوان لمواجهة هذا العدو الحقيقى، الذى يستتر خلف إسرائيل. وهنا يبدو الفارق الحقيقى بين الإدراك الناصرى والساداتى. لقد كان «جمال عبد الناصر» لا يرى سوى إسرائيل، ولا يعنيه كل ما يتصل بالصهيونية البعيدة عن حدوده الشرقية بآلاف الأميال. كلا الفلسفتين موضع نظر. فإسرائيل هى العدو المباشر ولكن الصهيونية من خلفها تمدها بالطاقة، وتسمح لها بالفاعلية، للتعامل مع إسرائيل لا يجب أن ينسينا الصهيونية. كذلك

فإن منازلة الصهيونية هى أيضًا من خلال قطع رأس الأفعى التى تسربت واستقرت فى داخل منزلنا.

خامسا ـ وقد كانت هذه القناعة مصدرًا ومبررًا لقناعة أخرى لدى «السادات» وهى ضرورة سحب الوظيفة الإقليمية من القيادة الإسرائيلية. هذه الوظيفة هى التى تخلق علاقة التجاذب بين «تل أبيب وواشنطن» على مصر أن تستغل خصائصها الديموجرافية والحضارية وموقعها الاستراتيجى فى أن تؤدى نفس الوظيفة التى تؤديها «تل أبيب» لصالح واشنطن، ومن ثم يتم تحييد الدبلوماسية الأمريكية. وهنا وقع الرئيس «السادات» فى أكثر من خطأ واحد:

أ ـ فإسرائيل تؤدى وظيفة الدولة الحارس، أى أداة للتحكم فى دول المنطقة، أما وظيفة مصر الحقيقية، فهى الدولة القائد، أى تكتيل دول المنطقة ضد أى تدخل أجنبى.

ب ـ أن إسرائيل تستند إلى أقلية مزدهرة فى المجتمع الأمريكى، بحيث تعتبر استمرارًا لتلك الأقلية فى خارج الولايات المتحدة، وهو أمر لا تستطيع أن تزعمه مصر.

جـ ـ أن سياسة «واشنطن» أساسها الجمع بين الأداتين، أى بين إسرائيل ومصر ـ بل وبإضافة السعودية، وليس «استبعاد» أداة لحساب أداة أخرى.

سادسا ـ ويرتبط بذلك ويقود إليه مفهوم التعامل مع إسرائيل من الداخل. إسرائيل كيان يعانى من الكثير من عناصر التحلل، ويجب أن يتم استغلال ذلك لإضعاف ذلك الجسد، بحيث يكون كيانًا لا يستطيع أن يقاوم ضربة قوية تأتى من الخارج، أول من صاغ هذا المفهوم بطريقة واقعية، كان «هتلر»، الذى ابتدع فكرة الطابور الخامس. ولكن التأصيل العلمى كان من حظ «كيسنجر»، وقد استخدمه سواء فى تعامله مع الاتحاد «السوفيتى»، أو «الصين»، والواقع أن هذا الإدراك انطلق من المفهوم الناصرى، عقب حرب 1967، والذى كان أساسه الرغبة فى العلم الكامل بحقيقة وخصائص الكيان الصهيونى، ولكن «جمال عبد الناصر» كان يعتمد أساسًا على جهاز المخابرات ـ وهو غير كاف ـ بل وقد يشوه الحقيقة مهما دقت أدوات جهاز المخابرات؛ لأن معلوماته دائمًا شخصية يسودها عنصر العاطفة، وعلى كلٍ هى غير كافية. الرئيس «السادات» طَعَّم مفهوم «عبد الناصر» بمفاهيم «كيسنجر» التى أساسها إضعاف الجسد من الداخل، قبل أى منازلة دولية، ولكن هذا بدوره يفترض بناء الجهاز القادر والصالح لهذه العملية، وهو أمر لم يتم حتى هذه اللحظة، بحيث إن إسرائيل استطاعت أن تتغلغل فى الجسد المصرى، لتنتزع منه عناصر القوة، بينما مصر لم تستطع حتى أن تصل إلى معلومات دقيقة عن حقيقة الجسد الإسرائيلى.

سابعا ـ ويكمل ذلك عنصر سابع وأخير، وأساسه أن العالم المتقدم الأوربى الغربى،

وكذلك العالم الأمريكى، به قوى مؤيدة ومتعاطفة مع القضية العربية، ولكن هذا الجانب ـ أى الجانب العربى ـ لم يعرف كيف يتعامل معها، تارة بسبب عدم الصلاحية، وتارة بسبب عُقَدَ النقص المتراكمة، وقد آن لهذا العالم ـ وبصفة خاصة مصر ـ أن تطرح جانبًا ذلك التراث من النقص وعدم القدرة، لتستغل جميع إمكانياتها. وهذا صحيح، فهناك قوى عديدة تقف من القضية العربية موقف العطف ـ إن لم يكن موقف الاتحاد فى المصالح. فلنتذكر على سبيل المثال الشركات البترولية من جانب، والقوى المرتبطة بزراعة وتصدير القطن من جانب ثان، بل الدوائر المسؤولة فى البحرية الأمريكية، وفى نفس وزارة الخارجية فى واشنطن. ولكن الذى حدث أن هذه القوى من جانب أضعف من أن تواجه الصهيونية الأمريكية، ومن جانب آخر لم تجد المساندة والمؤازرة العربية الحقيقية لتتصدى لخصوم هذا التوجه نحو القضية العربية، ولو بالنظرة المحايدة. ولكن هل تغيرت أساليب التعامل العربى؟ لا يزال العالم العربى ـ بما فيه مصر ـ غير واع بكيفية ذلك التعامل وأساليبه، وهو لا يزال يتصور أن ابتسامة فى حفل عشاء تعنى أن القضية العربية قد كسبت أنصارًا».



المحور الثالث

تقويم النموذجين جمال عبد الناصر وأنور السادات في إدارة الصراع العربي ـ الإسرائيلي

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«مرة أخرى نُذكر القارئ أننا لا نريد سوى أن نستخلص الدلالات الحقيقية بحذر وموضوعية، الأمر الذى لا شك فيه أن كلاً من «جمال عبد الناصر وأنور السادات» قد فشلا. الأول اختفى وخُمْس بلاده محتلٌ، وهيبة مصر قد مُرِّغت فى الأوحال، والثانى «أنور السادات» غادر الساحة مقتول من أبنائه، مرفوض من شعبه. وهو فى حقيقة الأمر لم يعرف كيف يستغل انتصاراً حقيقياً قدمه له جيشه. قد يبدو لأول وهلة أن فشل «عبد الناصر» كان أكثر خطورة، ولكن الواقع أننا يجب أن نعترف بحقيقتين يبرزهما التحليل المحايد:

الأولى ـ أن هناك استمرارية خفية بين «جمال عبد الناصر والسادات»، ورغم الاختلاف الواضح فى شخصية كلاً منهما، مرده الحقيقى عدم فهم أيًا منهما لحقيقة الإطار الدولى والإقليمى للتعامل. لقد سبق ورأينا كيف أن ضعف شخصية «السادات» وقوة شخصية «عبد الناصر» مكنت هذا الأخير من أن يظل حاضراً فى الساحة ـ أيضاً عقب موته ـ وظلت هامته مسيطرة على الموقف حتى حرب أكتوبر. المنتصر الحقيقى فى حرب أكتوبر كان أيضًا «جمال عبد الناصر»، بل إن «عبد الناصر» وهو ميت أكثر خطورة منه فى أثناء حياته.

الثانية ـ أن فشل «السادات» فى إدارة الصراع يبرز واضحًا فى أثناء حرب أكتوبر، فهو فَشِلَ عسكريًا فى هذه الحرب؛ لأنه لم يفهم التفرقة الضرورية والحاسمة بين الإجابة على السؤال: **متى يجب أن نحارب**؟ والسؤال الآخر: **كيف يجب أن نحارب**؟ وإذا كان الأول «عبد الناصر» يُدخل كل اختصاصه كرئيس للدولة، فقد كان عليه أن يفهم أن الإجابة على السؤال الثانى والتعامل معها هى فقط من اختصاص القيادة العسكرية. ولعل أخطر ما يعنينا بهذا الخصوص أن المخطط لحرب أكتوبر لم يُعِدّ عُدّته لا لاستغلال النصر، ولا لاستيعاب الهزيمة. وهذه مسؤولية القيادة السياسية والقيادة العسكرية. كذلك هو فَشِلَ سياسيًا عقب حرب أكتوبر عندما لم يعرف كيف التعامل الدبلوماسى مع الأطراف المتشابكة فى إدارة الصراع. فهو برز متهالكًا على أمريكا من جانب، ومعلنًا حدود قوته

فى علاقته بإسرائيل من جانب آخر. الفشل العسكرى أعقبه فشل سياسى، هذا لا يمنع من أنه حقق نجاحًا عسكريًا وسياسيًا فى آن واحد. علينا أن نبرزه لنفهم دلالته ومعناه.

فلنتابع هذه النقاط بشىء من التفصيل:

«جمال عبد الناصر» فشل حتى عام 1967 فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى بسبب أساسى، وهو استهانته بخصومه. أول عناصر القيادة هى: أن القائد يجب ألا يستهين بمن ينازله، وألا يستهين بالمواقف التى يخلقها عدوه. «جمال عبد الناصر» حتى حرب الأيام الستة اعتقد بقدراته، ولم يحترم لا قدرات خصومه؛ ولا ضرورة الحاجة إلى الخبراء المخلصين. شخصيته لم تؤمن بذلك. ولكن ما هو أخطر هو أنه لم يكن على استعداد لأن يتقبل النصيحة. أحاط نفسه بمجموعة من الغلمان يعبدون شخصه ويسبحون بحمده. وليته كان عن قناعة، بل كان فقط ينبع من متغير المصلحة الشخصية. لم ير بالعين الثاقبة ـ التى كان يملكها ـ كيف أن خيوط الموقف فى المنطقة كانت قد بدأت تفلت من يده. هزيمة «عبد الناصر» الحقيقية كانت فى سبتمبر عام 1961 عندما حدث الانفصال مع سوريا؛ لأنه منذ ذلك التاريخ بدا العد العكسى لغير صالحه من جانب، والتصلب الغربى لاستئصاله من المنطقة، وليس فقط الإسرائيلى دون وعى حقيقى من جانب القيادة المصرية بذلك. بل ويمكن القول بشىء من الحياد: وجدت أيضًا قيادات عربية توافقت فى أهدافها مع القيادات الغربية والإسرائيلية بذلك الخصوص، ولنفصل ذلك:

الانفصال بين مصر وسوريا كان يعنى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى ـ فض الحصار الذى أحاط إسرائيل من الشمال والجنوب، وهو أمر فى غاية الخطورة والأهمية فى أى صدِام مع «تل أبيب» بصفة خاصة قبل عام 1967. قيادة موحدة بين دمشق والقاهرة نعنى:

أ ـ قدرة صلْبة تفرض على جميع القوى الأخرى فى المنطقة الانصياع لمصر ـ بغداد، عمان، الرياض ما كانت تستطيع أن تناوئ القاهرة.

ب ـ أن هذا يعنى كماشة ضخمة ـ تخضع لإرادة واحدة ـ تحيط بإسرائيل من الشمال والجنوب. ضرب العالم العربى فى تلك الفترة من جانب إسرائيل، أمر كان صعب المنال، بل وكان من المستحيل تصوره.

الحقيقة الثانية ـ كذلك فإن هذا الانفصال يزيد من قناعة القوى المعادية بضرورة ضرب مصر وإضعاف نظامها. وحدة مصر مع سوريا تعيد للذهن فتوح «محمد على» وكيف قادت إلى تصميم الحكومة البريطانية على تحجيم «محمد على» وإخراجه من القوى الدولية المتحكمة فى منطقة الشرق الأوسط، بل إنه منذ **ذلك التاريخ يبدأ التفكير الحقيقى فى إنشاء إسرائيل لمنع مصر من تجاوز شبه جزيرة سيناء.**

الحقيقة الثالثة ـ فشل الإدارة المصرية فى التعامل مع البلاد العربية، وهناك فارق جوهرى بين تعامل الإدارة المصرية مع البلاد العربية وسياسة مصر الخارجية. والغريب أن نفس الظاهرة تكررت قبل ذلك ـ أثناء حكم «محمد على»، وذلك رغم أن العلاقة الإقليمية بين مصر والشام كانت مستمرة، ولم يكن هناك انفصال إقليمى بين مصر وسوريا، كما كان الأمر مع «جمال عبد الناصر»، الأمر الذى كان يَفْرض على مصر أن تكون أكثر حساسية. الواقع أن خبرة الكاتب الشخصية أثناء الوحدة بين مصر وسوريا تؤكد أن الفرقة كانت مسؤولية الجانبين ـ الإدارة المصرية وقد أصابها الغرور، والقوى السورية وقد وقفت تتصيد الأخطاء. النتيجة هى التى تعنينا وهى أن مصر الثورية لم تكن صالحة لتطويع القوى السياسية فى سوريا، رغم الفرصة الذهبية التى أتيحت لها.

«جمال عبد النا صر» لم يفهم هذه الحقائق !!

فسياسة مصر الخارجية ـ عقب الانفصال ـ كانت استفزازية عنيفة تدل على عدم احترام القوى الدولية. لم يمض عام دون قطيعة مع إحدى الدول الكبرى. وهو قد ترك تلك القيادة الفاشلة أثناء الوحدة تسيطر على القدرات المصرية. وهو ورَّط مصر فى اليمن ودون إدراك حقيقى بأبعاد القوى التى سوف يتعين عليه الصدام بها، وهو قد أفسد علاقته بجميع القوى الحقيقية القادرة على مساندته فى معركته القادمة.

ولنحدد الأخطاء بدقة وو ضوح :

أ ـ لم يحاول تنظيف إدارته ـ وهو فى طريقه إلى القتال مع إسرائيل ـ فى حرب كلية شاملة، مستفيدا بنتائج وخبرة فشله فى سوريا، وقبل ذلك بقصة حرب 1956.

ب ـ وهو فتح جبهات جديدة لا صلة لها بالمعركة الحقيقية ـ وبصفة خا صة فى اليمن ـ بل ونزل إلى ميدان المعركة وقواته الحقيقية تبعد عن هذا الميدان آلاف الأميال، وكان من الممكن أن تستأ صل بحريا أثناء عودتها من اليمن إلى مصر ـ عقب هزيمة القوات المصرية فى سيناء ـ ولو أن القيادة الإسرائيلية كانت على وعى بحقيقة إمكانياتها لما كانت قد ترددت فى تحقيق ذلك الهدف. وهو قد ترك الصحافة المعادية بحق أو بغير حق تعلن فى كل مكان أنه دخل اليمن تحت تأثير وتوجيه سوفيتى ـ بقصد الو صول إلى منطقة الخليج من الباب الخلفى.

جـ ـ وهو فى داخل مصر أ ضعف الجسد بصورة وا ضحة. «الإخوان المسلمون»[1] كانوا

(1) تلقت الأمانة العامة بالجامعة العربية برقية من جماعة الإخوان المسلمين بمصر جاء فيها: أن جماعة الإخوان لا ترى سبيلاً لإنقاذ فلسطين الشقيقة إلا بالقوة؛ ولهذا فإنهم يضعون (عشرة آلاف) من خيرة شبابها المجاهدين ككتيبة أولى فى جيش الإنقاذ للزحف العملى عند أول إشارة، وتلقت الأمانة برقية أخرى بنفس المعنى من شعبة الإخوان المسلمين بالإسكندرية . «محاضر مجلس الجامعة العربية د/ 7ج/ 2 فى 8 أكتوبر عام 1947، ص 13. ونفس المصدر د/ 7ج/ 4 فى 11 أكتوبر 1947، ص.48».

يمثلون القوة الوحيدة القادرة على أن تقوم بدور رأس الحربة فى صدامه مع إسرائيل، ولم يتردد لإرضاء ‹واشنطن› أن يضعهم في السجن. وقد ظن أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تقبل هذا المقدم، متناسيا أن منطق الدول العظمى لا يعرف سوى لغة المصلحة البعيدة المدى. كان عليه خلال العامين السابقين على حرب يونيه أن ينسى جميع خلافاته، وأن يكتل جميع عناصر الجسد المصرى خلف قيادته، وطالما قد قررت أن تلجأ إلى لغة القوة العضوية، فيجب أن تكتل تلك القوة العضوية فى قبضة واحدة. منطق إدارة الصراع يجب أن يستند إلى التجانس بين فلسفة الصدام وأدواته.

د ـ وهو ما حدث أيضا فى تعامله مع العالم العربى. كان عليه أن يلقى جانبا جميع مشاحناته مع العالم العربى، مع القوى المحافظة، مع حزب البعث العربى، مع اليسار الذى كان قد بدأ يطل من جحوره. كان عليه على الأقل أن يعيد وأن يضيق من حدة الخلافات ليجمع جميع القوى فى قبضة واحدة استعدادا للنزال.

ولكن هذا لم يحدث، بل إن الملك حسين عندما طار قبل القتال بعدة أيام إلى مصر، كان يجد السباب الموجه لشخصه ولأسرته، وهو لا يزال مسجل على حائط المبانى فى مدينة القاهرة.

مرد جميع هذه الأخطاء ثلاثة متغيرات :

الأول ـ أن ‹جمال عبد الناصر› لم يحدد أهدافه ولم يرتبها بوضوح ترتيبا تصاعديا يسمح له بالتمييز بين الأهم والأقل أهمية، ولو فى لحظة الصراع.

الثانى ـ أن ‹عبد الناصر› لم يزن خصومه الوزن الحقيقى.

الثالث ـ أن ‹عبد الناصر› تصور أن قيادة الصدام ليست فى حاجة إلا إلى شخص واحد، وتصور أنه هو وحده قادر على قيادة الصراع.

عقب حرب 1967 تغير ‹عبد الناصر›، ولكن الظروف لم تسعفه لتحقيق أهدافه.

‹أنور السادات› عندما وصل إلى السلطة لم يختلف كثيرا عن ‹عبد الناصر› فى هذه العناصر التى منعته من أن يقود الصراع قيادة حكيمة. فهو بدوره لم يعط لخصومه وزنهم الحقيقى، وظن أنه قادر على التلاعب بجميع القيادات. التى تعامل معها؛ لأنه أكثر منهم دهاء، فوقع فى نفس المطب الذى وقع فيه ‹عبد الناصر› عام 1967، مع خلاف فى التفاصيل وخلاف فى التعامل، نتيجة الخلاف فى الشخصيتين من جانب ، والخلاف فى كل الموقفين من جانب آخر.

لنستطيع أن نفهم حقيقة هذا الخلاف، علينا أن نميز فى تاريخ ‹أنور السادات› من حيث تعامله مع إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، بين ثلاثة مراحل:

الأولى ـ حتى حرب أكتوبر.

والثانية ـ منذ حرب أكتوبر حتى زيارة القدس فى نوفمبر 1977.

والثالثة ـ حتى مقتله فى أكتوبر عام 1981.

المرحلة الأولى ـ وحتى حرب أكتوبر، تتميز باستمرارية مفاهيم «عبد الناصر»، وقد تقمصت شخصيته شخصية «أنور السادات». القناعة بأن المعركة كانت أساساً معركة مصرية هو إدراك أبرزه «عبد الناصر» خلال حرب الاستنزاف. الإيمان بأن ما أُخذ بالقوة يجب أن يسترد بالقوة، هو فلسفة جمعت بين فترة حكم «عبد الناصر» عقب هزيمة يونيه وفترة رئاسة «السادات» قبل انتصار أكتوبر. مما لا شك فيه أن «السادات» تعلم من هزيمة يونيه، ولكنه لم يتعلم بالقدر الكافى لأن ينجح حقيقة فى حرب أكتوبر. «السادات» حقق خلال تلك الفترة ثلاثة إنجازات: تجميع العرب من حوله، اتخاذ القرار بالعبور، ثم استخدام سلاح البترول فى المعركة، ولكنه كان يستطيع بشىء من الحنكة أن يحقق ما هو أكثر من ذلك. خذله الفكر العسكرى، ولكنه هو الذى لم يعرف كيف يُوظّف الفكر العسكرى.

عندما حدثت الثغرة، فقد القدرة على التعامل مع الموقف. وكان «كيسنجر» يقف له بالمرصاد.

المرحلة الثانية ـ تبدأ مع أحداث حرب أكتوبر، وقد بدأت خلالها تبرز خصائص شخصية «السادات». يقول علماء التحليل النفسى: إن الصدمة العنيفة تقود الشخصية الفردية إلى واحد من اثنين: إما التماسك والقوة، فتصير الشخصية أكثر صلابة منها قبل الصدمة. وأما التهلهل والتحلل، فتصير الشخصية وقد فقدت قدرتها على التعامل، لو قورنت بما كانت عليه قبل الصدمة. وهذا ما حدث مع الرئيس «السادات» عقب الثغرة عندما وجد نفسه فجأة عُرضَةً للهزيمة[1]، وجيشه الثالث محاصر، وقوات العدو على مقربة عدة دقائق من عاصمته. لقد برزت فى صورة واضحة حقيقة الرئيس «السادات» فهو ليس زعيم، ولكنه رجل دولة عادى. وهو ليس قائد ثورى، ولكنه حاكم يريد أن يستقر فى مقعد السلطة. وهو بورجوازى يحب الحياة المرفهة، ولا يحتمل مواجهة المشاكل. وهكذا راح خلال هذه الفترة يتهرب من حقيقة الموقف. برز ذلك واضحاً فى زيارته للقدس. إن هذه الزيارة التى لا يزال المحللون يتساءلون عن سرها، لم تكن إلا عملية هرب إلى الأمام. ذهب إلى أمريكا ـ صيف عام 1977 فلم يُقابَل من القيادات الأمريكية ـ وهى قيادات فى تلك اللحظة هشة، غير قوية ـ إلا بالاستهتاروالاستخفاف. فعاد وقد قرر أن يلغى الوسيط الأمريكى. وفى القدس. وُوجه بمواقف التسلط والغباء.

---

(1) وهو السبب فى هذه الثغرة.

خطاب «مناحيم بيجن» قمة فى هذه الناحية، أى زعيم عربى ـ عَقِب كلمات القائد الصهيونى، كان يجب أن يفهم أن الباب قد أُوصد أمام أى محاولة لتناول الصراع وإدارته ـ من خلال مفهوم التفاوض ـ وأن فعل ذلك فباستراتيجية معينة. إن الاستسلام أيضاً فن له قواعده، ولم يكن مم يسعفه أن يتهالك على «مناحيم بيجن».

عقب زيارة القدس توالت الأخطاء والاندفاع، وفقد الرئيس ‹السادات› كل قدرة على التوازن، فكانت المأساة التى لا نزال نعيش فى المستنقع الذى خلقته أحداث تلك الفترة.

مرة أخرى نجد هذه الأخطاء محورها الحقيقى متغيرين أساسيين:

الأول ـ الغرور القيادى، حيث الرئيس ‹السادات› لم يكن بذلك الخصوص يختلف من حيث جوهره عن ‹جمال عبد النا صر›، مع ذلك الفارق أن الأخير كان يملك صفات القيادة الحقيقية ‹السادات› لم يكن يؤمن إلا بشخصه، ولا يثق إلا فى قدراته، وكل من كان حوله أصفار. بطبيعة الحال هو لم يبحث إلا عن قيادات هشة تافهة لتزين مجلسه، ولكنه كان يعتقد عن قناعة أنه لا يملك سوى تلك القيادات.

الثانى ـ أنه لم يعرف كيف يزن ويصدق خصومه وأعداءه. فهو لم يفهم حقيقة القدرة الإسرائيلية فى النطاق الدولى. وتصور أن قضاء عدة أيام مع ‹كارتر›[1] سوف يحيل القيادة الأمريكية إلى قيادة صديقة. واعتقد أنه عندما يمارس دور الثعلب مع ‹كيسنجر› ثم عقب ذلك مع ‹مناحيم بيجن›، أنه قادر على أن يضع أيا منهما فى جيبه›[2]. وكان عليه أن يكتشف أن كل ذلك خطأ جوهرى فى تعامله مع الموقف. لقد اكتشفت فجأة أن الذى وضعه فى جيبه هو ‹كيسنجر›[3] ثم عقب ذلك ‹مناحيم بيجن›، ولكن ذلك قد تم بمساعدة أنصاره ومن حوله ـ من هم أقرب الناس إليه ـ بإخضاعه لعملية غسيل مخ عنيفة. انتهى به الأمر لأن يجد نفسه فى لحظة معينة ولا يقف جواره أى قوة حقيقية صديقة ـ حتى فى داخل بلده. فكانت المأساة.

وهنا تبرز حقيقة الدور الذى يجب أن تلعبه النخبة القيادية. عليها أن تحيط القائد وتحميه حتى ضد نفسه. هذا درس يجب أن يتعلمه كل قائد وهو يختار أعوانه. ليست وظيفة الأعوان أن تصفق، ولكن وظيفتها الأساسية أن تخلق قنوات الاتصال بين القائد وأمته ـ كمصالح قائمة، وكتراث تاريخى، وكقيم ثابتة، تتحدى الحاضر والماضى ـ لتلقى بالمجتمع كلية فى سراديب المستقبل.

---

(1) مع أنه هو الذي هدده بالتخلى عنه مما أجبره على التوقيع على اتفاقية «كامب ديفيد».

(2) «كامب ديفيد في نظر وزراء الخارجية المصرية»؛ لأن الرئيس السادات قال: إننى أريد أن أعمل فرقعة فقط!! ولكنه تورط فى ذلك مع كارتر.

(3) المصدر السابق.

الخلاف بين قيادة السادات وقيادة جمال عبد الناصر فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى :

رغم ذلك، فالخلاف الجوهرى بين «السادات وجمال عبد الناصر»: أن الأول استطاع بصبر ودقة أن يميز بين أهداف مصر القومية، وأهداف الأمة العربية، ويعطى الأول فقط تلك الأولويات بالترتيب الواضح الذى سمح له بالانتصار فى حرب أكتوبر.

أ ـ فهو لا يعنيه استئصال إسرائيل، ولكن يعنيه أن يبعدها من إقليم مصر القومى.

ب ـ وهو لذلك مؤمن بضرورة استئصال إسرائيل من المنطقة، ولو بتحويلها إلى دولة غير صهيونية.

جـ ـ وهو لا يستطيع أن يرى صداماً بين مصر وإسرائيل، ورغم تحمل مصر عبء هذا الصدام ـ دون أن تقف خلفه القدرة العربية فى سلم قيم الصدام ـ يجعل القيمة العليا الأولى هى قيمة التضامن العربى أياً كانت عناصره.

د ـ وهو يدرج الخلاف المصرى الإسرائيلى فى دائرة الخلاف العربى ـ الإسرائيلى، ولا يقبل التجزئة أو الفصل بينها.

هذا الخلاف ينبع من خلاف فى الشخصيتين. الأول ـ عبد الناصر ـ قائد ثورة وزعيم انقلاب، الثانى «أنور السادات» رجل دولة ومدير حكومة. الأول «عبد الناصر» ذئب شجاع يلقى بنفسه فى المعركة ولا يهاب ولا يخاف الجروح والكدمات. الثانى «أنور السادات» ثعلب ماكر يحتال على عدوه، ثم ينقض عليه من الخلف مجنباً نفسه أية إصابة. ولكن الأخطر من كل ذلك ينبع من تناقض فى الإدراك. وهنا تبرز المسؤولية الحقيقية للفكر السياسى، الذى لم يعرف كيف يحلل حقيقة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وكيف ينقل هذه الحقيقة بلغة العلم إلى كل من القائدين.

وهكذا فشل ‹عبد الناصر› فى إدارة الصراع.

وفشل ‹أنور السادات› فى التمييز بين دوائر الصراع.

ولو أردنا تقييما حقيقيا لكليهما؛ لكان علينا أن نعترف بأن أيا منهما لم يكن يصلح لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. الأول ‹عبد الناصر› يصلح لأن يكون زعيما لثورة التحرر. والصراع العربى ـ الإسرائيلى ليس مجرد ثورة تحرر، إنها ثورة بناء، لحضارة جديدة تستطيع هى وحدها أن تضع حدا للتسلل إلى المنطقة بقصد استيعابها، وبناء على أنقاضها حضارة جديدة.

الثانى «أنور السادات» لعمليات المحاورة والمداهنة[1]، وليس للصراع المصيرى الذى

(1) حتى المحاورة والمداهنة فن لم يكن يجيده «السادات»، وذلك بشهادة وزراء خارجيته. راجع كتاب: «كامب ديڤيد فى عيون وزراء خارجية مصر» تأليف محمود فوزى، مطبعة مدبولى.

يفترض فى قائده أن يَحْمِل حياته على يده، ولا يتردد فى أن يضحى بها ـ لو فرضت ذلك الظروف أيًا كان الموقف.

الصراع العربى ـ الإسرائيلى لا يزال يبحث عن قائده العربى

فلنحاول من خلال هذه النماذج أن نرسم أمام من يتولى هذه القيادة ـ فى الأعوام القادمة ـ إن شاء الله ـ أن يكون على وعى حقيقى بأبعاد ذلك الصراع، بما فى ذلك عملية إدارته».

المحور الرابع

نموذج إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى عند مناحيم بيجن

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«إدارة الصراع من الجانب الإسرائيلى تثير الكثير من التساؤلات لأول وهلة هى قيادة ناجحة، وقد حققت الكثير من المكاسب، ويكفى أن نتذكر كيف كانت إسرائيل فى بداية وجودها وأين هى اليوم. أكثر من محلل يهودى لا يزال غير مصدق عينيه. ولنتذكر فقط بعض مظاهر هذا النجاح:

أولا ـ الهزيمة العربية فى ميدان القتال فى جميع حلقات الصدام العضوى، فإن إسرائيل خرجت بدرجة أو بأخرى منتصرة، ورغم أن هذا الانتصار اختلفت درجاته، إلا أنه ظاهرة ثابتة.. فهو ساحق فى 1967 وهو بالاشتراك مع دولتين عظيمتين فى 1956، وهو ناجح فى 1948، وهو موضع تساؤل فى حرب الاستنزاف، ولكن دائمًا لصالح «تل أبيب». وهو قد بدأ بانتصار مصرى ـ سورى، ولكنه انتهى بالوصول إلى قلب الدولتين بالقرب من العاصمة.

فى حرب 1973، وهو مهما قيل عن تغير فى الجندى الإسرائيلى، وتفسخ فى القيادة الصهيونية، فإنه فى عام 1982 قد حقق أهدافه فى لبنان. هناك هزيمة ثابتة وفشل واضح من الجانب العربى فى جميع مراحل الصدام. جولات ست أثبتت قدرة القيادة الإسرائيلية على التلاعب بالموقف وتحقيق الأهداف.

ثانيا ـ وهى من جانب ثان استطاعت أن تفرض على الأمة العربية التحلل والتفسخ، وتكفى متابعة تاريخ الصراع فى مراحله المتعاقبة لنرى كيف أن هذه القناعة ـ بالوحدة والتضامن ـ تسير فى خط عكسى لتاريخ تطور الصراع. وقد ارتبط بذلك فقد للهيبة الدولية حتى لمصر ـ ذات التاريخ العريق ـ بهذا الخصوص، وليس علينا سوى أن نقارن موقف العالم العربى فى عام 1956 وموقفه فى عام 1982 لقد كانت الأمة العربية ونصفها لا يزال مستعمرًا صوتًا واحدًا أثناء العدوان الثلاثى، بينما والشعب اللبنانى يُستأصل لم يرتفع صوت واحد حقيقى بالاعتراض، ولنتذكر مذابح «صبرا وشاتيلا» على سبيل المثال.

ثالثا ـ ثم هى استطاعت أن تتوسع باستمرار، فلنتذكر كيف كانت إسرائيل قبل حرب 1967 وماذا أصبحت عقب تلك الحرب. ولا **يجوز أن يخدعنا الانسحاب من سيناء الذى**

ارتبطت به عوامل أخرى، كذلك يجب أن تتذكر أن التوسع لا يزال فى خطيه ـ رأسى وأفقى ـ فى آن واحد، أفقى يضم أراضى جديدة، ورأسى بتدعيم وتعميق الانتماء اليهودى.

رابعا ـ وهى قد استطاعت أن تطوّع جميع القوى الدولية للدفاع عن مصالحها بشكل أو بآخر، كان أول من ناصرها الاتحاد السوفيتى، ورغم تعديل موقفه إلا أنه لا يزال متمسكًا بحق إسرائيل فى شرعية البقاء.

كل من فرنسا(1) وألمانيا وبريطانيا أسهمت بشكل أو بآخر فى الدفاع عن المصالح الإسرائيلية. صحيح أن موقف هذه الدول أقل صراحة فى التحدى، ولكن النتيجة واحدة، وهى أن الأمة العربية شربت السم بغزارة من أيدى الدول الثلاث(2) اعتداء عام 1956 الذى ثبت الشرعية الإقليمية هو تحالف بين إسرائيل وكل من «فرنسا وبريطانيا». السلاح الذى استخدم فى حرب 1967 كان سلاحًا فرنسيًا. حتى هذه اللحظة القدرة النووية الإسرائيلية هى نتيجة تعاون وثيق بين «تل أبيب وباريس» الذى أنفق فعلاً على حرب 1967

(1) «فرنسا وإسرائيل» د. محمود حسن صالح منسى، أستاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الأزهر 1994، ص 93، ص 95، حيث يقول: «وبعد اعتراف فرنسا بإسرائيل صارت السياسة الفرنسية تسير فى خطين متوازيين: تأييد إسرائيل، ومراعاة مشاعر العرب. إلا أن هذه السياسة لم تنجح بسبب حرب التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى الذى كان العرب ينظرون إليه نظرة سُخْط لا يقل عن سخطهم نحو الكيان الإسرائيلى، الأمر الذى دفع «فرنسا» لزيادة تعاونها مع إسرائيل، على أساس أن لهما عدوًا واحدًا مشتركًا هو الدول العربية. وفى 25 مايو ـ أيار ـ 1950 كانت فرنسا قد اشتركت مع «بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية» فى إصدار التصريح الثلاثى من أجل ضمان أمن إسرائيل والمحافظة على خطوط الهدنة، وعدم بيع الأسلحة للطرفين إلا بشروط معينة».

(2) الدول الثلاث «فرنسا وإنجلترا وإسرائيل» وهو ما يسمى بالعدوان الثلاثى، نعم شربت السم من الأصدقاء قبل الأعداء، قال الدكتور محمود حسن صالح منسى فى كتابه «فرنسا وإسرائيل» ص 164، ص 165: «وكان من المتوقع أن يبدأ البريطانيون فى قصف المطارات المصرية عند انتهاء مهلة الإنذار فى الرابعة والنصف من بعد ظهر 31 أكتوبر ـ تشرين أول ـ أو بعد ست وثلاثين ساعة من بدء الهجوم الإسرائيلى ضد مصر، ولكن تأخرت العملية، الأمر الذى أزعج «بن جوريون» للغاية، وأبدى رغبته فى سحب المظليين الإسرائيليين من موقعهم المتقدم عند ممر «متلا» خوفًا من تطويقهم، ولعله كان يناور حتى يحث حلفاءه على تنفيذ الجزء الخاص بهم من الخطة، وقد أثناه «ديان»؛ لأن هذه القوة من المظليين كانت هى الوحيدة التى يمكن اعتبار أنها تهدد القناة، وبالتالى تبرر المؤامرة التى دبرها حلفاء إسرائيل للاستحواذ على القناة. وعند الغسق يوم 31 أكتوبر انضم طابور مدرع إلى المظليين فى «متلا»، وكانت معنويات الحكومة الإسرائيلية مرتفعة طالما المقاتلات الفرنسية قد نشرت مظلة جوية دفاعية فوق مدن إسرائيل، كما أن المدمرات الفرنسية وفرت الحزام البحرى Ceinture Maritime على سواحل إسرائيل فى عملية منفصلة عن عملية الفارس Musketeer، وقامت إحدى هذه القطع الفرنسية بإطلاق النار على المدمرة المصرية ـ إبراهيم الأول ـ قبل ساعة من انتهاء مهلة الإنذار». وهكذا شربت الأمة السم من الأصدقاء «فرنسا ـ إنجلترا ـ ألمانيا ـ أمريكا». وهلم جرا.

كانت ألمانيا ـ وخلف كل هؤلاء ـ تلعب دورها الخفي «بريطانيا»، وذلك دون الحديث عن «الولايات المتحدة، حتى دول العالم الثالث والأسرة الإسلامية وقفت بعض عناصرها إلى جانب «إسرائيل».

خامسا ـ وهي مكنت «الولايات المتحدة» من فرض إرادتها على المنطقة العربية. السياسة الأمريكية فشلت فى كل مكان فى أوربا، حيث انتهت كما نرى اليوم، والقيادة الأوربية تسعى زاحفة على قدميها تطلب من الاتحاد السوفيتى أن يرضى عنها فى أمريكا الجنوبية، ولم يعد أحد من المجتمع الجماهيرى ينظر إلى «الولايات المتحدة» إلا على أنها مغتصبة تُعبِّر عن أسوأ تقاليد الاستعمار في جنوب شرق آسيا، وقد بدا واضحًا حقيقة التحدى القادم للإرادة الأمريكية، ولكن هذه السياسة الفاشلة فى كل مكان نجحت فى منطقة الشرق الأوسط نجاحًا ما كانت تحلم به نفس القيادات الأمريكية. مصدر هذا النجاح الحقيقى هو الإرادة الإسرائيلية فى المنطقة.

سادسا ـ وهى ـ أى إسرائيل ـ لم تقتصر على تطويع القوى الدولية لصالحها، وأن تُوَجِّه السياسة الأمريكية فى المنطقة، بل وأن تخاطب القوتين الأعظم على قدم المساواة إسرائيل ـ الدولة الصغيرة التى لا تمثل أى أهمية فى صراع العمالقة وقفت عام 1967 تخاطب كلاً من «واشنطن وموسكو» بلغة الندية. فلنتذكر تهديد إسرائيل للاتحاد السوفيتى على لسان «موشى دايان» عقب حرب يونيه، ولنتذكر تعامل القيادة الإسرائيلية مع «كارتر» فى لحظة معينة. لقد استطاعت أن تعيد تشكيل التوازن الإقليمى لصالحها فى عام 1967، وفى خلال الفترة اللاحقة طورت علاقاتها بالولايات المتحدة لتخلق التهديد فى القناعة السوفيتية. واليوم نعاصر نتائج ذلك، سواء فى سياسة «موسكو» أو فى نفس سياسة «واشنطن» من حيث توظيف إسرائيل لصالحها، ليس فقط ضد المنطقة، بل وفى علاقتها مع دول حلف الأطلنطى لم يعد خافيًا أن أحد عناصر التوافق الإسرائيلى الأمريكى، أن الأول سوف تستخدم فى لحظة معينة لو حدث ذلك، لإيقاف التدفق اليسارى العسكرى فى وسط أوربا باستخدام القنبلة النووية التكتيكية.

سابعا ـ وهى استطاعت تحطيم الحصار الذى أقامته حولها الدول العربية ليس فقط بمعنى التسلل التجارى، بل بمعنى التعايش الذى يكاد يصير نوعًا من التحالف الواقعى. سياسة «كامب ديڤيد» نموذج واضح وصريح. ما يجب أن نتذكره بذلك الخصوص أمرين:

الأول ـ أنه لا توجد سياسة «كامب ديڤيد» واحدة، بل هى متعددة، وأكثر من دولة عربية واحدة اتبعت سياسة «كامب ديڤيد» دون أن تعلنها

والثانى ـ أن التسلل إلى داخل الأمة العربية بوسائله المتعددة أخطر من سياسة «كامب ديڤيد» ولنتذكر أن سياسة الجسور المفتوحة مع الأردن سابقة على «كامب ديڤيد» بأكثر من عشرة أعوام.

بأكثر من عشرة أعوام.

ثامنا ـ وهى استطاعت أن تخلق رأيًا عامًا دوليًا يساند شرعيتها، ويقف من الدفاع عن بقائها. وشرعية هذا البقاء ـ بصلابة وعناد إسرائيل فى وضعها الحالى ـ دولة غير شرعية بأى معنى من المعانى، فهى قد توسعت بالحرب والقوة، وهو أمر يخالف جميع النصوص الدولية، وهى إذا كانت تستند فى شرعيتها إلى قرار التقسيم، فهى لم تحترم هذا القرار، فكيف يقف الرأى العام الدولى إلى جانبها بهذا الخصوص؟ بل إن نفس منظمة التحرير انتهت بالاعتراف بشرعية وجودها فى صورتها المخالفة للقرار الدولى للتقسيم.

تاسعا ـ بل إنها لا تزال تحظى بتأييد طبقات ضخمة ـ رغم سلوكها الاستفزازى، وتحديها لجميع قرارات الأمم المتحدة، بل ورفض الانصياع إلى نصح نفس أصدقاء إسرائيل فى بعض الأحيان. لقد استطاعت أن تخلق لها أنصاراً، بل ومعاونين ـ أو على الأقل ـ متفهمين لقضيتها من وجهة نظرها، فى داخل الوطن العربى، بل وبين الفلسطينيين أنفسهم، وذلك رغم عزلتها الدولية التى وصلت فى بعض الأحيان إلى مستوى كان يجب أن يفرض عليها اليأس الحقيقى.

عاشرا ـ وهى اليوم تستخدم مصر فى سبيل خلق طرق التسلل إلى النظام الدولى، الذى سوف يسيطر على منطقة الشرق الأوسط بما يعنيه ذلك من أمرين: تمزيق النظام القومى العربى، حيث سوف يتم استبعاد منطقة المغرب العربى من جانب، وإدخال أطراف أخرى فى النظام، بحيث تضعف فى داخله الإرادة العربية، وهى «إيران وتركيا» إلى جانب إسرائيل من جانب آخر، وذلك كله مقدمة لتصفية الكيان العربى.

لا نزال فى البداية، ولكن هذه الصورة القائمة تطرح ثلاثة تساؤلات :

الأول ـ لماذا نجحت إسرائيل فى إدارة الصراع بهذه الصورة الواضحة؟

الثانى ـ أين قيادة الصراع العربى ـ الإسرائيلى من الجانب الصهيونى فى هذا النجاح؟

الثالث ـ ما هى سياسة إسرائيل خلال الأعوام القادمة، وكيف تخطط لإدارة صراعها فى المنطقة؟

مناحيم بيجن وتقاليد السياسة الخارجية الإسرائيلية:

المتتبع لسياسة إسرائيل الخارجية ـ وبصفة خاصة فى كل ما يتصل بإدارة الصراع فى المنطقة ـ يلاحظ أنها تخضع لقواعد مقننة وثابتة لم تتغير فى جميع مراحل تطور العلاقات بين إسرائيل ودول المنطقة. ورغم أن هذه السياسة قد تغيرت من حيث مضمونها عقب وصول كتلة «ليكود» إلى السلطة، ولعل هذه القواعد فى ذاتها أحد أسباب نجاح

الخارجية ينبع من تلك المبادئ.

فلنحاول أولاً تحديد التقاليد الإسرائيلية، والتى وضعها منذ بداية تكوين هذه الدولة «بن جوريون» النبى المسلح:

أولا ـ ضرورة التمييز الواضح بين مراحل التعامل السياسى ـ صنع السياسة ـ صنع القرار ـ تنفيذ القرار ـ إدارة الصراع.

ثانيا ـ مرونة الحركة بمعنى التقدم خطوتين والتراجع خطوة.

ثالثا ـ فصل العمل فى وزارة الخارجية عن النشاط الحزبى.

رابعا ـ سيطرة المفهوم العلمى على إدارة السياسة الخارجية.

خامسا ـ تمركز السياسة القومية بجميع عناصرها، حول مبدأ سيادة مفاهيم الأمن القومى.

سادسا ـ اعتماد مبدأ تعدد الأدوات فى تنفيذ السياسة الخارجية.

سابعا ـ الالتجاء إلى مبدأ توزيع الأدوار مع الإخراج المسرحى فى كل ما له صلة بالتعامل الخارجى.

ثامنا ـ اعتماد مبدأ الإرهاب الفكرى والتخويف منطلقًا أساسيًا فى التعامل مع العالم العربى.

تاسعا ـ النظرة إلى العالم بأجمعه على أنه يقف من إسرائيل موقف العداوة، وعلى أن إسرائيل ليس لها صديق ولا تستطيع أن تعتمد على أى قوة ولو تظاهرت بالصداقة.

هذه العناصر التسعة تمثل التقاليد الثابتة فى السياسة الخارجية الإسرائيلية. وهى تقاليد ثابتة فى جميع مراحل تطور سياسة إسرائيل الخارجية، وأساليب إدارتها للصراع فى منطقة الشرق الأوسط . سوف نرى كيف أن فلسفة هذه الإدارة اختلفت مع مجىء كتلة «ليكود» إلى الحكم، وتحكم «حيروت» فى نظرته إلى محور وهدف ذلك الصراع، ومن ثم أساليب إدارته بحيث يمكن القول بأن السياسة الصهيونية فى المنطقة تعرف فى خلال الفترة ـ بصفة خاصة ـ منذ عام 1977 حتى اليوم فلسفة وإدراكًا مختلفًا كل الاختلاف عن ذلك الذى ساد القيادة الإسرائيلية حتى عام 1967، اختلافًا كليًا وجذريًا، إلا أنها ظلت فى كل ما له صلة بالتقاليد الإجرائية واحدة لم تتغير، ولعل هذا أول أسباب النجاح الإسرائيلى فى الإدارة، أنها لا تنبع فقط من مفاهيم قائد معين، ولكنها على العكس من ذلك تعبير عن تصور وإدراك قيادى، أو بعبارة أخرى: هى حصيلة إدراك جماعى متماسك وليست مجرد اجتهادات فرد معين تختفى مع نهاية عصره. مما لا شك فيه أن «بن

جوريون» أسهم فى ذلك بطريقة فعالية، ولكنه لم يتعد أن يدخل فى بناء تلك التقاليد، وحتى عندما ترك الحكم فى حياته، وقبل مجىء «ليكود» ظلت التقاليد راسخة ومحترمة.

ما هى أولا هذه التقاليد ؟ وكيف تعامل معها مناحيم بيجن؟

أول هذه التقاليد : التمييز الواضح بين مستويات العمل السياسى، المكان لا يسمح بالتفصيل، ولكن بصفة عامة كل من مستويات الحل السياسى له طبيعته، ومن ثم له أساليبه.

صنع القرار عملية نظرية تتدخل فيها تقاليد الدبلوماسية الصهيونية السابقة، على إسرائيل نفسها لم يشكك أحد فى تلك التقاليد، وظلت دائماً موضع احترام. صنع السياسة الخارجية، بما فى ذلك التعامل مع موضوع الصراع لا ينبع إلا من مبدأ واحد، وهو مفهوم الأمن الإقليمى، وهو مفهوم مطلق يتحكم فى جميع أبعاد العمل السياسى ـ بما فى ذلك السياسة الداخلية، بل والسياسة الاقتصادية، وكذلك السياسة الثقافية مفهوم واضح للأمن القومى الإقليمى مقنن ومحدد العناصر يتحكم فى أى بعد من أبعاد السياسة الإسرائيلية. صنع القرار السياسى يخضع لمبدأ آخر، وهو إخراج القرار السياسى من المناقشات الحزبية أو تدخل السلطة السياسية. لم تعرف الدولة العبرية قراراً سياسياً خارجياً كان موضع المناقشة ـ سواء فى داخل الحزب الحاكم أياً كان أو فى داخل الكنيست ذاته، بل وحتى فى داخل مجلس الوزراء فى صورته المكبرة. القرار يناقش فى دوائر ضيقة لمجلس الوزراء المصغر، ثم لجنة الكنيست للأمن القومى، وبعد ذلك وعندما تصل القيادة إلى قرار يحظى بقبول الأغلبية يطرح فى تلك الدوائر الأخرى، فقط للتصويت وهكذا، فرغم الحياة الديموقراطية، فهناك نوع من السرية يحيط بكل ما له صلة بإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. أما فيما يتعلق بتنفيذ السياسة الخارجية، فالمبدأ المطلق الذى لم يعرف استثناء هو تعدد الأدوات فى التنفيذ، وهذا يقود إلى عملية إدارة الصراع. **مبدأ المبادرة والهجوم خير وسيلة للدفاع**، إذا استثنينا نموذج حرب أكتوبر، فإن إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى كان دائماً هجومياً يسعى إلى الاختراق ولا يقبل الانتظار، وحتى فى حرب أكتوبر، فإن العكس اقتصر على عدة أيام سرعان ما أعقبها العودة إلى التقاليد الأولى، والجميع يسلم بأنه لن يتكرر ذلك النموذج فى أى مرحلة ومهما كانت الظروف.

المبدأ الثانى ـ وهو مرونة الحركة. إدارة الصراع تفرض فى الإدراك الإسرائيلى التقدم والتراجع. التقدم خطوتين ثم التراجع خطوة. إن هذا لا يعطى فقط الإدارة الإسرائيلية فرصة استرداد النفس، بل يربك العدو، فهو عندما يتصور أنه يخضع لهجوم سرعان ما يواجه التراجع، فيتصور الهزيمة أو التخلى عن السياسة الاستفزازية، وبينما يخفف من

غلوائه إذا به يصاب بضربة قاسمة، عندما يفاجأ بالطرف الإسرائيلى، وقد كتل كل قواه فى هجوم خاطف لم يكن يتوقعه. سوف نرى فيما بعد كيف أن هذه المرونة هى وحدها التى سمحت للقيادة الصهيونية مع «مناحيم بيجن» ورغم التهلهل الداخلى أن تظل فى دائرتها الهجومية.

الناحية الثالثة ـ وهى فى غاية الأهمية ـ حيث تعلو تلك الأهمية على مجرد إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. هناك **ثلاث مؤسسات فى إسرائيل ترفض تدخل الصراعات الحزبية أو الخلافات العقائدية. إنها قومية وفقط قومية:**

الجيش أولا والجامعة ثانيا، والعمل الدبلوماسى ثالثا. وزارة الخارجية الإسرائيلية لا تعرف ولا تسمح لنفسها فى أن تتدخل فيها الصراعات السياسية المختلفة.

ولعل هذا يفسر كيف أن خروج حزب «الماباى» من السلطة ومجيء كتلة «ليكود» عقب قرابة ثلاثين عامًا، لم يحدث أى قلق فى إدارة السياسة الخارجية، وهو يفسر أيضًا كيف انتقل فى إدارة تلك الوزارة «موشى دايان» من حزب «الماباى» إلى حزب «حيروت»، وهو الذى يقف من الأولى موقف التناقض المطلق فى فهم للقيم السائدة والمسيطرة على التعامل مع منطقة الشرق الأوسط.

كذلك فإن إدارة السياسة الخارجية ـ سواء على مستوى الإدارة المركزية فى الدولة العبرية، أو على مستوى العمل فى الأجهزة الدبلوماسية المنتشرة فى جميع أجزاء العالم ـ تخضع لمبدأ واحد ومطلق، وهو المفهوم العلمى فى العمل السياسى الخارجى. ومعنى ذلك عدة حقائق:

أولا ـ فالجهاز الدبلوماسى يؤمن بعملية جمع المعلومات المحلية المبوبة، بحيث إن أى سفارة تملك صورة كاملة لما يحدث فى دولة المقر، يساعدها على ذلك من جانب الجالية اليهودية. ومن جانب آخر التواصل مع أجهزة البحث وبصفة خاصة الجامعات ثانيًا، **ووزارة الخارجية ليست إدارات، ولكنها مجموعة مراكز للبحوث المتخصصة ثالثا، ثم رجال وزارة الخارجية على أكبر قسط من التخصص، حتى أن ‹بريشير› فى عام 1969 يخبرنا بأن أكثر من 60٪ من العاملين فى وزارة الخارجية يحملون درجة الدكتوراه ويتقنون أكثر من ثلاث لغات. وهنا نلحظ أن وزارة الخارجية الإسرائيلية انتفعت بتقاليد الدبلوماسية الصهيونية التى سبقت إنشاء إسرائيل بقرابة خمسين عاما.**

السياسة الإسرائيلية ـ منذ وجود الدولة وبجميع تطبيقاتها ـ تمركزت حول مفهوم حماية الأمن الإقليمى خلال الأعوام الأولى لوجود الدولة تمت صياغة هذا المفهوم وتقنينه، وأسهم فى ذلك مساهمة حقيقية «بن جوريون» ولكن بغض النظر عن عناصر هذا المفهوم وحقيقته التى لا تزال حتى اليوم يحيط بها غموض متعدد هى وحدها التى سيطرت على

جميع النشاطات فى داخل الدولة، فالسياسة الاقتصادية تنبع من ذلك المفهوم، بل والسياسة التعليمية لا تعيش إلا فى هذا الإطار. كل هذا سمح لهذه السياسة ـ أى السياسة الإسرائيلية ثلاث مزايا: التجانس بين مختلف السياسات **أولا**، والقوة فى التعامل بثبات واستقرار **ثانيا**، ووضوح الرؤية من جانب المسؤول عن السياسة الإسرائيلية **ثالثا**. كذلك فإن من بين تقاليد سياسة إسرائيل الخارجية أن تتعامل وتتحرك فى الإطار الدولى، معتمدة على أكثر من إدارة واحدة، وبصفة خاصة على الأقل فى منطقة الشرق الأوسط على أدوات ثلاث، وكل منهما تتبعها أكثر من أداة جانبية. **الأدوات الثلاث الأساسية: الدبلوماسية، والإعلام، والعمل العسكرى. فالإعلام يعد الرأى العام ولو بخلق الخوف والشك فى الذات.**

الإعلام هو أداة أيضاً أساسية للتسلل إلى الجسد العربى ـ وبصفة خاصة ـ باسم البحوث المشتركة ـ مع غير إسرائيليين ـ التى سمحت بتطويع الشباب المبتدئ وخلق أبواق غير واعية لتدعيم التحلل فى الكيان الذاتى. الحرب النفسية وغسيل المخ تدخل فى دائرة الإعلام. الاتصال قد يكون أيضاً غير مباشر، ولا يجوز أن ننسى ماذا نستطيع أن نفعله بهذا الخصوص. **الأقليات العربية، سواء المقيمة فى الوطن العربى، أوالتى قد خرجت منه، ولكنها لا تزال تمارس دورها المخرب. ولنذكر على سبيل المثال جمعية أصدقاء الشرق الأوسط التى تابع تفاصيل جهودها لتأييد الحركة الصهيونية المؤرخ الأمريكى «هاليرين» فى الستينات، وأعقبه فى السبعينات «سلفر برج».**

الدبلوماسية تمثل الإدارة الثانية، ويجب أن نتذكر فى التقاليد الصهيونية بخصوص ذلك مبدأين: **الأول** ـ وهو أن الأداة الدبلوماسية غير الوظيفة الدبلوماسية. هذه الأخيرة قد يعهد بها إلى غير الأداة الدبلوماسية «كالهستدروت» أو حزب «المابام». **المبدأ الثانى** ـ أن الدبلوماسية قد تكون مباشرة وقد تكون غير مباشرة، هى مباشرة لو أديت من خلال الأجهزة الإسرائيلية، ولكن **قد تلجأ الخارجية الإسرائيلية إلى جهاز دبلوماسى يتبع دولة أخرى لتؤدى نفس الوظيفة ـ وهو ما فعلته أيضا فى منطقة الشرق الأوسط، سواء من خلال تركيا أو إيران أو الحبشة.**

وأخيراً يأتى متغير **الأداة العسكرية والجيش فى ذهن القيادة الإسرائيلية**، ليس فقط القدرات المتكتلة فى شكل قوى منظمة باسم أداة الدفاع، ولكنه يشمل أيضاً أدوات فاعلة ـ منها جهاز المخابرات، وكذلك أدوات التخريب المحلى. الذى يجب أن نتذكره أن إسرائيل لا تتحرك إلا على شكل جوقة متكاملة حيث كل أداة تُعدّ للأخرى أرض التعامل أو تحميها لحظة التراجع والانسحاب.

يكمل ذلك مبدأ توزيع الأدوار والإخراج المسرحى، ويكفى أن نتذكر أن تنظيف الصورة القومية لـ «مناحيم بيجن» عُهِدَ بها إلى قادة حزب العمل، وذلك رغم هزيمة هذا الحزب والصدام معه حول نفس مفهوم إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى. وقد حدث ذلك عقب نجاح «ليكود» فى الوصول إلى الحكم فى عام 1977، بل هى المتغير الحقيقى الذى يسيطر على الطبقة السياسية فى الحكم، أو فى المعارضة التى تسيطر على إسرائيل رغم جميع الخلافات، **فهناك حدود معينة عندها يتفق الجميع، وتقف جميع القوى فى صف واحد متماسك، وأحد عناصر هذا التماسك ما يرتبط بإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى.**

«مناحيم بيجن» احترم تقاليد السياسة الخارجية الإسرائيلية، بل وكذلك تقاليد فهم طبيعة التعامل مع موضوع الصراع العربى ـ الإسرائيلى وإدارته ـ سواء فى الأمد القصير أم الأمد الطويل».





ستة مبادئ صهيونية لم تتغير

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«يمكن القول بصفة عامة أن قواعد التعامل مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى تبرز عن مفاهيم مقننة ـ ظلت منذ وجود الدولة حتى اليوم ـ تمارس سطوتها على الإدراك الصهيونى. مما لا شك فيه أن «مناحيم بيجن» غيَّر فى عناصر هذا الإدراك، ولكن هناك مجموعة من الثوابت قد استقرت فى الوجدان، ولن يستطيع أحد أن يغير منها ـ مهما قيل عن السلام العادل، ولغة الحوار ـ هذه المفاهيم التى صاغها بدوره «بن جوريون»، التى تمثل قدس الأقداس فى التقاليد اليهودية، تقدم صورة واضحة لحقيقة التأثير الذى تركه ابن الصهيونية «بن جوريون» أيضًا بعد مماته.

إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى فى تقاليده الثابتة ـ من الجانب اليهودى ـ تقوم على ستة مبادئ ثابتة ـ لم يصبها أى تغيير جوهرى ـ فى جميع مراحل هذه الدولة قبل مجىء «مناحيم بيجن»، وكذلك بعد اختفائه:

أولا ـ تقوية الكيان الذاتى.

ثانيا ـ تثبيت الوجود الإقليمى.

ثالثا ـ استئصال الوجود الفلسطينى.

رابعا ـ تدعيم التحرك نحو تجزئة المنطقة العربية.

خامسا ـ التوظيف الثابت للإدارة الإسرائيلية فى النطاق الدولى.

سادسا ـ توظيف التوازن الدولى لإطلاق حرية «تل أبيب» فى المنطقة.

أيضًا هذه المبادئ لم يُغيّر منها «مناحيم بيجن» وهى فى مجموعها منطقية مع طبيعة الدولة اليهودية.

المبدأ الأول واضح، فتدعيم التجانس بين أجزاء المجتمع السياسى والقضاء على عناصر التفرقة الداخلية، يجب أن تسيطر على أى قائد يتولى مسؤولية الحكم فى «تل أبيب»، وهى لذلك تسعى إلى تحقيق تلك التقوية الذاتية ـ من خلال ثلاثة مسالك مترابطة:

المسلك الأول فيما يتعلق بمقومات المجتمع الإسرائيلى ذاته بما فى ذلك المواطنون الفلسطينيون. وسوف نرى ذلك أكثر وضوحًا فيما بعد. **الثانى** فيما يتعلق بخلق المساندة

مع جميع القوى السياسية فى منطقة الشرق الأوسط الأقليات[1] من جانب، ثم التجمعات المهنية غير الحكومية من جانب آخر، وقوى الانفتاح الاقتصادى التى تضمن المنتفعين، وبصفة عامة الطبقات البورجوازية الجديدة، وذلك دون الحديث عن الشركات الكبرى المتعددة الجنسية، تصير جميعها أدوات غير مباشرة لتقوية الكيان الذاتى. **المسلك الثالث** هو خلق نطاقات المصلحة مع جميع القوى الدولية، حتى تلك ذات الأهمية المحدودة، وليست فقط القوى الدولية ذات تقاليد التعامل المباشر مع المنطقة، وحتى لو اضطرت «تل أبيب» إلى اتخاذ موقف لا يتوافق مع السياسة الأمريكية «تركيا وإيران والحبشة والصين وتايوان وجنوب إفريقيا» هى النماذج الواضحة، ولكنها ليست الوحيدة.

الهدف الثانى : **وهو تثبيت الوجود الإقليمى** فى بداية الوجود الإسرائيلى، وحتى عام 1956 الهدف يتبلور حول الحصول على الشرعية الإقليمية. ولكن عقب 1976 تطور هذا الهدف تدريجيًا، ليصير ليس مجرد اعتراف بالوجود الإسرائيلى، بل تقبُّل لهذا الوجود على أنه ينتمى حضاريًا إلى المنطقة. إنه مجرد مقارنة بين خطاب «شاريت» فى بداية الخمسينات وهو يدافع عن الطبيعة الغربية والتوجه الحضارى الغربى لدولة إسرائيل، و«مناحيم بيجن» فى إجاباته على الرئيس «السادات»، وهو يعلن أن إسرائيل هى دولة شرق أوسطية، تنتمى إلى هذه المنطقة تاريخيًا، وهى جزء من التاريخ الحضارى لدولة الفراعنة، حتى أنه يصف هؤلاء الفراعنة بأنهم أجداده، نقنع بذلك التحول الخطير. وسوف نرى فيما بعد الأسباب الحقيقية التى تسير خلف هذا التحول ونتائجه على إدارة الصراع.

الهدف الثالث : استئصال الوجود الفلسطينى يصير هدفًا ثابتًا فى كل قيادة إسرائيلية. أسباب ذلك واضحة... فمما لا شك فيه أن وجود دولة فلسطينية مستقلة، يعنى وجود منافس حول الشرعية المرتبطة بالأرض التى تعيش عليها إسرائيل، وحيث إنه من الواضح أن البلاد العربية لحظة التنافس لا يمكن أن تقف إلى جوار إسرائيل ضد فلسطين، فمن المنطقى أن تجعل «تل أبيب» أحد أهدافها الثابتة منع مثل ذلك التواجد من أن يكتمل، ويحصل على أى شرعية، وهى لذلك تحارب ـ ليس فقط أى اعتراف دولى بالشعب الفلسطينى، بل وأى تنظيم أو أداة تسمح للقدرة الفلسطينية أن تكون لها أية فاعلية. ولكن ما هو أخطر من ذلك، أن هناك سياسة إسرائيلية ثابتة أساسها استيعاب الشعب الفلسطينى:

أ ـ فى أول الخطوات هى تسعى لاستيعاب الفرد معنويًا وحضاريًا، سواء بتدعيم عدم

---

(1) وقد استخدمت الحكومات الأوربية الأقليات غير الإسلامية فى إشاعة الفتنة الطائفية فى ربوع الدولة العربية لتمزيقها، وهذا هدف ثابت فى استراتيجية العدو حتى الآن، والدليل ما حدث فى السودان وجلسات الاستماع التى عقدتها لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى عن اضطهاد الأقباط فى مصر فى زعمهم.

الاحترام والقناعة والانتماء العربى، أو بخلق الإعجاب بالحضارة اليهودية والسعى نحو تقبل المواطن فى ذلك الكيان الحضارى المختلف والمتميز عن التاريخ العربى.

ب ـ وهى تخطو عقب ذلك خطوة خطيرة، حيث تخالف نفس مبادئ النقاء اليهودى بتشجيع زواج العربى باليهودية ـ وبصفة خاصة اليهودية الشرقية. إن هذا يعنى فى الأمد القريب القضاء على العنصر الفلسطينى؛ لأن أبناء مثل هذه الزيجة ـ بقوة القانون ـ يعتبرون ليس فقط من أبناء إسرائيل، بل ومن الأصل اليهودى.

جـ ـ ثم هى لا تتردد فى الاستئصال العضوى، تقرير «كينج» الذى يعود إلى أكثر من عشرة أعوام يوضح الأساليب وأكثر من زعيم واحد فى الفترة الأخيرة دعا إلى ذلك صراحة، ويجب أن نتذكر أن الاستئصال لا يعنى القتل، فهناك وسائل أخرى فى حكم القتل كالطرد أو التشجيع على الهجرة الدائمة. يكمل ذلك.

الهدف الرابع : المتعلق بتجزئة الوطن العربى كذلك، فإن التوظيف الثابت للأداة الإسرائيلية فى النطاق الدولى، ليس له من هدف سوى استغلال ذلك فى إدارة الصراع مع الدول العربية. ويصير توظيف التوازن بين الدولتين الأعظم امتداداً طبيعياً لتلك الاستراتيجية. إن إسرائيل لا تؤمن بالقوى الدولية، ولكنها تستخدم تلك القوى الدولية فى تحقيق أهدافها.

رغم أن إسرائيل توصف بأنها فى بعض الأحيان وجدت نفسها فى عزلة دولية، ولكن هذا الحديث لا يعبر عن عمق فى تحليل التطورات المختلفة فى الإطار الدولى. المهم هو موقف تلك القوى، فهى فى النهاية ـ وهى فى مجموعها ـ لا تقف إلى جوار القضية العربية، بل تنظر إليها باستخفاف أو على الأقل بسلبية تدعو إلى الحيرة والتساؤل.

هذه المبادئ فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى لم تختلف قبل مجىء «بيجن» عنها عقب ترك «بيجن» للسلطة، دون الحديث عن أنها ظلت مسيطرة على مفهوم إدارة «بيجن» لذلك الصراع، ولكن هل معنى ذلك أن «بيجن» لم يملك مفهوماً متميزاً لإدارة الصراع؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نسعى لتناوله بإيجاز.

مفاهيم مناحيم بيجن وإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى:

النقطة الأساسية أن السياسة الإسرائيلية ثابتة وواحدة فى إدراكها وتعاملها مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى. ويجب ألا تخدعنا بعض الأقوال أو التصريحات التى قد تخلق القناعة بغير ذلك.

أولا ـ فيجب أن نتذكر أن إسرائيل تمارس لعبة توزيع الأدوار ببراعة واضحة، وهى لذلك قد تدعو شخصاً أو قوة بالتظاهر بالاعتدال أو بقبول مبدأ معين، وهى لا تعنى سوى

عملية تهدئة مؤقتة. ولنتذكر أن «وايزمان» الذى كان يزور الإسكندرية ويقدم الخضوع والاعتدال للرئيس «حسنى مبارك» لم يكن سوى أداة حاسمة فى التصور الصهيونى بأقصى تطرفه على سبيل المثال.

ثانيا ـ كذلك فإن إسرائيل تؤمن بمبدأ المرونة، التقدم خطوتين والتراجع خطوة.. إن ما حدث فى الفترة الأخيرة هو أنها تتقدم بأن تقفز وثبة واسعة لتعود فتتراجع خطوة قصيرة.

ثالثا ـ أنه علينا ألا تخدعنا تصريحات المسؤولين الإسرائيليين، وهم فى خارج السلطة ما أن يصلوا إلى كرسى الحكم حتى تتغير مواقفهم ويعودون إلى الخط التقليدى(1). وقد حدث هذا فى أكثر من مناسبة «موشى دايان»، بل ونفس «مناحيم بيجن» نماذج صريحة.

هذا الثبات والتواصل فى السياسة الخارجية الإسرائيلية لا يتصل فقط بالماضى، بل هو أيضًا ثابت ولن يتغير فى المستقبل. جوهر هذه السياسة ـ فى حدها الأدنى ـ هو تفتيت الإرادة العربية وتحطيم هذا الكيان وتطويعه لخدمة الأهداف الإسرائيلية.

يبقى أن نتساءل: هل هناك عناصر جديدة حملها «مناحيم بيجن» معه فى وصوله إلى السلطة؟ وما هو مستقبل هذه العناصر الجديدة؟

نستطيع أن نمركز حول العناصر التالية المفهوم الإسرائيلى المعاصر لإدارة الصراع فى المنطقة:

أولا ـ استخدام القوة والعنف إلى أقصى حدوده فى التعامل مع دول المنطقة، وفى كل ما له صلة بإدارة الصراع.

ثانيا ـ إعلان الأهداف الحقيقية عن التعامل والعدول نهائيًا عن محاولة التغطية أو التمويه على تلك الأهداف.

ثالثا ـ التعامل مع المنطقة على أنها المسرح الطبيعى للسيادة الإسرائيلية، حيث الدولة اليهودية هى دولة شرق أوسطية.

رابعا ـ استخدام مصر كأداة للتواصل الإسرائيلى العربى.

خامسا ـ التعامل مع الإطار الجديد الدولى فى العلاقة بين «موسكو وواشنطن»، بحيث تستطيع «تل أبيب» أن تصير وسيطًا بين العملاقين، وبحيث إن كلاهما ينتهى بأن يساند الأهداف الإسرائيلية.

سادسا ـ الاستعداد للحرب القادمة.

---

(1) ليس أدل على ذلك ما يفعله الرئيس الحالى للوزراء الإسرائيليين «نتنياهو» من نقضه للعهود والمواثيق التى قطعها سلفه، وكذلك وصول مسيرة السلام إلى طريق مسدود. لقد تحقق كل ما أخبر به حامد ربيع. والعدو يواصل تحقيق أهدافه دون مقاومة. وصدق من قال: «وقطعت جهيزة قول كل خطيب» (أكتوبر 1998).

فلنتابع هذه العناصر المختلفة فى المفهوم السائد لإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى الذى تغلغل فى الإدراك السائد فى «تل أبيب» عقب وصول «مناحيم بيجن» إلى السلطة، والذى لا يزال سائداً فى القيادات المسؤولة حتى هذه اللحظة.

أول هذه العناصر هو استخدام القوة والعنف. والواقع أن هذا العنصر ليس جديداً فى التقاليد اليهودية، هو رد فعل ثابت فى جميع مراحل التاريخ اليهودى، ولكنه يصل إلى القمة مع «مناحيم بيجن»، ولن نستطيع فهم حقيقة السياسة التى تبعتها إسرائيل منذ وصول «ليكود» إلى الحكم إلا إذا عدنا إلى الأقطاب الثلاثة الذين تحكموا فى السلطة السياسية خلال تلك الفترة. هم ثلاثة رغم اختلاف خصائص كل منهم، إلا أن الذى يجمعهم ويربط بينهم أمران أساسيان:

الأول ـ الطبيعة الإجرامية، **والثانى** ـ القناعة بالسمو والتفوق اليهودى.

فلنترك جانباً العنصر الثانى ولنقف إزاء العنصر الأول، ولو فى عجالة سريعة.. «مناحيم بيجن» إرهابى قديم، ماضيه الإجرامى أضحى موضع توثيق من جانب مؤرخين يهود لهم اعتبارهم... فلنذكر على سبيل المثال العالم الأمريكى «برينيز» وهو فى هذا أمين لتعاليم أستاذه «جابوتنسكى». كذلك «**إسحاق شامير» الذى خلف «مناحيم بيجن» فى عام 1983، والذى أضحى موضع الثقة أنه كان نازيا، وتعامل مع أنصار «هتلر» قبل الحرب العالمية الثانية**[1]**، ويكمل هذا «شارون» الذى ليس فى حاجة إلى تعليق. الأمر الذى يجب أن نضيفه، هو أن هذا الثلاثى كان لابد وأن يقود إلى مذابح «صبرا وشاتيلا»، والتى تعبر عن حقيقة مشاعرهم نحو الأرض العربية ومن ينتمى إلى تلك الأرض.**

فلنستمع إلى الحوار التالى الذى تم بين «مناحيم بيجن» والمحقق الإسرائيلى بخصوص جريمة الذبح التى ذهب ضحيتها حوالى 2000 من النساء والأطفال والشيوخ فى معسكر «شاتيلا».

قال «كالهان» رئيس لجنة التحقيق: هل أخبركم «شارون» بأى شىء بخصوص دور الكتائب؟

---

(1) للمعلومية : تسبب اليهود فى نشوب الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ونجحوا في إيهام الإنجليز أن الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا لابد أن تعود بالخير العميم، وخاصة بعد اقتسام المستعمرات الألمانية منها!! وتنخدع بريطانيا وتخوض الحرب: 1914 ـ 1918، وحقق أثرياء اليهود النتيجة الفعلية ـ لهذه الحرب أرباحاً خيالية على حساب دماء ملايين الإنجليز والأمريكان والفرنسيين، ولابد لنا من إيراد ما يثبت هذا الأمر؛ ليكن الدليل من أفواه اليهود أنفسهم... يقول اليهودى «أوسكال ليفى»: «الحرب الأولى قامت لتحقيق سيطرتنا على العالم... ثم يقول: العناصر اليهودية أساس الرأسمالية والشيوعية. نحن الذين اخترعنا حكاية الشعب المختار، والذين نصّبنا أنفسنا مخلِّصين للعالم، ونتباهى بخروج المسيح منا، لسنا اليوم سوى مفسدين له ومدمرين. نحن الذين وعدنا أن نقودكم إلى الجنة والسعادة، نقودكم فعلاً إلى الجحيم الجديد». «حقيقة اليهود» فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعى ـ الكويت ـ الصفا ـ ص 67؛ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. جارودى.

بيجن : ذلك الدور كان واضحًا . أن يحاربوا الإرهابيين ـ أى الفلسطينيين.

المحقق : طبقًا لما تقوله الآن، فأنتَ تعلم يوم الأربعاء صباحًا أن الكتائب كان عليهم أن يحاربوا.

بيجن : إذا كان وزير الدفاع قد أبلغنى ، فإننى قطعًا كنت أعلم.

المحقق : متى حدث لأول مرة أن نوقش معك موضوع الدور الذى كان يجب أن تقوم به الكتائب؟

بيجن : هذا عرفناه فى اجتماع مجلس الوزراء.

المحقق : ألم يكن مقتل «بشير الجميل» مما كان يجب أن يبعث على الاعتقاد بأنه فى ذلك الوقت ما كان يجب أن تدعى الكتائب للتدخل؟

بيجن : إن هذا لا يعنينى.

وهكذا بينما «بن جوريون» يلجأ إلى العنف كوسيلته الأخيرة وبشىء من الخجل جاء «مناحيم بيجن» ليجعل من استخدام العنف فخرًا يتغنى به فى كل مناسبة.

العنصر الثالث وهو ضرورة الإعلان الواضح الصريح عن الأهداف الحقيقية. وهذا أيضًا من تقاليد «جابوتنسكى» الذى اختلف مع «بن جوريون» فى الكشف عن حقائق الحركة الصهيونية بطبيعة الحال ـ مثل هذا التصور يضعف من حرية الحركة ومرونة التعامل التى هى أحد عناصر التقاليد الصهيونية. ولكنه أيضًا يفصح بوضوح عن الجمود الذى يميز حزب «حيروت». وليس علينا إلا العودة إلى خطاب «مناحيم بيجن» فى مواجهة «السادات» لنكتشف بوضوح هذا الجمود. والغريب أن هناك من القيادات العربية من لا يزال يتحدث عن إمكانية تحقيق سلم.(1) دائم وعادل مع هذه القوى المتحكمة فى القيادة الإسرائيلية على أن أخطر العناصر الجديدة التى يقدمها تكتل «ليكود» وهو اعتبار إسرائيل دولة شرق أوسطية.

لقد ظلت القناعة السائدة فى الإدراك القيادى أن إسرائيل دولة غربية، وتمثل الحضارة الغربية، قد زرعت فى قلب العالم العربى. عقب هذه الفلسفة تعيش اليوم تصورًا مختلفًا، فإسرائيل تنتمى تاريخيًا وحضاريًا إلى منطقة الشرق الأوسط. وهى لذلك دولة شرق أوسطية ومدعوة لتؤدى وظيفة قيادية فى تلك المنطقة: إنها تحضر عالم الشرق الأوسط

---

(1) لا ندرى أى سلام هو مع هؤلاء القوم الذين أثبت التاريخ أنهم لا عهد لهم ولا أيمان عندهم ولا حفاظ على ميثاق. وقد قال الله ـ عز وجل ـ عنهم وعن أمثالهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: 217)، ثم يأتى بعد ذلك من يقول: سلام.. دائم.. وعادل مع هؤلاء؟!

وتقوده إلى مستوى حضارى جديد، وهى بهذا ـ أى الدولة اليهودية ـ إنما تؤدى وظيفة اختارتها لها العناية الإلهية. وهذا هو دور القدس التى تحل تاريخياً موضع «روما» فى قيادة هذه المنطقة معها حضارة البحر المتوسط. وهكذا لم يعد كتاب «الدولة اليهودية» «لهرتزل» هو قاموس الصهيونية الجديدة، ولكن كتاب «موسى هس»: «روما والقدس» هو الذى يمثل عصر الفكر الصهيونى السائد.

العنصر الرابع ـ الذى يأتى ويكمل العنصر السابق، وهو توظيف مصر فى ذلك الإطار الإقليمى، أن تاريخ المنطقة هو صراع بين نموذجين. الأول المصرى، والثانى الإسرائيلى. منذ عام 1948 يقول أنصار هذا التصور فى الفكر الإسرائيلى: عاشت المنطقة صراعين أساسيين: صراع عربى ـ إسرائيلى، وصراع عربى ـ مصرى. الصراع الثانى كان محور رغبة مصر فى السيطرة على المنطقة فى عام 1967، فشلت مصر فى كلا الصراعين. لقد كان أمل مصر هو أن تجمع العرب تحت قيادتها، تهزم إسرائيل ثم تخضع العالم العربى لقيادتها. الفشل والسلم فتح أمام إسرائيل باباً جديداً. الصلح بين مصر وإسرائيل سوف يحرر مصر من الصدام مع إسرائيل، وهى من ثم تستطيع أن تحقق سيادتها على العالم العربى تحت مظلة إسرائيلية.

وهى بهذا تعيد قصة «إيران»، ولكن ليس لصالح «الولايات المتحدة»، ولكن لصالح إسرائيل، وليس من منطلق الهيمنة فقط، ولكن من منطلق التسلل والتوظيف الاقتصادى وغير الاقتصادى.

ولكن هل مصر والقيادات العربية على وعى بذلك ؟

ولنتذكر أن هذا التصور كشفت عنه مراكز الدراسات الاستراتيجية الأمريكية، وبصفة خاصة مركز «جون هوبكنز» منذ عام 1973 «فى الوثيقة رقم 20 التى وضعها العالم الأمريكى «ساموبل روبرنز».

العناصر الأخرى واضحة ليست فى حاجة إلى تفصيل.

الثابت والمتغير فى الفلسفة الإسرائيلية لإدارة الصراع:

والخلاصة التى يجب أن نقف أمامها بشىء من التدبر ، تنطوى نحو ثلاثة بنود أساسية:

أولا ـ فلسفة إدارة الصراع من الجانب الصهيونى لم تتغير منذ وجدت الدولة حتى اليوم إنها تخضع لقواعد واحدة فى جوهرها، وليست موضع خلاف حقيقى أياً كانت القيادة التى تسيطر على السلطة.

ثانيا ـ أن «مناحيم بيجن» أحدث نوعاً من إعادة التشكيل لهذه الإدارة، ولكن هذا لا

يتناول القواعد الإجرائية المتعلقة بالتعامل مع الوطن العربى. إنه يتناول فقط بعض الأبعاد المرتبطة بنظام القيم السائدة فى السياسة الإسرائيلية، وهى فى مجموعها تأكيد مبالغ فيه أو معالجة بتطرف لنفس القواعد التى سيطرت على مفاهيم «بن جوريون».

ثالثا ـ هناك ناحيتان رغم ذلك يبرز بخصوصها واضحًا الخلاف بين «بن جوريون ومناحيم بيجن» الأولى المتعلقة بالنظرة إلى إسرائيل على أنها دولة شرق أوسطية والثانية المرتبطة بتوظيف مصر فى التسلل إلى منطقة الشرق الأوسط. تحليل هاتين الناحيتين فى حاجة إلى وقفة تأمل أكثر تفصيلاً. ولكن الأمر الذى يجب أن ندخله فى الاعتبار. هو ضرورة الوعى بما يعنيه ذلك فى التصدى للجانب الصهيونى فى إدارة الصراع.

هذا الإدراك هو السائد أيضًا اليوم عقب اختفاء «مناحيم بيجن».

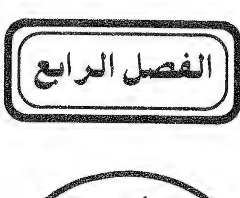
كيف التعامل معه؟

هذا هو السؤال الذى كان يجب أن يطرحه القادةالعرب من خلال لقائهم فى مؤتمر «الدار البيضاء».

فهل حدث ذلك؟

وما هى الإجابة العلمية التى يجب أن نقدمها لتلك القيادات؟

سؤال آخر لم تحن بعد الإجابة عليه».



الفصل الرابع

مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع
العربى - الإسرائيلى

كيسنجر .. وتحقيق أهدافه

المبحث الأول : كيسنجر.. وسياسة الخطوة.. خطوة

المبحث الثاني : كيف حقق كيسنجر أهدافه



المبحث الأول

كيسنجر وسياسة الخطوة .. خطوة

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«الصراع العربى ـ الإسرائيلى متعدد الدوائر، ومن ثم متعدد الأطراف المتعاملة، وهو كذلك فقد اجتاز مراحل متعددة، وكل منها تملك مذاقها المتميز، ولذلك فإن دراسة هذه النماذج تطول، وهى فى حاجة إلى مؤلفات عدة. والغريب ـ رغم كثرة ما كُتب عن هذا الصراع ـ فإن دراسة واحدة تتناول تلك النماذج المتعددة بالدراسة العلمية الموضوعية **بقصد اكتشاف السلوك القيادى فى التعامل وإخضاعه لدراسة مقارنة، بقصد اكتشاف المتغيرات الدفينة المتحكمة فى إدراك ذلك الصراع.** لم يُقدّر لها حتى الآن الوجود، والأمر الأكثر خطورة أنه من الجانب العربى لم يحاول أى جهد حقيقى، أن يتخطى ذلك الضباب الذى يحيط بموضوع هذه الإدارة لاكتشاف نواحى النقص ونواحى القوة، التى قد يتميز بها ذلك التعامل، رغم ذلك فمجموعة من الحقائق يجب أن نسلم بها منذ البداية:

أولا ـ الصمود العربى كان ولا يزال قاطعًا صريحًا، لم يكن قادة الصهيونية الذين أسسوا البنيان الفكرى قبل إنشاء الدولة يتوقعون هذه الإرادة العربية ـ التى رغم جميع ما أحاط بها من عناصر للتفتيت ـ تظل صامدة حتى هذه اللحظة بقوة، ولو دون اقتدار. المنطقة عرفت ستة حروب، ومع ذلك لم تستسلم، وإذا كانت قد استسلمت بعض القيادات، فإن الشعوب لا تزال وهى عزلاء إلا من إيمانها وثقتها فى ذاتها، صامدة ثابتة فى موقف التحدى.

ثانيا ـ أن النماذج القيادية ـ التى عرفتها المنطقة ـ لم ترتفع إلى مستوى الموقف. ولا نقصد بذلك فقط القيادات الإسرائيلية. فإذا **استثنينا** «**بن جوريون**» فإن الجانب الصهيونى لم يقدر له قائد واحد يستطيع المؤرخ أن ينظر إليه بثقة وإعجاب، ولو كان عدواً.

«أشكول» رجل متردد لا يعرف كيف يقود أمته حتى وهى منتصرة.

«**جولدا مائير**» أقرب لأن تصلح لتدير مطعماً من أن تجلس على رأس دولة تريد أن تنشئ إمبراطورية.

أما الثلاثى الذى عرفناه أخيراً بين «مناحيم بيجن، وشامير، وشارون»، فهم رؤساء عصابة لقطع الطريق، وليس لبناء وظيفة حضارية. ولعل هذا هو السبب الحقيقى فى جعل «مناحيم بيجن» يفضل الانسحاب ليقضى بقية حياته فى عزلة قاتلة، وكما أن العالم العربى لا زال فى حاجة إلى قائد، فإن إسرائيل فى أشد الحاجة لمن يقودها، وذلك رغم أن خير من تولى إدارة الصراع خلال العشرين سنة الماضية هو «مناحيم بيجن» لنسرع فنؤكد أن قوة نموذجه ليست فى أصالته، ولكن فى تجانسه من جانب، وفى احترامه لتقاليد دولته من جانب آخر.

ولكن هل كل ذلك يخلق قائداً حقيقياً؟

ثالثا ـ على أننا نستطيع أن نستثنى من ذلك شخصاً يأتى من خارج المنطقة، بل ومن خارج الأطراف الحقيقية للصراع، حيث يقدم تدخله نموذجاً يجب أن نعى معناه، وهو « **كيسنجر» هو طرف ثالث، وأنه يتعامل مع الصراع من الخارج، أو بعبارة أدق: من خلال التطويع والتحكم فى الأطراف المتعاملة مباشرة مع الصراع.**

من الطبعى أن نتساءل: من هو القائد المثالى لإدارة الصراع ـ بغض النظر عن الطرف الذى يمثله أو الدائرة التى يتعامل معها؟

خمسة شروط أساسية :

أولا ـ المعرفة المسبقة الواضحة بالأهداف.

ثانيا ـ المعرفة الحقيقية بالإمكانيات.

ثالثا ـ التوظيف المقنن المتدرج للإمكانيات فى سبيل تحقيق الأهداف.

رابعا ـ القدرة على تكتيل الإمكانيات فى مسار الاستراتيجية العامة للتعامل.

خامسا ـ الصلاحية للتمييز الواضح بين الخطوة التكتيكية فى مراحل التعامل والاستراتيجية العامة الكلية الشاملة للتعامل.

«كيسنجر»(1) كوزير خارجية للولايات المتحدة، وكمتعاطف مع الدولة اليهودية، استطاع

---

(1) «كيسنجر» ذلك الرجل اليهودى: قام الأستاذ الدكتور حامد عبدالله ربيع بتحليل شخصيته وأسلوبه فى التعامل مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وطريقة إدارته لهذا الصراع وعنونه: كيسنجر وفن الخطوة.. خطوة: والدارس لطريقة إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى عند كيسنجر يجد أنه كان فناناً فى إدارته للصراع اليهودى مع العرب؛ لأنه وضع لنفسه خطة استراتيجية مسبقة قبل أن يركب طائرته من أمريكا متجهاً إلى الشرق الأوسط صباح يوم 5 نوفمبر عام 1973، وكانت استراتيجيته تعتمد على خمسة مبادئ: =

أن يرتفع إلى القمة فى تعامله مع الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

الأول ـ بدلاً من تضييع الوقت فى البحث عن خطوط وقف إطلاق النار فى 22 أكتوبر، فإن الأفضل إقناع مصر بأن تتقدم مصر مباشرة إلى **خطوة بعيدة**، وهى الاتفاق لفك الاشتباك بينها وبين إسرائيل.

الثانى ـ تثبيت مواقع القوات لكل من الجانبين، وضمان التزامها بوقف إطلاق النار، ثم قبول دور «كيسنجر» كصانع للسلام!!

الثالث ـ أنه ينبغى إرساء مبدأ أن الولايات المتحدة وحدها ـ وليس الاتحاد السوفيتى المشاكس ولا أوربا ـ هى التى تمسك بمفاتيح السلام.

الرابع ـ أنه بدلاً من البحث عن تسوية شاملة لكل جوانب الصراع العربى ـ الإسرائيلى لابد من تحقيق واعتماد سياسة **الخطوة.. خطوة**، بحيث تجرى مفاوضات ثنائية لتحقيق هدف محدد يتم الوصول إليه بقيادة أمريكية. مفاوضات ثنائية مع مصر.. ثم مع سوريا.. ثم مع الأردن، ثم تؤجل جميع القضايا الحساسة إلى آخر المراحل!! ومنها مشكلة الفلسطينيين، ومسألة حدود إسرائيل النهائية!!

الخامس ـ أن الولايات المتحدة و«كيسنجر» بالذات هى التى تقوم بالتفاوض، مع أطراف الصراع بدون مشاركة الاتحاد السوفيتى. «أكتوبر 1973 السلاح والسياسة» محمد حسنين هيكل ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط 1 القاهرة : 1993، ص 726.

ومن هنا نقول: إن «هنرى كيسنجر» عندما فكر أو صدرت إليه الأوامر الأمريكية اليهودية بالتدخل كمفاوض.. أو كصانع سلام.. أو بطبيعته اليهودية، لم يتورع أن يجمع المعلومات عن الطرف الآخر ـ طرف الأزمة الرئيسى ـ أى العربى ـ المصرى، فعرف من أين يؤكل الكتف كما يقولون فى الأمثال!!

حينما أراد التعرف على شخصية المفاوض «أنور السادات» ذهب إلى الملك الحسن ملك المغرب. فقال محمد حسنين هيكل: «وركب «هنرى كيسنجر» طائرته من «واشنطن»، وعبر المحيط متوقفًا فى الرباط أولاً لمقابلة تمهيدية مع الملك الحسن، الذى كان قد التقى به قبل عدة مرات، وأنشأ علاقات وثيقة معه من موقعه كمستشار للأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة. وأثناء لقاء «كيسنجر» بالملك طلب إليه ـ بتواضع شديد ـ أن يعطيه درسًا فى مادتين:

* كيف يستطيع أن يزيل شكوك العرب فى كونه يهوديًا، ومع ذلك فهو الآن مسؤول عن حل صراعهم ـ العرب ـ مع إسرائيل؟، وكيف يقنعهم بحسن نواياه؟ وكيف يتفاوض معهم بدون عقد؟
* ثم كيف يتعامل مع الرئيس «السادات» وهو أول من يتفاوض معه من الزعماء العرب؟ فضلاً عن أنه رئيس أكبر دولة عربية، كما أنه الطرف الأكبر فى الحرب التى لا تزال دائرة بين العرب وإسرائيل؟.

وقال «كيسنجر»: إن رأيًا سابقًا له فى الرئيس «السادات» كان يجنح إلى التهوين من قدره ـ من شأنه ـ وهو يعلم أن وصفه الشهير لـ «السادات» كـ «بهلوان سياسى» قد نُقل بالفعل إلى الرئيس المصرى، وتلقى «كيسنجر» درسه الأول فى التعامل مع قائد عربى. وبعده طلب «كيسنجر» من الملك الحسن أن يتصل بالرئيس «السادات» بسرعة، وقبل لقائه معه «يوصيه به خيراً.. بزائره اليهودى!!» راجع المصدر السابق، ص 658.

هذا هو فن إدارة الأزمات، **جمع المعلومات، تحديد الهدف والمنهج والوسائل**. وكانت منهاجية الخطوة خطوة للاقتراب من المفاوضات. اقرأ كتاب «عندما يبقى السيف الحكم»؛ مذكرات «موشى دايان»؛ لعبة الأمم والسادات؛ الطريق لبيت المقدس، ج 3؛ رسالة الدكتور حامد ربيع إلى الملك الحسن، الكتاب الخامس من سلسلة نحو وعى دينى واستراتيجى وتاريخى «سوف أظل عربياً».

كيف كان ذلك ؟ وهل منهاجيته هى التى تتفق مع مصالحنا العربية ؟ هذه هى الأسئلة التى يجب أن نطرحها ونسعى للإجابة عليها.

منهاجية الخطوة خطوة وإدارة الصراع التفاوضى :

قبل أن ننطلق فى تحليل الإطار الحقيقى للصراع العربى ـ الإسرائيلى، وكيف تدخّل فى إدارته «كيسنجر»، يجب أن نسرع فنحدد معنى كلمة: **دبلوماسية الخطوة خطوة**، وهى التى نسبت إلى الوزير الأمريكى على أنها أسلوبه فى التفاوض لإدارة الأزمات، وبصفة خاصة فى كل ما يتعلق بإدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، خلال الأعوام اللاحقة مباشرة لانفجار القتال فى المنطقة عام 1973.

أول ما يجب أن نلاحظه أن موضوع الخطوة خطوة ليس أسلوباً لإدارة الصراع فى معناه الحقيقى، ولكنه منهاج للاقتراب من المفاوضات. إنه منهاجية فى التعامل من جانب أحد أطراف التفاوض. بهذا المعنى فقط يمكن الحديث عنه ونحن نتعرض لإدارة الصراع. التعامل التفاوضى فى حقيقة الأمر يعرف منهاجية من اثنين، وخصوصاً عندما يكون التفاوض حول موضوع معقد ترتبط به مشاكل متعددة. أسلوب الخطوة خطوة وأسلوب الصفقة الشاملة، أسلوب كل من الأسلوبين له مزاياه وله عيوبه.

أسلوب الخطوة خطوة، يعنى تجزئة الخلاف إلى جزئيات، كل منها تحتفظ باستقلاليتها الحركية، والبدء بأقل تلك الجزئيات مدعاة للخلاف. وكلما انتهينا من جزئية انتقلنا إلى أخرى أكثر تعقيداً، وأكثر احتمالات فى التصادم حول التصورات المختلفة بخصوص حلها، وهكذا ننتقل من جزئية لأخرى. مثل هذا الأسلوب له **مزايا معينة**:

أولا ـ خلال فترة معينة يستطيع كل طرف متفاوض أن يسبر أغوار الطرف الآخر، ومن ثم يخلق علاقة إنسانية بين الأطراف المتعاملة حول مائدة التفاوض.

ثانيا ـ أن هذا الأسلوب يسمح بتخفيف الشحنة الانفعالية من العداوة من جانب الطرفين ـ بحيث ينتهى بهما ـ فإذا بالتعامل منطقى بارد، يتجرد من المواقف الجامدة المسبقة على الجلوس حول دائرة المفاوضات.

ثالثا ـ هذا الأسلوب يسمح بتحقيق أهداف دعائية، فهو طالما يبدأ بنقاط التقارب فيها ـ ممكن ـ وهى ليست مدعاة للخلاف العنيف ـ فإن قائد العملية التفاوضية يستطيع أن يزعم النجاح، ويحصل من ثم على قسط من الدعاية لنفسه أو لفريقه، وهو فى الحقيقة لم يحقق أى نجاح.

ولكن عيوبه الخطيرة تنبع من نقطة أساسية. وهو أن هذا الأسلوب لابد وأن يتوقف عند حد معين، ولا يستطيع أن يتعدى محوراً محدداً، عندما تصل المفاوضات إلى المحاور

الحقيقية للخلاف، حيث هناك حد معين لا يجوز أن يتخطاه المتفاوض، وبصفة خاصة فى الصراعات التى يكون فيها الموقف، وهو لا يعنى سوى أمر واحد، إمّا الحصول على الكل أو ترك الكل.

أسلوب الخطوة خطوة أقرب إلى التعامل التجارى ـ وهو ليس جديداً ـ بل تعودت الدبلوماسية البريطانية على اتباعه، حيث تحقق أهدافًا معينة، وبصفة خاصة مع الدول المُسْتَعمرة:

أولا ـ تورط الطرف الآخر الذى إذا حدث فى لحظة معينة أن تراجع، فهى تحمله مسؤولية الفشل فى التفاوض.

ثانيا ـ تكتسب مهلة من الوقت تستطيع خلالها أن تحقق أهدافًا لها ميدانية بعيدة عن طاولة المفاوضات.

ثالثا ـ تخلق نوعًا من الارتباك فى الطرف المتفاوض، بحيث تستطيع أن تخلق ارتباكًا فى نظرته وأهدافه من التفاوض، عندما تطرح مشاكل جانبية أو إجرائية، وتجعلها محوراً أساسياً للتعامل التفاوضى.

بصفة عامة أسلوب الخطوة خطوة لا يجوز أن ننصح به للطرف الضعيف فى الموقف التفاوضى. إن كل خطوة هى تنازل، وعندما تبدأ التنازلات، فإن الطرف الضعيف يشعر بأنه فى موقف الاستسلام، الأمر الذى يزيد من ضعفه ولو نفسياً.

الأسلوب الآخر والذى يختلف عن هذا الأسلوب اختلافًا جذريًا، هو أسلوب الصفقة الشاملة، ومعنى ذلك أن الطرف المتفاوض يطرح موضوع التفاوض كاملاً ودفعة واحدة، وعلى الطرف الآخر أن يتقبل ما يُعرَض بما فيه من عيوب ومزايا، أو يرفض العرض بكل ما يتضمنه. هذا هو الأسلوب الأكثر صلاحية فى أى تفاوض معقد؛ لأنه وهو يدور حول مشكلة مركبة، فإنه يتكون من عدة عناصر، ويجب أن يتضمن من ثم، العرض، نوعًا من التوازن بين عناصر الموقف، بحيث إن التراجع فى ناحية لابد وأن يواجهه تقدم من ناحية أخرى تنازلات متتابعة. هذا الأسلوب ـ ورغم أنه هو الذى يتبعه المتفاوض القوى، وبصفة خاصة عندما يواجه موضوعًا مركبًا، ويكون هو فى موقف الضعف ـ يفترض مجموعة من المتغيرات لنجاحه:

أولا ـ وضوح الرؤية لجميع عناصر المشكلة من جانب الطرف المتفاوض، بحيث إن ديناميات كل جزئية تنصهر فى علاقة بالتكتيكية فى إطار العمل الكلى التفاوضى.

ثانيا ـ تماسك الجبهة المتفاوضة، فهى لا تفقد قدرتها على المتابعة والمناورة على مائدة المفاوضة بصبر وأناة، فضلاً عن التنسيق الحقيقى بين أعضاء تلك الجبهة.

ثالثا ـ قلة أعداد الطرف المتفاوض مع مساندة كاملة من الدولة التى يمثلها الطرف المتفاوض، بحيث لا يشعر فى أى لحظة أن ظهره لا تحميه دولة حماية كاملة.

رابعا ـ قدرة قائد الطرف المتفاوض على التلاعب بالطرف الآخر، وبالموقف بجميع العناصر التى تسمح بها العلاقات الإنسانية. ليس فقط قدرة على إطلاق الإشاعات والتظاهر باتخاذ قرارات حاسمة فى تأثيرها على سير المفاوضات، بل وتقديم مساعدين يقومون بأدوار معينة قد تقود إلى تصفيتهم من جانب، وقد تفرض عليهم مواقف غير أخلاقية من جانب آخر.

الأسلوب اليابانى :

أسلوب الصفقة الكاملة يعنى حربًا حقيقية، ولكن فى قاعة التفاوض، وحول تلك القاعة. هذا الأسلوب هو الذى اتبع فى مفاوضات «فيينا» عقب هزيمة نابليون. وكذلك هو الذى اتبعته «اليابان» فى تعاملها مع الولايات المتحدة عقب هزيمة «طوكيو» فى الحرب العالمية الثانية. كانت تأتى البعثة الأمريكية المكلفة بإنهاء حالة الحرب، وتنظيم العلاقات اليابانية الأمريكية، وقد حدد لذلك فى جولة مباحثات مدة ثمانية أيام. وما أن يصل الوفد المتفاوض عقب رحلة طويلة من «واشنطن» عبر المحيط الهادى، حتى يجد أمامه برنامجًا حافلاً ـ اليوم التالى لوصوله رحلة خلوية ـ وهى فى حقيقة الأمر تسلق للجبال خارج «طوكيو» يعود بعدها الطرف الأمريكى، وقد تفككت جميع مفاصله. فى اليوم التالى زيارة للملاهى فى «طوكيو»، حيث تتولى فتيات «الجيشا» الإكمال على أبناء العم سام. يجلس عقب ذلك المتفاوضون الأمريكيون وقد أصاب جسدهم التحلل الحقيقى، أمام زملائهم اليابانيين، وقد تحول هؤلاء إلى أصنام صامتة. ويبدأ الأمريكيون فى الحديث، ولا يفعل أبناء الشعب الأصفر سوى هز رؤوسهم والاستماع بأدب، وفى اليوم التالى ينقلب هذا الصمت إلى حركة، فكل كلمة قيلت يعقبها فى اليوم التالى سلسلة طويلة من التساؤلات والاستفهامات. وهكذا يستمر الأمر، فإذا بالأيام الثمانية قد انتهت دون أى موقف يعبر عن ارتباط أو تعهد، وتنتهى الجلسة بأن يؤكد رئيس الجانب اليابانى بسعادته لما سمع وتعهده بالدراسة الجادة استعداداً للجولة التالية. ويعود أبناء العم سام إلى «واشنطن» بخفىّ حنين. ظلت هذه التمثيلية بأساليب مختلفة عدة سنوات، حتى أن الطرف الأمريكى جاء يعلن: قولوا لنا ماذا تريدون ونحن موافقون ولن نناقش فى طلباتكم.

وهكذا كسبت «اليابان» جولتها مع الولايات المتحدة، واستطاعت أن تحول هزيمتها العسكرية إلى نصر دبلوماسى، **فهل يستطيع الجانب العربى أن يفهم معنى ذلك؟**

كيسنجر ونظرية إدارة الصراع ـ المبادئ العامة :

لنستطيع أن نفهم إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى من جانب «كيسنجر» علينا أن

نتذكر منذ البداية حقيقتين: **الأولى** ـ أن «كيسنجر» هو مُنظِّر أكاديمي، وليس مجرد مفاوض متمرس. **والثانية** ـ أن «كيسنجر» هو طرف أجنبي أو ثالث أو غير مباشر، ولكن كلا الطرفين ـ أى إسرائيل ومصر ـ قد مكنته من أن يصير طرفًا مباشرًا، ومن ثم قائدًا للصراع. الناحية الأولى تفسر كيف أن «كيسنجر» ينطلق من تصورات مجردة وقد أخضعها لمفاهيم مقننة، ومهما قيل عن أنه واقعي، فهو يحاول من خلال هذه الواقعية أن يتأكد من صحة نظرياته وتجرداته الفكرية. **الناحية الثانية** ـ تؤكد منذ البداية عن حقيقة فشل كلا السياستين المصرية والإسرائيلية، وهو فشل أكثر وضوحًا ـ فى الجانب المصرى منه فى الجانب الإسرائيلى ـ حيث الأول فى عام 1973 عندما دعى «كيسنجر» للتدخل كان الطرف الأكثر قوة، لأسباب عديدة سوف نراها فيما بعد... نقطة البداية التى يجب أن نطرحها **كيف تصور «كيسنجر» إدارته للصراع الدولى؟** ما هو **مفهومه فى إدارة الصراع، وما هى أدواته فى ذلك؟**

ينبع مفهوم «كيسنجر» من ستة عناصر تتكامل فى تعامله مع أى موقف بقصد التلاعب به، والوصول من خلاله إلى تحقيق أهداف:

أولا ـ مبدأ السرية فى جميع مراحل التعامل التفاوضى. وهو مبدأ معروف وطبق من جانب جميع كبار المتفاوضين. وهو يصل فى هذه السرية إلى حد لم يجاريه فيه أحد، فهو يحدث كلا بلغة مختلفة، وهو يطلق أقوالاً متناقضة ومتضاربة، بل هو يتعمد التضليل، وهدفه الحقيقى من ذلك: أن تظل أفكاره الحقيقية محاطة بضباب كثيف لا يكشف عنه إلا بنفسه وفى اللحظة التى يريدها. وهنا نلحظ بوضوح الفارق بينه وبين «السادات» الذى كان كثير الحديث وليس فقط بمعنى استخدام الكلمة بمناسبة وغير مناسبة، بل والإفصاح عما دار بينه وبين الأطراف الأخرى المتفاوضة، وهذا ليس مما يعنى قوة، ولكنه يعكس عدم دراية بحقيقة التفاوض.

ثانيا ـ وهو خبير بالتلاعب بالأطراف المتعاملة، بل وبرع فى ذلك. هو يسعى بكل إمكانياته بأن يضع كل طرف فى مواجهة الطرف الآخر. بعد أن يورط الطرف للتعامل، ويجعله فى حاجة إلى مساندته. ظاهرة التلاعب بشرط أن تكون مستورة غير صريحة تعطى للمفاوض قوة، ولكنها تعرضه ـ وبصفة خاصة وهو طرف ثالث ـ إلى أن يفقد الثقة فى الطرف المتعامل «كيسنجر» لم يقع فى هذا المطب وبصفة خاصة؛ لأنه كان سريع الخطوات، ولو أنه ترك الوقت يفسح مجالاً لإبراز اللغة التى كان يمارسها، لكان انتهى بفقد الثقة من الأطراف المتعاملة أو على الأقل من أحد هذه الأطراف، ولعل خير دليل على ذلك هو موقفه من إسرائيل فى الإدراك المصرى، وبصفة خاصة فى إدراك الرئيس «السادات». لقد ظل الرئيس المصرى حتى آخر لحظة، وخلال أكثر من عامين وهو فى قناعة

مطلقة أن «كيسنجر» كان يتخذ موقف الحياد مع إسرائيل، بينما وباعتراف نفس «كيسنجر» عقب ذلك كان موقف الوزير الأمريكى هو التحيز الكامل لـ «تل أبيب»، وهو لذلك:

أ- عمل بكل إمكانياته على دق إسفين بين الرئيس «حافظ الأسد والرئيس السادات»، ونجح فى ذلك.

ب- وهو حاول أن يجذب إلى جانبه كلا من «الجزائر، والأردن، والسعودية» لتليين موقف الرئيس «السادات» فى حالات التصلب، وقد نجح فى ذلك، ورغم أن حاجته لذلك لم تكن قوية.

ثالثا ـ وهو يؤمن بأن النجاح فى التعامل التفاوضى ـ وبصفة خاصة من طرف ثالث ـ يقوم على مبدأ التوازن فى المواقف. وهو لذلك يبحث دائمًا عن نقطة الضعف فى كل قوة متعاملة، ويستغل ذلك بأقصى قوة. لقد كانت الأطراف التى يتعين عليه التعامل معها أربعة:

أ- مصر ورئيسها «السادات».

ب- إسرائيل ومجلس الوزراء الإسرائيلى.

جـ- القوى اليهودية الأمريكية والمؤيدة والمساندة لـ «تل أبيب».

د- الدول العربية والتى كان من الطبعى أن تقف إلى جوار مصر.

استخدم مع كل دولة نقطة ضعف، فمصر كانت العقدة التى سيطرت على قيادتها ـ هى موقف الجيش الثالث ـ وحالة الحصار التى كان يعيشها، مع ما يعنيه من إمكانية استئصاله أو احتمال ذلك.

إسرائيل من جهة أخرى فى حاجة إلى المعونة الاقتصادية والمرتبطة بتقديم السلاح. القوى اليهودية الأمريكية تجد أمامها مشروعًا آخر، وهو كيف أن هذه الأقلية قد رجحت كفة الولاء لإسرائيل، دولة أجنبية على مصالح الدولة الأم الولايات المتحدة الأمريكية. أما الدول العربية فهناك أكثر من ورقة: الخطر الشيوعى من جانب، وخطر الهيمنة المصرية من جانب آخر.

وهكذا كانت استراتيجية «كيسنجر» إضعاف الطرف المتعامل قبل أن ينازله على مائدة المفاوضات.

رابعا ـ استخدام أساليب العلاقات العامة فى إدارة التفاوض ـ وبصفة خاصة فى علاقته بالأطراف المتعاملة كأفراد. فهو لا يقتصر على التلاعب بالموقف، بل يُتْقِن فن التملق

ولو من خلال الكذب، ووصف الطرف الذى يصارعه بما يسمح له بتطويع الإرادات. وهو بعبارة أخرى يدرس الطرف المتعامل، وعندما يكتشف نقطة الضعف لا يتردد فى أن يضغط بكل قوته ـ من خلال التملق ـ بحيث يستطيع فى النهاية أن يضمن ـ ولو فى حد معين ـ درجة من الاستسلام. وقد أتبع ذلك بصفة خاصة مع القيادات العربية ـ مع الرئيس «السادات»، ومع «إسماعيل فهمى» وزير خارجيته، ثم مع الرئيس «الأسد»، بل وحاول أن يستخدمه فى تعامله مع الملك فيصل الذى واجهه ببرود وتعال اعترف معه نفس «كيسنجر» أنه أصابه بالاضطراب.

خامسا ـ على أننا لو حاولنا البحث عن خفايا النظرة التى سيطرت على «كيسنجر» فى إدارته الحقيقية للصراع، لوجدناها تتمركز حول عنصرين أساسيين:

الأول هو : العلاقة الوثيقة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، وحيث تصير الثانية امتداداً للأولى. لم يكن يؤمن بإمكانية الفصل بين البعدين من السياسة القومية، ويؤمن بأن السياسة الخارجية ليست إلا أداة من أدوات تنفيذ السياسة الداخلية. هذه القناعة هى التى حددت أسلوبه فى التعامل سواء مع «السادات» أو مع الدولة اليهودية.

سادسا ـ العنصر الثانى : والذى يرتبط مباشرة بعملية إدارة الصراع، فيتلخص فى أن أى صراع لا يمكن التدخل فيه إلا وهو فى أقصى حالات التوتر. التعامل مع الصراع يتم والحديد ساخن. فى غير ذلك الموقف لا موضع للتعامل مع أى صراع دولى أو إقليمى، وكلما ارتفعت حدة التوتر كلما سهل التعامل مع الأزمة. يقول «كيسنجر»: إن الموقف بمثابة بِركَة آسنة، وعلى مدير الصراع أن يلقى فيها بحجر ضخم، فإذا بجميع العناصر التى تحتويها تتحرك، وبنظرة فاحصة يكتشف القوى المتحكمة، ومن ثم يمتطيها ليقود الصراع. كيف طبق هذه المبادئ على الصراع العربى ـ الإسرائيلى؟ هذا هو السؤال الذى يجب أن نحاول الإجابة عليه.





تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«نقطة البداية فى هذا التحليل ـ ولنستطيع أن نخلص إلى القول بنجاح «كيسنجر» فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى ـ هو تحديد الأهداف الأمريكية أولاً، ثم الإجابة على التساؤل الآخر: كيف حقق «كيسنجر» تلك الأهداف؟ وما هو الثمن الذى دفعه فى سبيل تحقيق أهدافه؟

أهداف «كيسنجر» ـ والتى هى أهداف الدبلوماسية من التدخل فى إدارة الصراع، ابتداء من حرب أكتوبر كطرف مباشر وأصيل فى التعامل بين الأطراف المتصارعة ـ تتحدد بالعناصر الستة التالية بالترتيب التصاعدى من حيث الأهمية:

أولا ـ إخراج الاتحاد السوفيتى نهائيًا من المنطقة، واستبعاد نفوذه من أن يكون فاعلاً فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

ثانيا ـ إخضاع المنطقة للسيادة الأمريكية، بحيث تنتشر فوقها مظلة «واشنطن».

ثالثا ـ إنهاء حظر البترول، وإخراج هذا السلاح نهائيًا بقدر المستطاع من التعامل الصراعى فى المنطقة.

رابعا ـ تحطيم التضامن العربى أو على الأقل تقليص فاعليته.

خامسا ـ تحجيم إسرائيل فى علاقتها بالولايات المتحدة.

سادسا ـ إعطاء إسرائيل فرصة لاسترداد النفس، تسمح لها ببناء قوة تستطيع أن تتحكم فى المنطقة لصالح «واشنطن».

فهل حقق «كيسنجر» هذه الأهداف؟ وهل دفع لذلك ثمنًا باهظًا؟

هذا هو المحور الحقيقى لتحليل نموذج «كيسنجر» فى إدارة الصراع.

هل فوجئت إسرائيل بحرب رمضان:

الفكرة السائدة ـ والتى لا تزال تتداول فى الفقه الدولى ـ أن حرب رمضان كانت مفاجئة للطرف الإسرائيلى، وكذلك للجانب الأمريكى. لم تتوقع هذه الحرب الأطراف المعنية إلا قبل وقوعها بعدة ساعات، وهم لذلك يبررون ـ يبررون فى قسط معين ـ الهزيمة التى أنزلتها القوات المصرية بالقوات الصهيونية. ولكن الواقع أننا على مبعدة خمسة عشر عامًا من الحرب، **نستطيع أن نؤكد أن جميع الوقائع الثابتة تؤكد أن هذه الأطراف كانت على علم بالحرب**،ولكنها لم تتوقع النجاح المصرى السورى، والذى كان هو المفاجأة الحقيقية، ورغم أن هذا قد يبدو بعيداً عن موضوعنًا إلا أنه نقطة أساسية فى فهمنا لإدارة الصراع من جانب «كيسنجر»، فلنتتبع أولاً الوقائع:

1 ـ نوفمبر 1972 وعقب إعادة انتخاب «نيكسون»، وفقط عقب أربعة أشهر من طرد الخبراء السوفييت، نجد الرئيس «السادات» يتوجه فى خطاب وصلت تفاصيله إلى «واشنطن» يطلب من موسكو عتاداً عسكريًا متقدمًا، يسمح لمصر بشن حرب على إسرائيل. الرد على هذا الخطاب من بريجنيف إلى «السادات» كان بالرفض، حيث يؤكد رجل الدولة السوفيتى، أن الشعب الروسى يساند سياسة الوفاق وينصح «السادات» بقبول الموقف القائم.

2 ـ فى 14 نوفمبر وعقب الرد السوفيتى أعلن الرئيس «السادات» أمام المجلس الأعلى للاتحاد الاشتراكى، أن مصر سوف تشن حربًا ضد إسرائيل فى خلال عدة أشهر لن تتجاوز عامًا من ذلك التاريخ.

3 ـ فى 23 فبراير يقابل «حافظ إسماعيل» كلاً من «نيكسون، وكيسنجر»، للتأكد من رغبة الولايات المتحدة فى الضغط على إسرائيل للانسحاب من الأراضى المحتلة، ولكن تأتى زيارته بنتائج سلبية، بل ومخيبة لكل أمل ممكن.

4 ـ فى أول مارس تصل رئيسة مجلس الوزراء الإسرائيلى «جولدا مائير» لتخبر الرئيس «نيكسون» بتمويل السلاح لمصر من الجانب السوفيتى، ولتطالب بتقديم ما يعوضها عن ذلك للاحتفاظ بالتوازن، ويتعهد لها «نيكسون بتقديم ثمانية وأربعين مقاتلة «فانتوم».

5 ـ عقب الإعلان عن هذه الصفقة فى 15 مارس بدأت تحركات «السادات» نحو اثنين من القادة العرب، وهما: «حافظ الأسد، والملك فيصل»، وقد ارتبط بذلك بزيارات ولقاءات من خلال وسطاء لم تمر دون أن يلحظها المراقبون. وواضح أهمية القائدين، فـ «حافظ الأسد» يستطيع أن يخلق الكماشة، و«فيصل» هو سيد الموقف فى كل ما يتصل باستخدام البترول كسلاح فى المعركة.

6 ـ فى أوائل أبريل نجد «السادات» فى لقاء مع رئيس تحرير مجلة «النيوزويك» يجيب

على أحد الأسئلة بعبارات ذات مغزى: المرء يجب أن يقاتل ليستطيع أن يتحدث، ثم يعود فيؤكد كل شيء فى هذه الدولة قد تمت تعبئته من أجل العودة إلى القتال، الذى أضحى لا مفر منه.

7 ـ فى أوائل مايو يعود «الأسد» من رحلة سريعة إلى «موسكو»، وعقب ذلك كشفت وكالات الأنباء عن عملية توريد ضخمة للسلاح المتقدم منها الدبابة ت ـ 62، و40 طائرة مقاتلة ميج 21 دون الحديث عن أنواع أخرى من السلاح المتطور، بما فى ذلك شبكة كاملة للدفاع الجوى عن «دمشق»، وقد علق على ذلك «كيسنجر» بوصفه أنه تصرف غير مسؤول.

8 ـ فى 12 يونيو يطير «السادات» إلى دمشق لمشاورات عاجلة، حيث تم الاتفاق بين الرجلين على شن الهجوم فى أوائل الخريف. وعقب مناقشات طويلة تحددت الأهداف التى ظلت تحوط بها السرية، ولكن هذه الزيارة الفجائية التى لم يشترك فيها أحد سوى الزعيمين تلفت الأنظار.

9 ـ خلال الصيف، وعقب ذلك اللقاء بين الرئيسين ـ أى خلال قرابة ثلاثة أشهر متتالية ـ فإن الزيارات المتبادلة بين القيادات السياسية والعسكرية لم تنقطع من الجانبين، وذلك مع استمرارية وصول كميات ضخمة من السلاح، سواء إلى «دمشق، والقاهرة».

10 ـ فى 10 ديسمبر يصل «الملك حسين» إلى «القاهرة» للمناقشة فى مدى مشاركته فى الحرب المقبلة، وفى لقاء قمة استغرق يومين مع كل من «السادات، والأسد» نوقشت هذه المشاركة، والتى انتهت بأن تكون محددة، بمعنى عدم الانضمام إلى «القاهرة ودمشق» فى عملية الهجوم على إسرائيل، ولكن تكتفى «الأردن» بخلق حالة خوف، ومن ثم تبعد قسماً من القوات الإسرائيلية، وتفرض عليها التعبئة فى مواجهة الحدود الأردنية، ومن ثم منعها من المشاركة فى المعركة، فضلاً عن منع أى تحرك أو هجوم ضد «سوريا» من الجنوب.

11 ـ فى 13 سبتمبر تتعمد السلطات الإسرائيلية تحدى القدرات البرية السورية، تدفع طيرانها العسكرى باختراق المجال الجوى السورى، وقد تصدى للطائرات الطيران السورى الذى فقد فى المعركة ثمانى طائرات، بل وبعض التقارير ترفع العدد إلى ثلاث عشرة طائرة فى مواجهة هذه الخسارة لم تفقد «تل أبيب» سوى طائرة واحدة.

12 ـ فى 22 سبتمبر أخبر الرئيس «السادات» الزعيم الروسى «بريجنيف» بالاستعداد لشن الحرب على إسرائيل فى 6 أكتوبر، والثابت أن هذا الخبر لم يتسرب لأى شخص من الجانب الآخر.

13 ـ فى 24 سبتمبر، فإن وكالة المخابرات الأمريكية لاحظت تطورات غريبة فى

المنطقة، وبصفة خاصة غرب القناة:

أولا ـ فالمصريون يقومون بالمناورات فى تجمعات ضخمة على مستوى الفرقة الكاملة.

ثانيا ـ وهم يحملون معهم تموينات ضخمة ومساندات حركية غير معتادة.

ثالثا ـ وقد أكد ذلك تقرير ورد لوكالة المخابرات من محطة إنصات متقدمة فى جنوب «إيران» تؤكد أن المصريين قد أقاموا محطة اتصال متقدمة، لا تبررها مجرد المناورات.

14 ـ فى 23 سبتمبر، فإن سفن نقل سوفيتية دخلت البحر المتوسط، وتوجهت إلى «مصر» تحمل صواريخ موجهة «سكود»، وهى صواريخ صالحة لأن تحمل رؤوساً نووية، ودائرة فاعليتها هى ثلاثمائة كيلو متراً، أى أنها تستطيع من الأرض المصرية أن تصل إلى إسرائيل.

15 ـ فى نفس ذلك التاريخ، فإن تقارير وكالة المخابرات الأمريكية تُجمِع على أن هناك شيئًا غير طبيعى فى الجانب السورى، وذلك بسبب أن الدبابات السورية قد تخلت عن التشكيلات الدفاعية المعتادة، واتخذت مواقف هجومية واضحة.

16 ـ فى 26 سبتمبر يزور «دايان» جبهة الجولان، وقد خرج من تلك الزيارة، وهو فى حالة قلق واضحة. فعلى طول الحدود السورية رأى بعينه مئات الدبابات السورية فى تشكيلات هجومية، بينما نُظم الدفاع الجوى منتشرة بكثافة، تماثل ما هو حادث على الخطوط المصرية فى محاذاة القناة، وقد خرج من تلك الزيارة بحالة توتر شديدة جعلته يأمر الفرقة السابعة المدرعة ـ وهى من خيرة العناصر العسكرية فى الجيش الإسرائيلى ـ تترك مواقعها فى «بير سبع» وتصعد إلى الجبهة السورية، وقد ثبت فيما بعد أن هذه الفرقة هى التى منعت من سقوط مرتفعات الجولان كاملة خلال الأيام الأولى للقتال.

17 ـ فى 28 سبتمبر يخطب «السادات» بمناسبة الذكرى الثالثة لوفاة «جمال عبد الناصر» وينهى خطابه الذى لم يتحدث فيه عن المعركة العسكرية خلافًا لعادته بقوله: لن أذكر تفاصيل، ولكننى أؤكد لكم أن تحرير أرضنا هو الهدف الأول والرئيسى الذى نضعه أمام أعيننا، **وإذا أراد الله فسوف نحققه**.

18 ـ فى 29 سبتمبر، وبينما كان «كيسنجر» يتصفح ملفًا بتقييم الموقف معدًا من وكالة المخابرات المركزية، جذب اهتمامه تقرير يؤكد زيادة غير معتادة للتحركات من جانب المدرعات السورية، بالقرب من الحدود فى منطقة «الجولان»، وعندئذ طلب من مساعده «إيجلبرجر» الاتصال بالسفير الإسرائيلى فى «واشنطن»، وتحليل الموقف بطريقة أكثر دقة من المصادر الإسرائيلية، التى كان ينظر إليها على أنها أكثر المصادر موضعًا للثقة فى المنطقة.

19 ـ خلال الفترة اللاحقة ـ أى منذ 29 سبتمبر، فإن جميع التقارير المعتادة الواردة من الجهات الثلاث «مصر، وسوريا، وإسرائيل» أجمعت على توقع هجوم مشترك من الجانب المصرى ـ السورى.

20 ـ فى 2 أكتوبر عبأت سوريا قواتها الاحتياطية، وخرجت مصر عن تحفظها فى مناوراتها على طول القناة، فهى مناورات حرب مكثفة، وهى تتم بوضوح وعلانية دون أى محاولة لتغليفها، وهى تضم جميع أجزاء القناة بطولها من «بورسعيد» حتى «السويس».

21 ـ فى 4 أكتوبر مئات الأسر الروسية بدأت تغادر أولاً «مصر»، ثم ثانيًا «سوريا»، وقد فسر ذلك «كيسنجر» بأنه عملية طرد من جانب «مصر»، لن تبقى من القوات الروسية. ولكن بماذا تفسر حركة الترحيل فى «دمشق» والعلاقات بين سوريا والاتحاد السوفيتى» على أشدها؟

22 ـ فى 5 أكتوبر وصلت معلومات من جنوب «إيران» من محطات المعلومات الأمريكية تؤكد بأن هناك حربًا معلنة حول قناة السويس، وأن التشكيلات السورية من قوات مصفحة وقد دعمتها دبابات ت 62 بعدد هائل، وقد اتخذت مواقف هجومية لا تدع مجالاً للشك فى أن معركة تُعد فى تلك المنطقة.

23 ـ بعد ظهر ذلك اليوم، فإن القائم بالأعمال فى السفارة الإسرائيلية بـ «واشنطن» نقل إلى «كيسنجر» رسالة قادمة من رئيسة الوزراء الإسرائيلية تؤكد فيها توقعات الأجهزة المسؤولة بأن هناك استعداداً لشن حرب على إسرائيل من كلا الفريقين «الجولان والسويس» وتطلب من الوزير الأمريكى أن يحذر القيادات العربية المسؤولة من أن الرد الإسرائيلى سوف يكون عنيفًا وساحقًا.

24 ـ فى نفس اليوم، فإن «كلين» رئيس مكتب المعلومات فى وزارة الخارجية الأمريكية عقب مراجعة ما وصل من برقيات، انتهى إلى أن الحرب سوف تقع فى اليوم التالى على الأكثر ـ إن لم يكن قبل ذلك ـ بل وتثبت المعلومات التى تسربت عقب ذلك أنه كان يشاركه ذلك الرأى العديد من المسؤولين فى وزارة الخارجية الأمريكية.

فهل يمكن القول عقب ذلك بأن الحرب من الجانب المصرى كانت مفاجئة؟

الواقع الذى لم يعد فيه شك، والذى وحده يفسر الأسلوب الذى اتبعه «كيسنجر» فى إدارته للصراع العربى ـ الإسرائيلى يدور حول مجموعة من الحقائق:

أولا ـ النجاح العسكرى المصرى.

ثانيا ـ الرغبة الأمريكية فى تصفية ذلك النجاح.

فلنتابع هذين العنصرين:

النجاح العسكرى المصرى، وسياسة تصفية المنطقة من أى إرادة مقاتلة مصرية

والخلاصة التى نستطيع اليوم ـ وعلى مبعدة أكثر من خمسة عشر عامًا ـ أن نحدد عناصرها تتمركز حول النقاط التالية، والتى تفسر حقيقة السياسة التى اتبعها «كيسنجر» فى إدارته للتدخل فى الصراع:

أولا ـ أن حرب أكتوبر كانت نجاحًا عسكريًا حقيقيًا، ولكن فى أبعاد معينة. هذا النجاح أقلق جميع القيادات غير العربية المتعاملة مع المنطقة، وبصفة خاصة القيادة الأمريكية.

ثانيا ـ أن خطة «كيسنجر» كانت تتلخص فى أن يتغلغل فى عناصر هذا النجاح بحثًا عن مواقف الضعف، ليوسع منها وليضغط عليها بكل ثقة، فتشل النجاح ـ إن لم تحيله ـ إلى فشل.

ثالثا ـ أن «كيسنجر» ـ وهو يتعامل مع منطقة الشرق الأوسط ـ كان يلقى دائمًا بنظرة كلية شاملة تحتضن منطقة الشرق الأوسط، كأحد عناصر الموقف الكلى من جانب، وبحيث يتم توظيف المنطقة من جانب، وكل دولة من دول المنطقة من جانب آخر فى تلك النظرة الكلية الشاملة.

العنصر الأول : وهو المحور الحقيقى للغة التعامل. حرب أكتوبر كانت نجاحًا حقيقيًا للقيادة العسكرية الميدانية، ومعنى ذلك أن النجاح مصدره ثلاثة عناصر: الجندى أولاً، والقائد الميدانى ثانيًا، والمخطط للتعامل المحدود، أى معركة العبور ثالثًا. فيما عدا ذلك فقد كانت فشلاً حقيقيًا. أولاً للقيادة الاستراتيجية، التى لم تعرف كيف تتعامل مع النصر، ثم فشلاً للقيادة السياسية، التى سمحت لنفسها بأن تتدخل فيما هو ليس من اختصاصها. إن اختصاصها فقط هو الإجابة على السؤال: متى يجب القتال؟ أما كيف نقاتل؟ فهو ليس من اختصاصها.

وهكذا كانت جميع الهزائم. **الأولى** المهاجمة المرتدة من الضغط على «سوريا». **الثانية** الثغرة. **الثالثة** الإحاطة والحصار للجيش الثالث. منذ مجيء «كيسنجر» إلى «القاهرة»، فهم الموقف بِشقّيْه ـ القوة والضعف. **الأول** فى القيادة الميدانية التى كانت مستعدة لكل شىء، **الثانية** فى القيادتين العسكرية الاستراتيجية والسياسية، حيث أثبتت كلتاهما عدم الصلاحية، فضلاً عن عدم التوازن. فهم «كيسنجر» أن هناك موقفًا جديدًا له مخاطره. انقلاب يأتى إلى السلطة برجل من قوة ناصر، أو أقوى منه، قادر على أن يُكتّل خلفه الأمة المحاربة التى ولدت على شاطئ قناة السويس، وهو أمر لابد وأن يفرض ثلاثة نتائج:

أولا ـ استمرارية الحرب.

ثانيا ـ تدخل أكثر عنفًا من الجانب السوفيتى.

ثالثا ـ استخدام سلاح النفط بصورة أكثر فاعلية.

ظهرت فى تلك الفترة الدعاوى بأن حرب أكتوبر كانت مفتعلة، وأنها كانت إخراجًا أمريكيًا، وهو ادعاء لا أساس له من الصحة، لكى نفهم فى أنه محاولة لاستيعاب النصر العربى، وإخفاء وجهه الحقيقى. وهنا تبرز حقيقة المأساة عندما ترك الرئيس «السادات» «كيسنجر» يتلاعب به وينتهى بأن يصفى النصر من كل معانيه. لقد كان «كيسنجر» فى جميع مباحثاته ـ وكما اعترف بنفسه ـ يخشى تجدد الحرب؛ لأنه لم يكن واثقًا من نتيجة ذلك التجدد. والواقع أن متابعة إسرائيل فى تلك الفترة ـ وحتى نهاية المفاوضات التى انتهت باتفاقية السلام ـ يلحظ كيف كانت تحكمها قيادات مهلهلة باعتراف الجانب الأمريكى، لا تصلح لمواجهة المواقف الصعبة.

من هذا المنطلق كان من الطبعى أن يلجأ «كيسنجر» إلى استراتيجية الخطوة الخطوة، وأن يجعل من نفسه الوسيط الدائم المتنقل، ليس فقط بين إسرائيل وخصومها، بل وبين نفس الأطراف العربية المتعاملة. وقد كانت استراتيجيته بهذا المعنى تدور حول عناصر ثلاثة:

أ ـ خلق الثقة فى شخصيته وفى الدبلوماسية الأمريكية.

ب ـ جعله وسيطًا لكلا الطرفين لا يستطيع أى منهما الاستغناء عنه.

جـ ـ التقدم بحساب وفى خطوات قصيرة تبتعد عن حل حقيقى للمشكلة، ورغم أن متابعة الدبلوماسية الأمريكية لا تسمح بهذه الصفحات، ولكن فلنتذكر الملامح العامة التى حققت الأهداف الأمريكية:

1 ـ الاتفاق حول تموين الجيش الثالث المحاصر.

2 ـ اتفاقية فك الاشتباك الأولى على الحدود المصرية.

3 ـ اتفاقية فك الاشتباك الأولى السورية.

4 ـ اتفاقية فك الاشتباك الثانية المصرية.

ولكن فيما عدا ذلك ما كانت تستطيع دبلوماسية الخطوة خطوة أن تحقق شيئًا، ولماذا وقد حققت كل ما تريده الدبلوماسية الأمريكية؟!

أهم ما حققته هو وضوح النظرة الأمريكية فى التعامل مع المنطقة الدبلوماسية الأمريكية حتى مجىء «كيسنجر»، لم تكن تملك دبلوماسية واضحة، ولكنه منذ تلك الفترة وضحت **تلك الدبلوماسية أنها توظيف للمنطقة فى خدمة الأهداف الأمريكية الكلية**

والشاملة، ومعنى ذلك:

أولا ـ النظرة إلى المنطقة ككل وتحديد توظيفها ـ أى منطقة الشرق الأوسط ـ على أساس واقعها الاستراتيجى، حيث تحتل فى قلبه إسرائيل الموقع المتميز.

ثانيا ـ توظيف كل دولة تنتمى إلى المنطقة فى ضوء توظيف المنطقة ـ أى إنه وقد تحددت وظيفة المنطقة ـ تصير وظيفة كل دولة فيما يتعلق بوظيفة المنطقة.

ثالثا ـ تطبيق السياسة الاقتصادية التى تتبعها «واشنطن»، فى حماية جنوب إفريقيا على المنطقة ـ بالنسبة لحماية إسرائيل ـ وهكذا برزت سياسة المعونات الاقتصادية إلى «مصر والأردن»، وكثر الحديث عن إمكانية التوجه بنفس السياسة إلى «سوريا».

ولكن هذه النواحى تخرج بنا عن إدارة الصراع فى إدراك «هنرى كيسنجر» كما تقدمه لنا خبرة الأعوام الثلاثة اللاحقة لحرب أكتوب. جميع التطورات اللاحقة حتى اتفاقية السلام لم تكن إلا النتيجة المباشرة لنجاح «كيسنجر» خلال هذه الفترة.

ولكن هل دفعت الولايات المتحدة ثمنًا لذلك؟

كلا ! لقد حققت جميع هذه الانتصارات دون أى مقابل.

وهنا تبرز حقيقة المأساة».



مؤتمر
قمة الدار
البيضاء

إدارة الصراع
العربى - الإسرائيلى

حول بناء نموذج عربى للتعامل

المبحث الأول: كيف يجب على الجانب العربى أن يُعدّ ويُخطط لإدارة الصراع

المبحث الثانى: أسلوب المواجهة العنيفة بالاستئصال



كيف يجب على الجانب العربى أن يُعد ويُخطط لإدارة الصراع

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«مؤتمر قمة «الدار البيضاء» حدث حاسم ـ يفصل بين ما قبله وبعده، ما قبله عرفناه ونستطيع أن نحدد خصائصه فى حقائق واضحة، ليست موضع مناقشة تدور حول العديد من العناصر، ولكن أبرزها أربعة أساسية.

الأول ـ و ضوح الدور المصرى البارز هذا فى الصراع، بحيث إنه دون إرادة سلام واضحة من جانب «القاهرة»، فلن يحدث سلام، وكذلك دون وقفة صريحة فى الصدام العضوى، فلا موضع للحديث عن أى تعامل صراعى حول مشكلة الشرق الأوسط. خروج مصر من الصراع يعنى اختفاء الطرف القادر والصالح لمواجهة إسرائيل، فإذا بالساحة تمرح فيها فقط الإرادة الإسرائيلية.

الأمر الثانى ـ أنه رغم الحديث عن السلام، ورغم وقوع مصر فى مصيدة هذا الحديث، فإن الطرف الآخر فى الصدام أى الطرف الإسرائيلى، لم يتزحزح عن موقفه التقليدى قلامة ظفر، إنه يؤمن بأن الحرب قادمة، وإنه لابد من الصدام العنيف بين الجانبين، وإن لم تسع الدول العربية إلى الحرب، فسوف تسعى إليها إسرائيل، وسوف تفرضها «تل أبيب» على المنطقة.

الأمر الثالث ـ إنه من العبث الحديث عن قوى متعاطفة مع الجانب العربى. جميع القوى الدولية تسهم بشكل أو بآخر فى تهيئة الجو لتستطيع إسرائيل أن تحقق أهدافها فى المنطقة حتى أوربا الغربية ـ رغم تظاهرها بعكس ذلك ـ فهى **لا تقف من القضية العربية إلا موقف المتفرج.**

الأمر الرابع ـ أن هناك تغيراً جوهرياً فى علاقات التوازن فى المنطقة، البعض منها لصالح الجانب العربى، والبعض منها لصالح الدولة اليهودية، **فميلاد المجتمع الجماهيرى فى الجانب العربى أزعج القيادات العربية**، والتى كانت ولا تزال رخوة متهافتة على

السلطة، ومن جانب آخر، فإن السلطة الحاكمة فى دولة إسرائيل لم تعد هى تلك القيادات التقليدية المهترئة، ولكن خلفها تقف القيادة العسكرية المهنية الجديدة التى تعمل وتخطط بدقة وبُعد نظر نحو إنشاء إسرائيل الكبرى.

هذه جميعها حقائق أساسية فى عملية إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، ولكن الذى يعنينا أساساً كيف يجب على الجانب العربى أن يُعد ويُخطط لإدارة هذا الصراع؟ كيف يستطيع ـ فى ظل الواقع الحالى ـ أن يحقق هدفه من إدارة الصراع؟

لقد انعقد المؤتمر وخرج ولم نسمع كلمة واحدة عن ذلك الموضوع. وتصور البعض ـ ولا تزال القيادات العربية تعيش فى هذا التصور ـ أن مشكلة لبنان مستقلة عن الصراع العربى ـ الإسرائيلى، أو أن مشكلة حرب الخليج بدورها مشكلة أخرى. ما يجب أن نؤكد عليه ـ ونحن نحاول بناء تصور واضح لعملية إدارة الصراع ـ حقيقة ذات أبعاد ثلاثة:

البعد الأول ـ أن جميع المشاكل التى طرحتها القمة تقف خلفها مشكلة إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى ولنحدد مرادنا:

1 ـ دعوة «مصر» ليس إلا تعبيراً عن توجه معين فى إدارة الصراع. لقد خرجت بعض الكتابات الصحفية المتملقة فى «مصر» تحدثنا عن أن العالم العربى قد اعترف أخيراً بصحة الخطوة التى سارت فيها «القاهرة» خلال الأعوام العشرة الماضية. كلا إن هذا تشويه للحقيقة. **إن معناه أن الجانب العربى لم يعرف كيف يواجه الخطوة الخائنة والفاشلة التى اتخذتها مصر مع الرئيس «السادات».**

2 ـ مشكلة الانتفاضة ومشكلة «لبنان» ومشكلة الخليج جميعها نتائج مباشرة للسلوك غير الواعى، سواء من الجانب المصرى أو من الجانب العربى. فـ «مصر» أخطأت باندفاعها والعالم العربى بدوره أخطأ باندفاعه، فكيف سوف يتم التعامل؟ لقد رأينا أن مشكلة «لبنان» هى توريط لـ «سوريا»، وحرب الخليج هى انزلاق للعراق، وكلاهما تعبير واضح عن النجاح الإسرائيلى. كذلك الانتفاضة ليست موجهة فقط إلى الاحتلال الإسرائيلى، بل هى تذكر القيادات العربية بأخطائها وقصورها وتتحداها.

3 ـ إن موضوع مجالس التعاون الإقليمية هو سلاح بحدين، فكما أنه فى صالح التطور الوحدوى، فقد يقف ضد التطور الوحدوى. إن مجلس التعاون الخليجى كان سبباً فى ترهل العمل العربى المشترك، على مستوى جامعة الدول العربية ومنظماتها. ومجلس التعاون المغربى فى جوهره قد يكون إعداداً لخطوة قادمة، حيث يصير ذلك المجلس بمثابة الحديقة الخلفية لدول السوق المشتركة، ولكن هذه المجالس ـ من جانب آخر ـ قد تكون خطوة فى سبيل التطوير نحو خلق الإرادة العربية الواحدة. إنه قد يعنى فى الأمر البعيد أن تَحُل موضوع عشرين إرادة ـ فقط ثلاث إرادات ـ وهذه خطوة لا يستطيع أحد أن

ينكر فاعليتها، فإلى أين تسير هذه التجمعات؟ هل سوف تخلق عقبة سلبية؟ أم سوف تكون وثبة حقيقية؟. رغم ذلك فمؤتمر القمة اقتصر على الأحاديث العاطفية واللغة الإنشائية، ولم يحدد لنا ما هى الضمانات.

فهل يستطيع الفكر العربى أن يقدم للقيادات نموذجًا للتعامل مع مشكلة الصراع العربى ـ الإسرائيلى؟ وإن لم يكن هذا النموذج ملزمًا للقيادات العربية، فهو على الأقل مدعاة للتساؤل، ولطرح علامات الاستفهام كمقدمة للاتفاق، أو التفاهم على كيفية إدارة هذا الصراع ـ بحد أدنى من التفاهم ـ ولو حول المقدمات والعناصر الأساسية.

البعد الثانى ـ إن محور **تحليلنا للصراع العربى ـ الإسرائيلى وإدارته هو ضرورة و ضع حد للوجود الإسرائيلى ـ يجب أن تختفى إن آجلا أم عاجلا ـ وإن اختفاء إسرائيل هو منطلق التاريخ الذى لا رجعة فيه. إن وجود إسرائيل فى المنطقة هو الو ضع غير الطبيعى الذى ترفضه طبيعة الأشياء. كذلك فإن كل حديث آخر عن السلم أو التفاوض ليس إلا نوعا من التكتيك، الذى لا يجوز أن يفقدنا النظرة البعيدة المدى، والتى خلا صتها الاستئصال العضوى للدولة العبرية. على أنه يجب أن يكون وا ضحا:**

أ ـ أن هذا الحديث يتجه إلى الدولة الإسرائيلية، وليس إلى الشعب اليهودى. يجب ألا نخلط بين الدولة ذاتها ككيان غير طبيعى، ولا موضوع له فى منطقة الشرق الأوسط والمجتمع أو الشخص اليهودى، فهذا موضوع آخر يملك حقوقه، بل ويملك امتيازاته.

ب ـ إدارة الصراع بهذا المعنى تفترض استبعاد ـ ولو مؤقتًا ـ جميع المشاكل الأخرى ليس بمعنى إلقائها، ولا بمعنى تأجيلها، ولكن بمعنى وضعها فى مرتبة ثانوية وفرعية.

المحور الذى يجب أن تدور حوله جميع جهودنا وقدراتنا فى المرحلة القادمة، هو إلغاء الوجود الصهيونى الإسرائيلى.

جـ ـ إن إلغاء أو استئصال إسرائيل لا يكفى بخصوصه، نزع الصفة الصهيونية من الدولة العبرية، هذا لا يكفى، فهى دولة توسعية، وما يجب أن نضع له حداً هو إمكانيات التوسع المستمرة التى أثبتت إسرائيل أنها لا تستطيع أن تعيش دون أن تمارسها.

يوم أن يختفى من الفهم الإسرائيلى مفهوم التوسع، فإن إسرائيل تفقد جوهرها؛ ولذلك يجب أن يُستأصل هذا الكيان.

البعد الثالث ـ علينا ألا نخلط بين فلسفة إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى ومشكلة الحقوق الفلسطينية. إن الصراع العربى ـ الإسرائيلى يفرض دوائر متعددة وفى إحدى هذه الدوائر القومية، فعلينا أن نتذكر جيداً أن مشكلة الحقوق الفلسطينية تختفى ـ أو على الأقل تنزل بدورها إلى المرتبة الثانية. إنها حقوق فردية أو جماعية. مشكلة علاقة الجزء

بالكل، ويجب علينا ليس فقط أن نميز بين الجزء والكل، بل يجب أن يكون واضحاً:

أ ـ أن الجزء لا يجوز أن يطغى على الكل، ويرتفع إلى مستوى الكل فى التعامل.

ب ـ أن حل الجزء ليس مما يعنى حل مشكلة الكل.

جـ ـ أن من يمثل الجزء لا يجوز له مهما كانت قضيته مقدسة أن يفرض وجهة نظره المنبثقة من هذا الجزء على الكل.

إن هذا الجانب يجب أن يوظف لصالح الكل وليس العكس.

الثوابت والمنطلقات الأساسية :

ومن ثم، فمنذ البداية هناك مجموعة من الحقائق التى يجب أن يتفق حولها الجميع ولنلخصها:

أولا ـ يجب أن يصير موضوع هذا الصراع هو المحور الأساسى لنشاط جميع الدول العربية ـ خلال الفترة القادمة ـ وأن جميع المشاكل الأخرى يجب أن تؤجل أو تصير ثانوية.

ثانيا ـ أن جوهر الصراع هو ـ فى نهاية الأمر ـ استئصال إسرائيل. نعيدها ونكررها، وهنا يجب أن نميز بين القناعات والتصريحات المعلنة ـ بين الاستراتيجية والتكتيك ـ إذا كان من المقبول عملية التمويه والمناورة وإخفاء الأهداف الحقيقية، فيجب أن تكون قناعة قياداتنا أنه فى خاتمة الأمر، فلابد من استئصال الدولة الصهيونية من المنطقة. يجب وضع حد للوجود التوسعى، وأحلام إنشاء إسرائيل الكبرى، مهما طال بنا أمد الصراع، ومهما تحملنا من تضحيات.

ثالثا ـ أن مدير الصراع يجب أن يُعد نفسه للمنازلة، ومعنى ذلك أنه يجب أن يملك أدوات الصراع، وأن يعرف كيف يتعامل مع الموقف بلغة الأعوام الأخيرة من القرن العشرين. يجب أن يملك الجهاز الدبلوماسى والأداة المقاتلة والقدرة الإعلامية، وأن يتم التنسيق بينها مع توزيع للأدوار، وإتقان لفن الإخراج المسرحى. هذه جميعها عناصر يجب أن يكتسبها بسرعة، وكفى الوقت الذى ضاع، وهى أمور جميعها نحن قادرون عليها.

رابعا ـ كذلك فإن الإطار الدولى المعاصر يملك خصائص معينة. يجب أن نفهمها ونتحرك من داخلها، فالأسرة الدولية لم تعد تقبل مفهوم استئصال الشعوب، ولكنها تقبل استئصال المفاهيم العنصرية، وهذا هو المحور الأساسى الذى يجب أن نفهم كيفية التعامل مع منطلقه. والاتحاد السوفيتى ـ اليوم ـ ليس هو الذى عرفناه حتى الأمس القريب، بل وأوربا ـ السوق المشتركة ـ ليست هى التى عهدناها حتى هذه اللحظة رغم التملق

الواضح. يجب أن نكون على وعى بأن واجبنا هو أن نخترق الإطار الدولى، بحيث نستطيع أن نُحْصِرَ فى دائرة معينة خصومنا، وأن نُطلق أصدقاءنا، وذلك ليس بلغة غوغائية، ولكن بتخطيط وقدرة وفاعلية.

لتكتمل هذه القدرات لابد وأن نُخْضَع تخطيطياً لإدارة الصراع بالمدرسة العلمية الواعية التى تسمح بتحديد النماذج الفكرية التنظيرية لتلك الإدارة، وبحيث نختار من بينها ذلك النموذج الأصلح لواقعنا ولقدراتنا.

النماذج الفكرية لإدارة الصراع :

من الناحية النظرية المطلقة ـ وقد أخذنا فى الاعتبار المقدمات التى طرحناها فى عرضنا السابق، ومن خلال عناصر ومتغيرات الصراع ـ نستطيع أن نميز بين خمسة نماذج متميزة كل منها يختلف عن الآخر من حيث طبيعته:

أولا ـ نموذج العزل والإحاطة.

ثانيا ـ أسلوب المواجهة بالاستئصال.

ثالثا ـ أسلوب الإذابة من خلال التسلل من الداخل.

رابعا ـ نموذج التتابع فى الإرهاق.

خامسا ـ أسلوب التنقل من نموذج إلى آخر.

نماذج خمسة كل منها له خصائصه. فلنحلل كل نموذج على حدة قبل أن نطرح نظريتنا فى إدارة الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وذلك مع ملاحظة أن الأسلوب الخامس يختلط فى الواقع بالأسلوب الرابع، كما سوف نرى تفصيلاً:

نموذج العزل والإحاطة :

ومعنى ذلك إحاطة إسرائيل بسور الصين العظيم، لتصير دول «الجيتو» فى المجتمع المعاصر. جميع الدول المحيطة بها ترفض التعامل معها. المقاطعة الاقتصادية تكمل ذلك، **فكل شركة دولية تقبل التعامل مع إسرائيل تُقَاطَع من جانب جميع الدول العربية**. ولو استطاعت الإرادة العربية أن تتغلغل فى إطار التعامل الدولى فإنها قادرة على فرض العزلة على إسرائيل.

مثل هذا الأسلوب ـ فى الأمد الطويل ـ قاتل، ولكنه يقتصر على إضعاف إسرائيل دون أن يلغى وجودها، وهو أسلوب يفترض ثلاثة أسلحة:

أولا ـ التضامن العربى المطلق فى السياسة الخارجية ـ أى فى التعامل مع القوى الدولية بموقف واحد ثابت.

ثانيا ـ يفترض قدرة الدول العربية ورغبتها فى المنازلة الدولية، ولو السلبية للولايات المتحدة.

ثالثا ـ يفترض أخيراً جهاز على أقصى قدرة من الفاعلية فى التعامل الدولى ـ ليس فقط لخلق العزلة الدبلوماسية حول إسرائيل، ولكن أيضًا لمتابعة المقاطعة العربية.

استخدم الأسلوب خلال الفترة اللاحقة لنشأة إسرائيل حتى عام 1967، ولكنه لم يكن كاملاً فى تطبيقه ـ حيث أصابته الكثير من الثغرات، فـ «تونس» وبعض الدول العربية لم تكن تؤمن بذلك الأسلوب، والجهاز العربى للتعامل الخارجى لم يكن على قدر من الفاعلية، بل إنه فى لحظات معينة ترك إسرائيل وانشغل بالصراع العربى. هذا فضلاً عن أنه لم يكن يملك من عناصر القوة الشيء الكثير ـ خصوصاً وأن هذا الأسلوب يفترض طول النفس. والواقع أنه لو تحققت منطلقات هذا الأسلوب فهو فاعل:

أ ـ لأن إسرائيل بطبيعتها ليست لها حدود سوى مع الدول العربية، وهى من حيث الواقع الإقليمى تمثل بقعة معزولة.

ب ـ ولأن إسرائيل لم تكن فى أى مرحلة من مراحل تاريخها موضع الترحيب والقبول من المجتمع الدولى، بسبب سلوكها الاستفزازى.

جـ ـ والمجتمع اليهودى يملك تراثًا ضخمًا من الكراهية، يمكن توظيفه بذلك الخصوص، ولكن الجانب العربى لم يعرف حتى الآن كيف يستخدم ذلك.

هذا الأسلوب هو خير أسلوب فى لحظات الضعف للجانب العربى، فهو أولاً غير مُكَلِّف. وهو ثانيًا يسمح بالتعامل العنيف من خلال الموقف السلبى، وهو يفرض على إسرائيل فى النهاية. أن تسعى لتحطيم الحصار من حولها، فتصير أمام الرأى العام الدولى دولة معتدية. وهو يمنع إسرائيل إن لم تلجأ للعنف للخروج من حالة الحصار من الانتشار الإقليمى والدولى.



تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع :

«هذا الأسلوب هو أكثر النماذج وضوحًا فى التعامل مع إسرائيل. محوره الحقيقى هو التجانس فى منطق المواجهة. إسرائيل دولة مغتصبة، ومهما قيل عن قرار التقسيم فهو أولاً صَدَرَ ممن لم يملكه(1). وهو ثانيًا تأسيس على تلاعب الحقائق، وهو ثالثًا لا يُضفى أكثر من شرعية محدودة. صاحب الأرض من حقه استردادها مهما هُزِم وفقد القدرة على ممارسة حقوق السيادة عليها. إسرائيل تمثل مجتمعًا لا ينتمى إلى المنطقة، تطرق إلى التواجد الجزئى بفضل مساندة قوة استعمارية(2). وهو لم يزعم ولا يستطيع أن يزعم

(1) لأن «الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا» والدول الأوربية مجتمعة، لا تملك أن تقسم أو تعطى أمرًا بالتقسيم، إلا أنها مؤامرة فى غياب «المارد الإسلامى»، وهى مؤامرة بكل المقاييس، حسب شريعة الغاب، فى ظل غياب شريعة الله عز وجل، وهى مؤامرة بكل المقاييس بدأت منذ أن عرض «هرتزل» مؤسس الصهيونية العالمية على الخليفة العثمانى الرشوة، من أجل أن يعطيه جزءًا من أرض فلسطين، فرفض بكل قوة وقال: «انصحوا الدكتور «هرتزل» بألا يتخذ خطوات جدية فى هذا الموضوع، فإنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين... فهى ليست ملك يمينى، بل ملك الأمة الإسلامية، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا مُزِّقت دولة الخلافة يومًا فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن... أما وأنا حى فإن عمل المِبْضعِ فى بدنى لأهون علىّ من أن أرى فلسطين قد بُترت من دولة الخلافة، وهذا أمر لا يكون، إنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة. التوقيع/ السلطان عبد الحميد الثانى ـ استانبول 1901م» كتاب: «صحوة الرجل المريض» موفق بن المرجه، دار البيارق. الطبعة الثانية عام 1996 ص9. ولذلك أطاحوا بالخلافة العثمانية، وفى غياب الضمائر تمت المؤامرة وتم التقسيم لمن لا يملكه!!

(2) القوة الاستعمارية هى ـ الماسونية العالمية ـ وهى هى الصهيونية العالمية، التى أسسها «تيودور هرتزل» اليهودى البولونى الذى وُلد فى بودابست ـ 1860 ـ 1904 ـ وأقام فى ڤيينا، واشتغل فى التأليف المسرحى والصحافة، وتأثر بقضية الجاسوس الفرنسى اليهودى «دريفوس» وألف كتابه: «ديربود نيشتات»، أى الدولة اليهودية عام 1896م، وترأس أول مؤتمر صهيونى فى «بازل» بسويسرا 28 آب ـ أغسطس ـ 1897، كما قابل السلطان عبد الحميد، فى إطار مساعيه لتوطين اليهود فى فلسطين. والمعروف أن الصهيونية بقيت مفتقرة إلى التخطيط حتى تمكن «هرتزل» من عقد المؤتمر الذى حضره 204 من مندوبى سائر الجمعيات الصهيونية فى مختلف أرجاء العالم. راجع المرجع السابق ص 218 هامش رقم 1.

سوى أن تفتح له أبواب الإقامة المحدودة. لقد كانت هذه الإقامة أو بعبارة أخرى: الهجرة لعوامل إنسانية، وعقب أن تسلل تدريجياً حاول أن يصير صاحب المنزل، بل وسعى بكل إمكانياته وإمكانيات الآخرين لطرد صاحب المنزل الحقيقى[1] وسلبه من حقوقه المشروعة، ومن ثم يصير من الطبيعى والمنطقى أن يستعيد صاحب المنزل حقوقه، وأن يطرد هذا الدخيل، مهما كان قوياً ولو استئصاله من التواجد فى منزله. القانون يقف إلى جواره ولا تستطيع أى شرعية أن تنزع منه حقه فى ذلك، وتتعقد القضية بسبب متغيرين جانبين، ولكن لكل منهما دوره الخطير فى ذلك التعقيد:

الأول ـ أنه فى خلال الفترة اللاحقة على قرار التقسيم ظهرت بوضوح حقيقة الأمة العربية التى تشمل الشعب الفلسطينى، وأضحى الحق فى الطرد والاستئصال ليس فقط حق المجتمع الفلسطينى، بل هو كذلك حق الشعب، ممثلاً فى قياداته الدولية.

الثانى ـ أنه عقب إنشاء إسرائيل ولد من أبناء المهاجرين على أرض إسرائيل جيل جديد أطلق عليه «السابرا»، وهم من منطلق المبادئ المعلنة والمقبولة فى المجتمع المعاصر يصيرون أبناء لتلك الأرض، ولهم حقوق على تلك الأرض.

ولو تركنا جانباً هذين المتغيرين اللذين يُعقدان من أسلوب المواجهة بالاستئصال، فإن مثل هذه المواجهة ـ التى كانت وظلت محور الفكر العربى حتى حرب يونيه 1967 ـ تثير العديد من المشاكل التى يجب أن تكون واضحة فى ذهن المحلل، وهو يتناول هذا النموذج لإدارة الصراع بالتحليل:

1 ـ أول هذه المشاكل : ما معنى كلمة الاستئصال؟ الاستئصال يمكن أن يكون عضوياً أو معنوياً. الاستئصال العضوى معناه القتل أو الطرد، وكل منهما يكمل الآخر. وهو نموذج عرفته الحضارات الإنسانية فى نماذج فقرطاجة استُؤصلَتْ عضوياً من جانب الرومان بالقتل لكل رجل ولكل أنثى تزيد عن الخامسة عشرة، ومن كَن أقل من تلك السن أُخذن سبايا، ونقلن إلى «روما» لخدمة طبقة النبلاء والقادة. والاستئصال المعنوى حصل بالنسبة لليهود فى روسيا، عندما حدثت محاولة إنشاء دولة يهودية بعد الثورة الشيوعية، وانتهت بالفشل، فعاد المجتمع اليهودى لينصهر فى الدولة الجديدة. وبغض النظر عن النجاح من عدمه، فلا توجد فى دولة الاتحاد السوفيتى أى مظاهر للوجود الصهيونى.

---

(1) وقد رسم «هرتزل» سياسة الاستيطان الصهيوني، فقال في يومياته عام 1895م ما يلي: «يتوجب علينا أن ننزع الملكية الخاصة لأراضي فلسطين من أيدي ملاكها، وينبغي أن يكون ذلك في لطف وفي منتهي السرية والتكتم والحذر الشديد!! وعلينا أن نقوم بتهجير السكان المصريين ـ الفلسطينيين ـ عبر الحدود، بعد أن نسد أمامهم كل مجال للعمل في بلادنا ـ فلسطين ـ بينما نحاول تأمين استخدامهم وتشغيلهم في بلدان العبور». راجع كتاب: «يوميات هرتزل» ط 2 بيروت 1973م. مصدر سابق ص218.

فما المراد بالاستئصال؟ طرد أبناء إسرائيل كما قيل، ونُسِب إلى الرئيس «عبدالناصر» بإلقائهم فى البحر؟ أم مجرد تخلى إسرائيل عن طبيعتها الصهيونية بعد تحجيمها؟ وهل أى تحجيم لإسرائيل يسمح بالطمأنينة للمستقبل، بأن إسرائيل لن تعود إلى بناء فلسفة جديدة للصهيونية فى أمد غير منظور؟، وهل هذا الطرد يمتد أيضًا إلى أولئك الذين وُلدوا على أرض «فلسطين» ولو فى ظل السيادة الإسرائيلية؟

ما هى الشروط اللازمة من الوجهة النظرية لاستئصال إسرائيل بأى من المعنيين السابقين؟

استئصال إسرائيل لن يتم إلا فى إطار من اثنين، كل منهما يملك مقدماته ومستلزماته:

1 ـ **الإطار الأول، وهو إطار دولى** تهزم فيه الولايات المتحدة، ومن ثم تصير إسرائيل فى عداد الطرف الخاسر. هذا الإطار يفترض حرب عالمية تُهزم فيها الولايات المتحدة هزيمة ساحقة، ويقنع الطرف الآخر بضرورة أو إمكانية اختفاء الدولة الإسرائيلية.

2 ـ **الإطار الإقليمى**، وهو إطار يفترض التفوق الحقيقى للقدرة العربية فى مواجهة إسرائيل من جانب، ثم توحيد الجانب العربى من جانب آخر، وحرب تُهزْم فيها إسرائيل هزيمة كاملة، وأخيرًا تصميم القوى الدولية على ترك إسرائيل لمصيرها دون أى مساعدة.

فى جميع النماذج السابقة، فإن الاستئصال يأخذ الصورة العضوية. ولكن **هناك أيضا الاستئصال المعنوى**، الذى يتحقق بتوفر عنصرين أساسيين: التخلى عن الطبيعة[1] الصهيونية للدولة من جانب، واستبعاد فلسفة السيطرة والتحكم فى المنطقة من جانب آخر. ويجب أن نتذكر أن كلاً من هذين العنصرين مستقل عن الآخر، ورغم أنه فى الوقت الحاضر يبدو أن كليهما مترابط مع الآخر، وبعبارة أخرى: فإن الطبيعة الصهيونية تفرض التوجه إلى التوسع، ولكنه قد يختفى عنصر الطبيعة الصهيونية، ويظل التوجه نحو التوسع والهيمنة. والاستئصال المعنوى لن يكون كاملاً إلا إذا تحقق تهذيب لكلا العنصرين.

كذلك فإن الاستئصال العضوى قد يتم دفعة واحدة، وقد يتم بطريق التدرج.

الأولى ـ وهو يعنى الحرب الكلية الشاملة، وقد سبق أن رأينا ذلك قد يتم من خلال الإطار الدولى، وقد يكفيه التعامل من خلال الإطار الإقليمى، ولكن ما يجب أن نتذكره، هو أن الاستئصال الممكن أن يأخذ صورة متدرجة. وقد أتيح للعالم العربى تحقيق هذا الهدف عقب الوحدة بين مصر وسوريا.

ما معنى الاستئصال المتدرج ؟

محوره الحقيقى هو الهزائم المتتابعة مع تقديم أدوات مساندة، بحيث تضخم من دلالة

(1) وهذا أمرٌ مستحيل إلا إذا أُجْبِرَ الصهاينة على ذلك إجبارًا. هكذا علّمنا القرآن وسنة النبى محمد ﷺ والتاريخ (الشخصية اليهودية من خلال القرآن تاريخ وسمات ومصير). د. صلاح عبد الفتاح، دار القلم دمشق: 1407/ 1987.

الهزيمة، سواء بخلق الاضطراب وعدم الثقة الذى يدعم الهجرة من الداخل إلى الخارج ويوصد الهجرة من الخارج إلى الداخل، سواء بشن الحرب النفسية الفاعلة التى تقود إلى الانقسام فى داخل المجتمع، واتجاه أجزاء منه إلى التوافق مع العدو المتربص على الحدود، وخصوصاً بالنسبة لليهود الشرقيين دون الحديث عن المواطنين العرب.

الوحدة بين «مصر، وسوريا»، كان من الممكن أن تكون أساساً لتحقيق هذا الهدف، أى الاستئصال العضوى بطريق التدرج. ولنخلق القناعة بذلك علينا أن نتذكر ثلاث حقائق:

الأولى ـ وتدور حول الضعف الحقيقى العسكرى والاستراتيجى لإسرائيل فى تلك الفترة، أى ما بين تاريخ الوحدة المصرية السورية، وحتى عام 1965.

الثانية ـ وتنبع من خصائص الإطار الدولى، حيث العلاقات بين «موسكو، وواشنطن» كانت تسمح للقدرة العربية بقسط معين من التلاعب، وخصوصاً أن «واشنطن» لم تكن بعد قد ألقت بنفسها تغازل «تل أبيب» وتحيل منها أداتها الوحيدة فى المنطقة، بل إن الولايات المتحدة عقب مقتل «كنيدى» كانت تعيش فى أزمة قيادية حقيقية.

الثالثة ـ وتنبع من الهالة التى كانت قد أحاطت بـ «جمال عبد الناصر» عقب تحقيق الوحدة.

الوحدة المصرية السورية كانت تفترض فى القيادة العربية صفات ثلاث بعد النظر وترك الأنانية جانباً، والقدرة على تكتيل القوى، مهما كانت الخلافات، وهى لذلك كان يجب أن تسير فى طرق ثلاث: **أولا** ـ تدعيم الوحدة التى لا تخلق الحساسيات، ولكن تلهب المشاعر، وقد تمركزت الإرادات حول **التخلص** من إسرائيل. **ثانيا** ـ ترك ـ جانباً ـ كل ما عدا استئصال إسرائيل مع التخطيط لذلك بعلم ودراية، وليس بالهوجائية التى عرفناها. **ثالثا** ـ اختراق الإطار الدولى، وبصفة خاصة من خلال استغلال العزلة التى كانت تعيشها إسرائيل.

التخطيط لاستئصال إسرائيل كان يجب أن يتدرج فى خطوات ثلاث:

الأولى ـ المطالبة بتنفيذ قرار التقسيم بحرفية. الإطار الدولى كان يسمح بذلك، بل وجد فى بعض الدوائر الأوربية من كان يتحدث بصوت غير مسموع عن ذلك، وبصفة خاصة فى «الفاتيكان وبريطانيا»، وعقب دعاية قوية. وبطبيعة الحال لتأكيد شرعية هذه المطالب وإعداد قوى لمعركة كان من الممكن وقد تكتلت الأمة العربية فرض ذلك على إسرائيل بالقوة.

الثانية ـ الخطوة الثانية أكثر صعوبة، ولكن النجاح فى الأولى يمهد لهذه الخطوة الثانية، وهى انتزاع صحراء «النقب» من إسرائيل. إن احتلال إسرائيل لهذه الصحراء أدى لأول مرة فى تاريخ المنطقة إلى فصل ما بين شرق قناة السويس وغربها. وهذه الأرض الصحراوية لها قيمة استراتيجية للعالم العربى؛ لأنها تربط بين شطرى هذا العالم،

بينما هى لا قيمة لها بالنسبة لإسرائيل. هذه الدعوى التى تصلح لدعاية واسعة النطاق ومقدمة لشرعية فرض هذا الاقتطاع على إسرائيل، لن تستطيع إسرائيل أن تواجهها إلا بحرب تكون فيها هى الخاسرة.

الثالثة ـ وتأتى الخطوة الثالثة والأخيرة لتصفية الوجود الإسرائيلى من المنطقة وطرد يهود غرب أوربا، ليجدوا طريق العودة إلى ديارهم الأصلية، وكان من الممكن أن يتم ذلك فى خلال خمس سنوات، أى ما بين وحدة «مصر وسوريا» وعام 1965، كان من الممكن أن تستأصل إسرائيل كلياً من المنطقة لو وجدت القيادة الواعية المؤمنة.

نعلم ذلك الذى حدث، ولن نستطيع أن نصفه إلا بأنه الفرصة الضائعة. مثل هذا التخطيط لم يعد من الممكن اليوم تنفيذه لأسباب عديدة سوف نلمسها فيما بعد ونحن نفصل الواقع المعاصر، وخصائصه وكيفية التعامل معه.

وهذا يثير موضوعاً آخر يرتبط بالاستئصال العضوى للمجتمع الإسرائيلى، وهو ما تعود الفقه أن يسميه **حرب العصابات، أو الرفض المدنى**، والذى يبرز اليوم على السطح **باسم: الانتفاضة. مما لا شك فيه أن موضوع الانتفاضة أكبر من أن نتعرض له فى عجالة سريعة**، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أن دراستى حتى اليوم لم تكن بالقدر الكافى، وأن مساندة الانتفاضة كذلك لم تخضع لأى تعامل جدى من جانب جميع القوى العربية، ولكن بعض الملاحظات المرتبطة بموضوع هذا التحليل أى إدارة الصراع جديرة بأن نتوقف إزاءها:

أولا ـ أن حرب التحرير الشعبية، أو ما يمكن أن يسمى: حركة الرفض فى داخل أرض «فلسطين»، هى حق مشروع. بعض المحللين يطرح التساؤل، حركة الرفض فى فلسطين هى أقدم حركات الرفض فى العالم المعاصر، ومع ذلك هى وحدها التى لم تحقق أى تقدم فلماذا؟ ويجيب هؤلاء على ذلك بسببين: **الأول** ـ طبيعة الأرض الفلسطينية وهى أنها لا تحتمل حرب العصابات، **والثانى** ـ وجود السلطة العسكرية المتمكنة من السيطرة، بحيث لا تسمح بذلك وهى قادرة على ذلك، على أن الواقع أن هذه التبريرات لا يمكن أن تتقبل ببساطة. إن حركة المقاومة الفلسطينية ينقصها أشياء. ويظهر أن هذه العناصر التى لم يُقدر لها أن تتوفر فى هذه الحركة قد اكتملت فى الفترة الأخيرة، وهو الأمر الذى فرض الانتفاضة.

ثانيا ـ أن خطر الانتفاضة الحقيقى هو فى تحولها إلى حركة عصيان مدنى، وذلك بصفة خاصة عندما تتسع الانتفاضة لتشمل أيضاً السكان العرب فى الأرض التى تسمى بأرض إسرائيل، وهى ـ هذه الحركة، وبصفة خاصة ـ لو استمرت من جانب، ولو استطاعت من جانب آخر أن تجذب إليها الرأى العام الدولى أولاً، وقسماً من الرأى العام

الداخلى وحتى ولو من خلال الشعور بفشل المشروع الصهيونى ثانيًا، فإنها قادرة على خلق تحلل فى الجسد الإسرائيلى لا حدود لنتائجه.

ثالثا ـ أن الانتفاضة كانت أمرًا متوقعًا، ونحن فى دراسة لنا جماعية أجريناها لحساب المنظمة العربية للتربية والثقافة تنبأنا بها منذ عام 1984، وقد كانت سببًا فى أن المسؤولين فى تلك المنطقة تقاعسوا عن نشر هذه الدراسة، والسبب فى ذلك حالة الاغتصاب المعنوى التى كان يعيشها المواطن العربى تحت الاحتلال الإسرائيلى. وعلم النفس يقرر بأن هناك حدودًا معينة للاغتصاب المعنوى لو تجاوزها، فإن رد الفعل يصير غير محسوب. إن هذا حدث فى «إيران»، وهو اليوم يحدث فى إسرائيل ولن يتوقف.

رابعا ـ أن ظاهرة الرفض الداخلية ـ بغض النظر ـ عن مسمياتها ـ هى إحدى الأدوات الحاسمة فى عملية الاستئصال، ولنتذكر أن الانتفاضة لا تسمح بالقبول بأنصاف الحلول. إن معناها امتداد الحق الفلسطينى على الأرض المحتلة، وعلى كل أرض «فلسطين» التى تستوعب فى تلك اللحظة كل ما يمكن أن يسمى بالأرض الإسرائيلية. الانتفاضة فى الأمد البعيد لا تسمح بالخيار، إما الكل أو استمرارية الصدام.

وهذا يقودنا إلى متابعة فكرة الاستئصال بطريق التدرج عقب حرب الأيام الستة فى خضم المدركات المتعددة المتعلقة بفلسفة التعامل مع مشكلة الوجود الصهيونى. ظهرت فى صورة واضحة مرة أخرى فلسفة الاستئصال بطريق التدرج، ورغم أن المدرسة التى نبتت فى الأوساط المصرية المسؤولة، والتى قدم لها قبل ذلك «الحبيب بورقيبه» والتى اكتملت مع «السادات» فتحت الباب واسعًا أمام مدرسة لم يتقبلها رجل الشارع، والتى أساسها العمل على تحجيم إسرائيل وإعادتها إلى حجمها الحقيقى، من خلال العمل السياسى والدبلوماسى، ولو خلال الجيل الحالى. إلا أنه وجدت إلى جانبها صيغة مطورة لفكرة الاستئصال من خلال التتابع المرحلى، وخلاصتها: أن المرحلة الأولى تكون العودة إلى حدود ما قبل 1967، مع ما يعنيه ذلك من إمكانية إنشاء دولة فلسطينية فى الأرض المحتلة، ثم تعقب ذلك مراحل أخرى بالتتابع ـ الذى سبق وذكرناه.

الجوهر فى هذه المدرسة هو استغلال السلوك الإسرائيلى أساسًا لتحطيم الدولة الإسرائيلية. **أولا** ـ السلوك العدوانى فى حرب 1967. **ثانيا** ـ السلوك الاستفزازى فى عدم احترام قرار التقسيم، وكل هذا إعداد للوثبة الأخيرة، حيث تتم عملية الاستئصال.

على أننا بهذا الخصوص ـ أى بصدد الفكر العربى الجديد اللاحق لمأساة حرب يونيو 1967 ـ يجب أن نلاحظ عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى ـ أن الاستئصال بطريق التدرج لا يفترض الحرب الكلية الشاملة، ولا يفترض التضامن العربى ـ رغم أن ذلك أمر يجب أن نسعى إليه ـ إلا أن دولة واحدة

من الدول الكبرى المحيطة بإسرائيل قادرة على التخطيط لاستئصال الدولة اليهودية، بطريق التدرج وبصفة خاصة «مصر، أو سوريا أو العراق»، فإذا حدث توافق فقط بين دولتين، كما حدث فى حرب أكتوبر، فإن فى هذا لكفاية، ويجب أن نضيف بأن حرب الاستنزاف التى انطلقت من نفس المفهوم، كانت حرباً فقط مصرية. كذلك نستطيع أن نعيد إلى نفس هذا التصور مفهوم التوازن الاستراتيجى بين «سوريا، وإسرائيل».

الملاحظة الثانية ـ أن الاستئصال بطريق التدرج يصير عملية متتابعة، تفترض طول الفترة الزمنية والإعداد الدقيق للمراحل المتتابعة مع خطة واضحة لكل مرحلة بالنسبة للدولة أو الدولتين اللتين سوف يقع عليهما عبء هذه المواجهة. وهنا نفهم أحد أسباب فشل حرب أكتوبر فى تحقيق هدفها. لقد دبت الخلافات بين «مصر وسوريا» عقب الأيام الثلاثة الأولى من المعركة، والمتتبع لوقائع تلك المعركة، لابد وأن يعترف بأن حُسن النية بين القيادتين لم يكن متوفراً، وأنه بقدر مسؤولية الرئيس «السادات»، فإن مسؤولية الرئيس «حافظ الأسد» لا تقل فى الوصول إلى النتيجة التى انتهت إليها حرب أكتوبر.

الملاحظة الثالثة ـ أن هناك عقدة متغلغلة فى النفس الصهيونية، والتى أسميناها فى مؤلفاتنا: عقدة الاغتصاب. إن كل يهودى يعتقد أن كل من حوله يريد اغتصابه لإذلاله، وهو لذلك لا يرى فى أى حركة تتجه إليه إلا جزءاً من عملية الاغتصاب. اليد التى تتقدم لتحضنه، إنما تريد أن تشل حركته لتسهل الاعتداء عليه. هذه العقدة المتغلغلة فى النفس اليهودية تفسر جميع السلوكيات السياسية على مستوى الفرد وعلى مستوى القيادة، وهى ليست إلا التعبير الصريح عن الخوف من احتمالات الاستئصال، بل والوصول بذلك إلى حد اختلاف تلك الاحتمالات، وجعل ذلك الاختلاف أساساً لكل سلوك دولى.

أسلوب الإذابة بالتسلل من الداخل:

هذا الأسلوب يخلط بين منهاجين: التسلل من الداخل، والإذابة أو التآكل من ناحية أخرى. ولأول وهلة قد يبدو أن المنهاجين يعكسان أسلوباً واحداً، ولكن هذا غير صحيح، فالتسلل من الداخل يعنى أن التعامل الدولى يأخذ مرحلتين: **الأولى** ـ هى إضعاف الجسد من الداخل، أى فى مقوماته الذاتية. **والثانية** ـ تأتى وقد أضحى الجسد متهتكاً يعانى من أزمات داخلية فتصير الضربة أكثر فاعلية ونتائجها أكثر قسوة والاحتواء أكثر سهولة. هذا الأسلوب معروف منذ أقدم العصور، ولكن الفلسفة النازية هى التى رفعت من أهميته، وبنت على أساسه خطتها للحركة، وهكذا كانت هذه الحركة، أساسها إعداد الميدان الداخلى وضربه من خلال فكرة الطابور الخامس. وظيفة الطابور الخامس هى الحرب النفسية من جانب، وخلق القوى المعادية للسلطة الشرعية فى داخل المجتمع القومى من جانب آخر، ثم تأتى عقب ذلك الضربة القاصمة من الخارج، فتسمح بتحقيق الهدف بأقل قسط من الجهد

والتكلفة. «كيسنجر» بدوره فهم هذا التصور واستخدمه من منطلق فكرى آخر ليقود إلى نفس النتيجة. المنطلق أساسه أن السياسة الخارجية ليست مستقلة عن السياسة الداخلية، بل هى امتداد لها. السياسة الخارجية هى أداة لتنفيذ السياسة الداخلية، ومن ثم فإن التعامل الداخلى قادر على أن يطور الدولة فى تعاملها الخارجى. عندما أراد أن يتقارب مع «موسكو»، وكذلك مع «بكين»، كانت هذه هى أداته: التأثير فى الواقع الداخلى، الأُولى من خلال معارض الموضة النسائية، **والثانية** عن طريق لقاءات البنج بونج. إقناع الرأى العام الداخلى بأن المجتمع يعيش حالة تأخر وتخلف، وأن هذا النموذج القادم من الخارج الأمريكى قادر على أن يفتح الأبواب، كانت الفلسفة التى استترت خلف فكرة الدورات المتتابعة من الفتيات الحسناوات التى حملت نماذج الملابس الأنيقة من «واشنطن» إلى «موسكو»، كان دائمًا بهزله المعتاد يحدث الأفواج النسائية المغادرة للعاصمة الأمريكية بقوله: افتحوا لنا حصون «الكرملين»، وهذا هو الذى حدث فعلاً.

الإذابة أو التآكل أسلوب آخر، وإن كان يؤدى إلى نفس النتيجة فى كل مجتمع توجد عناصر ضعيفة، سواء أخذت شكل الأقليات أو أخذت صورة الفئات المتضررة، أو التى تشعر بأنها مغبونة أو غير ذلك من عناصر الضعف. ترك هذه العناصر تنخر فى المجتمع بتلقائية مطلقة، أو بمساندتها يقود إلى إضعاف الجسد أو تآكله.

المجتمع الإسرائيلى نموذج صالح لعملية الإذابة والتآكل[1] الذاتى:

أولا ــ الخلاف العميق بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين.

ثانيا ــ الصدام بين اليهود والأقليات الأخرى العربية من مسلمين وغير مسلمين.

ثالثا ــ الصراع رغم ضعفه بين الصهيونيين وغير الصهيونيين.

رابعا ــ التنافس الحاد بين الحركة الصهيونية الاشتراكية العلمانية، والصهيونية اليمينية المحافظة الدينية.

هذه التناقضات ــ بغض النظر عن مستوياتها ــ تصلح لتدعيم عملية التآكل، ودفع هذه الخلافات لأن تبرز على السطح فى صورة عنيفة، تقود إلى صدامات قد تصل إلى حرب أهلية لو أحسن استغلالها.

الإذابة أو التسلل من الداخل بهذا المعنى، تستند من حيث نظرية إدارة الصراع إلى ثلاثة عناصر كل منها يكمل الآخر:

أ ــ معلومات دقيقة عن الواقع الداخلى ومتجددة، ولا يكفى بخصوص هذه المعلومات

(1) النظام السياسى فى إسرائيل، فوزى محمد طايل، دار الوفاء؛ إطار الحركة السياسية فى المجتمع الإسرائيلى، حامد ربيع، دار الفكر العربى، من يحكم فى تل أبيب، نفس المؤلف بيروت 1975؛ النموذج الإسرائيلى للممارسة السياسية، نفس المؤلف، القاهرة 1975.

الأرقام الصماء، بل يجب أنَّ نتطرق إلى داخل النفس البشرية لاكتشاف حقيقة المبررات الدفينة ـ المفسرة والمبررة للمواقف الفردية والفئوية بصفة خاصة.

ب ـ وجود جهاز مخابرات حركى ـ أى أدوات محلية ـ تتبع الجهاز المخابراتى الخارجى، تذكرنا بأسلوب الطابور الخامس، حيث تتجمع عناصر تلك الأدوات فى إدارة واحدة تقع خارج الدولة، موضوع الهجوم تتولىَّ تحريكها.

جـ ـ أن يخضع كل ذلك لتخطيط ذكى يعرف كيف يستغل الإعلام فى كلا المجتمعين ـ المهاجم والمدافع ـ وكيف يستغل أداته الدبلوماسية، وكيف ينتفع بجميع علاقاته ومن بينها العلاقات الجامعية والثقافية من منطلق مبدأ توزيع الأدوار.

الرئيس «السادات» عندما بدأ التعامل السلمى مع إسرائيل كان ينطلق من هذا المبدأ، ولكنه انتهى بأن فتح الباب واسعًا لـ «تل أبيب» لتطويع المجتمع المصرى بهذا المعنى، دون أن ينجح هو فى تطويع المجتمع الإسرائيلى. لقد تصور أن «كامب ديڤيد» هى معاهدة موجهة ضد المجتمع المصرى، وليست معاهدة بين المجتمعين المصرى والإسرائيلى. وهذه هى حقيقة المأساة التى وقع فيها الرئيس «السادات» ومن كان حوله من المتعاونين، ولعله من المحزن أن نلحظ أن المأساة لا تزال، كما هى اليوم وعلى أشدها، ودون وعى حقيقى من جانب المسؤولين فى «القاهرة».

أسلوب التتابع فى الإرهاق :

محور هذا الأسلوب هو أربع حقائق يجب أن نبدأ بتحديدها :

الحقيقة الأولى ـ أن الجانب العربى هو الجانب الضعيف، وليس من المتوقع التخلص من الضعف الذى يعانى منه هذا الجانب فى الأمد القريب.

الحقيقة الثانية ـ أن الجانب الإسرائيلى ـ رغم قوته ـ لا يستمد تلك القوة من قدراته الذاتية، ولكن من مصادر خارجية؛ ولذلك فإن أهم ما يجب أن نحققه ـ كخطوة ثابتة ـ هو قطع مصادر التموين بالقوة ولو نسبياً.

الحقيقة الثالثة ـ أن الإطار الدولى سوف يظل مع بقاء إسرائيل، ولن يقبل استئصال إسرائيل بأى معنى من معانيه، ومن ثم تصير أحد أهدافنا الأساسية هو تحييد الإطار الدولى ـ ولو فى لحظة قصيرة ـ تكون هى اللحظة الحاسمة فى إدارة الصراع، عندما تنهال بكل قواتنا بالمطرقة التى سوف تستأصل إسرائيل.

الحقيقة الرابعة ـ أن خير استراتيجية للتعامل مع إسرائيل هى استراتيجية «الفيل» والتى معناها:

أولا ـ الضرب فى الأطراف.

ثانيا ـ الضرب من بعد.

ثالثا ـ الإرهاب كمقدمة للنيل النهائى ، عندما يرقد «الفيل» منهكًا غير قادر على الحراك.

رابعا ـ خاتمة المطاف هى ضربة قاصمة تضع حدًا للوجود.

ماذا يعنى ذلك ؟

أـ أسلوب التتابع فى الإرهاق بهذا المعنى ـ الذى هو فى جوهره التنقل من أسلوب إلى آخر ـ يجعل نصب عينيه أمرين: **الأول** ـ أن الخطوة النهائية هى ضربة حاسمة تقضى على إسرائيل نهائيًا. **الثانى** ـ أنه حتى يحين تلك اللحظة فهو لا يقتصر على رفض الوجود الإسرائيلى، بل إنه يتعدى ذلك بأن يدفع بالمشروع الصهيونى للفشل، وإثبات أن هذا المشروع غير قابل للحياة. إنه بعبارة أخرى يميز بين مرحلتين من مراحل التعامل ـ مرحلة إنهاك الخصم وانتزاع كل عناصر القوة من جسده، ثم مرحلة الإجهاز على الخصم. ومن ثم فهو مهما تنوعت أساليبه فى التعامل، فهو يؤمن بأن المرحلة النهائية سوف تعاصر الاستئصال الحقيقى للدولة الإسرائيلية.

ب ـ خلال مرحلة الإرهاق، فهو يؤمن بثلاثة مبادئ يكمل كل منها الآخر:

الأول ـ مبدأ التضامن العربى الكامل.

الثانى ـ مبدأ توزيع الأدوار.

الثالث ـ مبدأ المرونة فى الحركة، والتى أحد مظاهرها التقدم خطوتين والتراجع خطوة.

هذه المبادئ الثلاث تكون فلسفة التعامل. أول هذه المبادئ أن المعركة على مستوى التعامل هى معركة كل العرب، ويجب على كل قيادة عربية أن تسهم بدورها فى تلك المعركة، وفى هذا المستوى من يتخلف عن المعركة يجب استئصاله بلا رحمة، فليس له موضع بيننا، ليس هناك موضع لخلاف حول الحد الأدنى للأمن القومى العربى، والحد الأدنى هو استئصال إسرائيل، فهى التى تتصدر قائمة أعدائنا. الجوقة العربية يجب أن تتحرك حيث كل دولة، وكل جماعة سوف يكون لها دورها بمرونة وبتخطيط حصيف.

جـ ـ الأدوات فى خلال هذه المرحلة من أى مرحلة الإعداد والترقب ـ عديدة:

أولا ـ التعامل من الداخل بقصد تدعيم عملية التآكل بجميع أدواتها، منها استغلال حركة الانتفاضة.

ثانيا ـ حروب الاستنزاف التى تقوم بها بطريقة دورية ومتتابعة الدول المحيطة بإسرائيل، وهى خمس «مصر، والسعودية، والأردن، وسوريا، ولبنان»، ولا يعنينا هنا أن تهزم إحدى هذه الدول فى معركة أو تنتصر فى معركة، ولكن المهم أن الإرهاق يستمر بالتنقل المستمر الفجائى من دولة لأخرى.

ثالثا ـ عملية تبادل المواجهة بين الأطراف المتعاملة والمحيطة بإسرائيل، وهو يكمل الأداة الثانية، فعندما يشتد الضغط فى حرب الاستنزاف على دولة من الدول الخمس، تحمل الشعلة دولة أخرى لتخفف عبء حرب الاستنزاف، بل وترفع من درجة حرب الاستنزاف، بحيث تصير حرب مواجهة محدودة ـ أو حرب استنزاف إيجابية ـ تصاحبها عمليات اختراق جزئية.

رابعا ـ وفى جميع الأحيان يستخدم جميع الأدوات ـ وبصفة خاصة الأداة العسكرية والدبلوماسية والإعلامية ـ بتخطيط متكامل ليس أساسه الادعاء، ولكن أساسه الأوحد **وضع الرجل السليم فى المكان السليم.**

د ـ ويرتبط بذلك إعداد الإطار الدولى للتعامل. يجب أن ننظر إلى هذه العملية نظرة أكثر جدية، فلنترك جانبًا المهاترات والتى عاش كاتب هذه الأسطر جزءًا منها، ولمسها بنفسه فى جامعة الدول العربية، وفى المنظمة العربية للتربية والثقافة، وفى وزارة الخارجية العراقية، وفى مراكز صنع القرار فى القاهرة، وفى إدارة حزب البعث بدمشق، لا أريد نشر الغسيل القذر، ولكن لو ارتفع صوت واحد يشكك فيما أقول، فنحن على استعداد للتحدى[1]، ولإبراز الوثائق، ورغم علمنا أن هذا ليس وقته. لقد آن الأوان ليعرف[*] كل قائد، وكل مسؤول عربى حقيقة إمكانياته، وأن يكمل ذلك بمن هو قادر. والسياسة الدولية لم تعد صنعة الهواة، ويجب أن نضع فى أذهاننا أن الإطار الدولى والتعامل معه يفترض:

أولا ـ تحييد القوى الكبرى فى التعامل مع المنطقة.

ثانيا ـ التواجد فى كل مكان. استطاعت الصهيونية أن تتغلغل فى داخله.

ثالثا ـ إنشاء رأى عام دولى متعاطف مع القضية العربية.

رابعا ـ تنظيم عملية التبكيت فى الضمير الدولى.

خامسا ـ استخدام المنظمات الدولية بما فى ذلك محكمة العدل الدولية، أداة أساسية فى عملية الصراع الدولى، حول تشويه الصورة القومية الإسرائيلية.

هـ ـ وذلك كله إعدادًا لمرحلة الضربة القاضية ـ التى قد تأتى غدًا ـ وقد تحتاج إلى عدة أجيال، ولكن ذلك الذى يجب أن نتذكره بهذا الخصوص، والذى يجب أن يكون واضحًا فى ذهن القيادة العربية:

---

(1) وهذا الفكر الواعى المستنير للدكتور حامد ربيع وموقعه بجامعة القاهرة كأستاذ ومُربى. نعتقد أن هذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة وغيرها كثير ـ تجعل العدو اليهودى أو «الموساد» أو أحد عناصر الصهيونية العالمية يقوم باغتياله، وهذا ما أكدته الصحافة ليُسكتوا مثل هذا الصوت. راجع جريدة الوفد يوم 1995/1/18 تحت عنوان: ربيع وجمال حمدان.. نهايات مفتوحة ـ أحمد المسلمانى.

(*) وهذا هو الذى دفعنا لمواصلة تقديم النصح والإرشاد، وإظهار البيان، إبراءً للذمة.

أولا ـ أنها مهما تأخرت فسوف تأتى، بل وقد نستطيع أن نفرض على إسرائيل أن تسعى إليها.

ثانيا ـ أن علينا أن نسير فى هذا الهدف بتؤدة وصبر، لا نتعجل تلك اللحظة، ولكن على أن نكون على أتم الاستعداد لها.

ثالثا ـ أنه لا يوجد ما يمنع من العمل فى سبيل نضج تلك اللحظة، ولكن على أن نكون على أتم الاستعداد لها.

لو نتذكر بذلك الخصوص حقيقتين:

الأولى ـ أننا لا نريد أن نقضى على المجتمع اليهودى، بل على الدولة الإسرائيلية، وأن المجتمع اليهودى مستقبله مقيد باستيعابه فى المجتمع العربى، ليصير جزءًا من أجزاء ذلك المجتمع ـ كما هو حادث ـ سواء فى المجتمع الأمريكى أو المجتمع الروسى.

الثانية ـ أن إمكانياتنا فى المعركة الحاسمة عديدة، ويجب أن تخضع تلك المعركة بدورها لمبدأ توزيع الأدوار، يجب أن يكون حصارنا وتعاملنا مع دولة إسرائيل ساحقا ومدمرا، موقع إسرائيل الاستراتيجى ضعيف، ومن الممكن حصارها، ورغم أن هذا ليس موضوع هذه الدراسة، **فلنتذكر المبادئ الأساسية**:

1 ـ **هجوم مكثف مفاجئ بالصواريخ القصيرة المدى من جانب «الأردن»، يرافقه هجوم بالصواريخ المتوسطة المدى من الجانب السورى يسمح بتحطيم القنابل النووية ومنع الاحتياطى الإسرائيلى من التجمع.**

2 ـ **خروج الأساطيل الليبية والجزائرية والمغربية لقطع المواصلات وحصار إسرائيل، ومن ثم منع تقديم أى معونة أو اتصال بحرى، ولو اضطرت تلك القيادات لضرب إحدى قطع الأسطول الأمريكى من الجو للإنذار والتخويف.**

3 ـ **عملية إنزال للضفادع من «مصر وسوريا» ترتبط بحركة انتفاضة ضخمة لخلق الشلل الكامل فى جميع مرافق الاتصال فى داخل إسرائيل، ويرتبط بذلك ضرب مكثف للسواحل الإسرائيلية.**

4 ـ وفى خلال ذلك ـ تكون قد تمت عملية الإحاطة الميدانية بإسرائيل من الجيوش الأربعة «العراق، وسوريا، السعودية، مصر».

5 ـ وعقب ذلك يبدأ الزحف الجبهوى، وقد تجمعت قوات تزيد على خمسة ملايين جندى، تصاحبها قرابة ستة آلاف دبابة تتجه نحو إسرائيل فى إطار محكم، حتى إذا اقتربت من إسرائيل تفرعت إلى عدة جبهات، كل منها تسعى للاختراق فى إحدى النقط

الحدودية، ويكفى اختراق واحد للإحاطة والحصار للقوات الإسرائيلية.

هذه المبادئ العامة فى حاجة إلى تفاصيل ـ ليس هذا موضعها ـ ولكن حول نقطتين يجب الاتفاق عليها:

الأولى ـ التخطيط العربى المتكامل لتنفيذ مثل هذا المخطط.

الثانية ـ ضرورة وضوح التصور بكيفية استيعاب المجتمع الإسرائيلى المهزوم فى داخل المجتمع العربى، لينصهر فى بوتقة الأمة العربية، وبحيث لا يستطيع العودة إلى تجمع إقليمى آخر يهدد الوجود العربى بأى صورة كانت.

ولكن هل تستطيع القيادات العربية الحالية أن ترتفع إلى مستوى المسؤولية الحقيقية؟

سؤال آخر ليس هذا موضع الإجابة عليه.



المراجع

1 ـ أزمة شيشان، لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ مركز الإعلام العربى، ط1 عام 1994.

2 ـ أهداف إسرائيل التوسعية، لواء. محمود شيت خطاب ـ دار الاعتصام ـ القاهرة.

3 ـ الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ومحاورات جارودى بالقاهرة ـ دار الغد العربى ـ ط2، 1997.

4 ـ الأهرام الاقتصادى (كتاب 1988) ـ بقلم دينا جلال «المعونة الأمريكية لمن؟ لمصر أم لأمريكا؟».

5 ـ الدولة العثمانية «دولة إسلامية مفترى عليها» أ. د. عبد العزيز الشناوى (3 أجزاء) مكتبة الأنجلو المصرية.

6 ـ الطريق إلى بيت المقدس. د. جمال عبد الهادى مسعود ـ جزء ثان ـ دار الوفاء ـ المنصورة.

7 ـ النظام السياسى فى إسرائيل ـ لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل ـ دار الوفاء طبعة 2، عام 1992.

8 ـ أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ، ذرية إبراهيم عليهم السلام والمسجد الأقصى، د. جمال عبد الهادى مسعود، د. وفاء محمد رفعت، دار الوفاء ـ المنصورة.

9 ـ العالم الإسلامى، إفساد التعليم لمصلحة من؟، سعيد عبد الحكم زيد، مكتبة وهبة، القاهرة.

10 ـ البعد الإسلامى فى أزمة الخليج، ترجمة وتعليق: لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل. تقديم أحمد رائف.

11 ـ المؤامرة على التعليم والمعلم ـ صلاح الدين محمود وآخرون ـ دار الوفاء ـ المنصورة.

12 ـ احتواء العقل المصرى، والتى نُشرت فى كتاب تحت عنوان: «قراءة فى فكر علماء الاستراتيجية، (الاستعمار والصهيونية وجمع المعلومات عن مصر) الكتاب الرابع.

13 ـ جذور البلاء، عبد الله التل، المكتب الإسلامى، دمشق 1978.

14 ـ «جارودى والإسلام وغضب الصهيونية» محمد فوزى ـ المركز العربى للنشر والتوزيع.

15 ـ جريدة عرب تايمز، العدد 107، بتاريخ 11 : 20 ديسمبر 1992، ص 38.

16 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 18 يونيو 1996.

17 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 23 يوليو 1996.

18 ـ جريدة الأهرام المصرية، بتاريخ 30 يوليو 1996.

19 ـ كارثة الخليج وأزمة الشرعية فى العصر الأمريكى د. محمود عصفور ـ دار القارئ العربى.

20 ـ مقالات د. حامد عبد الله ربيع ـ الأهرام الاقتصادى، الأعداد 734: 739 تحت عنوان: احتواء العقل المصرى.

21 ـ مجلة استراتيجيًا الأعداد: 97 السنة التاسعة، مارس 1990.

98 السنة التاسعة، أبريل 1990.

100 السنة التاسعة، يونيو 1990.

101 السنة التاسعة، يوليو/ أغسطس 1990.

102 السنة التاسعة، سبتمبر/ أكتوبر 1990.

104 السنة التاسعة، يناير/ فبراير 1991.

106 السنة التاسعة، مايو/ يونيو 1991.

107 السنة التاسعة، يوليو/ أغسطس 1991.

108 السنة التاسعة، سبتمبر/ أكتوبر 1991.

111 السنة التاسعة، مارس/ أبريل 1992.

112 السنة التاسعة، مايو/ يونيو 1992.

22 ـ نحو نهضة أمة (كيف نفكر استراتيجيًا) لواء أ. ح. د. فوزى محمد طايل، مركز الإعلام العربى، طبعة أولى عام 1997.

23 ـ نظرية الأمن القومى العربى، د. حامد عبد الله ربيع ـ دار الموقف العربى.

تعريف بالمؤلف

* حامد عبد الله ربيع
* ولد فى 24 / 4 / 1924
* حصل على البكالوريا عام 1942
* حصل على الدكتوراه الخاصة فى العلوم 1954
* حصل على دكتوراه العلوم السياسية 1962

مناصبه

* أستاذ مساعد بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة.
* عمل مساعداً لكرسى القانون العام بجامعة باريس من 1962 : 1964
* عُين أستاذاً للنظرية السياسية فى كلية الاقتصاد عام 1967
* أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة.
* أستاذ ورئيس قسم الدراسات القومية بمعهد الدراسات العربية.
* أستاذ خارجى بجامعات ـ الخرطوم ـ بغداد ـ روما ـ باريس

مؤلفاته

* له مؤلفات تزيد عن الخمسين مؤلفًا، بالإضافة إلى عشرات الأبحاث والمقالات وعشرات من الرسائل العلمية التى أشرف عليها.
* له ثلاثة عشر مؤلفًا باللغات الفرنسية والإيطالية.
* له مؤلفات ذات طابع علمى متخصص فى العلوم السياسية أهمها:

1 ـ مستقبل الإسلام السياسى. 2 ـ الإسلام والقوى الدولية.

3 ـ الأصول الإسلامية للنظرية السياسية فى التقاليد الغربية.

4 ـ سلوك المالك فى تدبير الممالك (تحقيق).

* **له مؤلفات على شكل مذكرات لطلبته مثال ذلك:**

1 ـ نظرية القيم. 2 ـ الإسلام والقومية.

3 ـ تطور الفكر السياسى الإسلامى.

** يقال إنّه أغتيل على يد الصهيونية العالمية فى بيته يوم الأحد 10 سبتمبر 1989 (راجع فى ذلك جريدة الوفد المصرية بتاريخ 18 يناير 1995 تحت عنوان: «ربيع وجمال حمدان نهايات مفتوحة» بقلم: أحمد المسلمانى).

فهرس الكتاب